

مركز دراسات الوحدة المربية

سلسلة الثقافة القومية (E)

التجزئة المربية كيف تحققت تاريخيًا؟

الدكتور احمد طربين

تم تنسيق وإعادة إخراج النسخة من قبل مكتبة مؤمن قريش

التجزئة المربية

كيف تحققت تاريخيًا ؟



مركز دراسات الوحدة المربية

سلسلة الثّقافة القومية < ١٤)

التجزئة المربية كيف تحققت تاريخيًا؟

الدكتور احمد طربين

«الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة المربية

بنایة «سادات تاور» ـ شارع لیون ـ ص.ب: ۲۰۰۱ ـ ۱۱۳ بیروت لبنان تلفون: ۸۰۱۵۸۲ ـ ۸۰۱۵۸۷ ـ ۸۰۲۲۳۴ برقیاً: «مرعربی» تلکس: ۲۳۱۱۶ مارابی. فاکسیمیلی: ۸۰۲۲۳۳

> حقوق النشر محفوظة للمركز الطبعة الأولى بىروت: كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧

المحتويات

تقدیم تقدیم
الفصل الأول: وحدة الوطن العربي السياسية
والحضارية وصمودهاحتي مطلع
القرن التاسع عشر ١٨
الفصل الثاني: ارتباط الهيمنة الاستعمارية بالتجزئة
العربية (۱۷۹۸ ـ ۱۹۲۰) (۱)
الفصل الثالث: ارتباط الهيمنة الاستعمارية بالتجزئة
العربية (۱۷۹۸ ـ ۱۹۲۰) (۲) ۱۰۱
الفصل الرابع: العرب وتحدّي الاستعمار والصهيونية
والتجزئة (۱۹۲۰ ـ ۱۹۲۱) ۱۳۸
الفصل الخامس: العوامل الداخلية للتجزئة ٢٢٩
الفصل السادس: العوامل الخارجية للتجزئة ٢٨٤
الخاتمة

تقديم

ان أهم مصادر القوة في النزعات القطرية الاقليمية والاتجاهات الانفصالية المحلية، هو عدم الاطلاع وسوء التقدير. عدم الاطلاع على ما يجري في سائر الاقطار العربية اطلاعاً شاملا، وعدم الاطلاع على أصول الأوضاع السياسية الراهنة ومنابعها الأصلية ومصادرها الحقيقية. ثم سوء تقدير المصالح الأساسية التي تربط مختلف الأقطار العربية، قاصيها ودانيها، بعضها ببعض، وسوء تقدير الأخطار التي تنجم عن بقاء الاقطار العربية عزأة ممزقة الأوصال، كحالها اليوم.

لقد كانت الدولة العربية موحدة، رغم انه لم يكن يسودها نظام إداري مركزي صارم، وحدود سياسية مرسومة، كالتي تعرفها (الدول) العربية اليوم. والحق أنه لم تكن ثمة حاجة لتعريف الحدود وتخطيطها بين الأقاليم والأمصار في الدولة العربية

الاســــلامية، اللهم إلا مــا كــانت تقتضيــه ضرورات الـــــــاع عن حوزتها وعن حدودها المتاخمة للاعداء، من خــلال مناطق الثغــور التي كانت تفصل دار الاســلام في بلاد الشــام، مثلًا، عن الــدولة البيزنطية في آسيا الصغـرى. ومن المعلوم أن أقطار الـوطن العربي في الموقت الحاضر، كمانت أجزاء من امبراطوريـة عربيـة واسعـة الارجاء، تمتد رقعتها من قلب قارة آسيا حتى أقصى بلاد المغرب في قارة افريقيا، بحيث يمكن القول إن تاريخ هــذا القطر أو ذاك، كان له منحى مشترك مع تواريخ الاقـطار العربيـة الاخرى، منـذ مدة تزيـد عن اثني عشر قرنـاً. وإن هذه الاقـطار لم تنكمش وراء حدودها الحالية وتتخذ اوضاعها الراهنة، إلا منذ ما يقارب القرن ونصف القرن، أي منذ أن ابتليت تباعاً بالاحتلال والاستعمار الاوروبي. ولا تختلف احوال هذا القطر أو ذاك اختلافًا جوهـرياً في هذا المجال. بلي، ربما تفاوت تاريخ انفصالهـا أو اقتطاعهـا من السلطنة العثمانية، التي حافـظت عليها مـوحدة، الى أن وقعت مــا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين فريسةً للأطماع الاوروبية المتربصة بها، نتيجة عجز القوة العشانية عن مواجهة الطروف والتحديات الجديدة، بسبب ضعفها وانحطاط اداتها العسكرية، قياساً على الغرب الأوروبي الذي اندفع قدماً لتجديد نظمه وتنمية قوته. ولكن الاقطار العربية اشتركت، ولا تزال، في اللغة والتاريخ والتراث والحضارة، فضلًا عن المحن والتحديات والمخاطر، اضافة الى تجاورها الجغرافي وتـواصلهـا الاجتـماعي وتكاملها الاقتصادي. لقد كانت السلطة العليا في الدولة العربية الاسلامية عمثلة في نظام الخلافة، وهو النظام الذي ساد الدولة العربية بعد وفاة النبي (ص)، فنظّم للجهاعة الاسلامية أمورَ دينها ودنياها. ولذا حظى بالولاء العميق من المسلمين في الجزيرة العربية، وفي الأقاليم التي امتــد اليها سلطانهم في الــوطن العربي ومــا وراءه، بحيث أصبــح الناس في ديار الاسلام لا يتصورون عزّ الخلافة بغير سلطان الأمــة العربية، ولا هبوط مكانتها إلا مصحوباً بزعزعة وحدة الأمة العربية في عصور الضعف والانحطاط. وحتى حين غلبت جماعات وقموى غير عمربية عملى المسرح السياسي، كالسلاجقة في العراق والجزيرة، والايـوبيين في مصر والشـام، والمرابـطين والموحـدين في بـلاد المغرب، والمماليك في مصر والشـام والحجـاز واليمن، فـإنها حرصت على حماية الوحدة السياسية للأمة العربية، بحماية الخلافة العباسية والمحافظة على سلطانها الشرعي. وكان هـذا الحرص من أهم الأسباب التي حفظت للوطن العربي وحدته السياسية طوال العصر السوسيط وحتى العصر الحديث، حسين زالت الخسلافة العباسية نهائياً على يد العثمانيين الذين صانوا هذه الوحدة حتى ظهور المطامع الإستعمارية الأوروبية في مـطلع القرن التـاسع عشر المسلادي/ الثالث عشر الهجري. وقد تجلَّى الحرصُ على صون الخلافة العباسية من جانب المتغلبة غير العرب في اهتمامهم الشديد بنوال تقليد الخليفة بولاية البلاد التي في حوزتهم، ليكتسب حكمهم صبغة شرعية لا يستقيم سلطانهم على الرعية إلا بها. كما

تجلّى في إقناعهم عن اتخاذ لقب (الخليفة)، والإكتفاء بلقب (سلطان) أو (أمير المسلمين). . وظل مقام الخلافة يجمع قلوب العرب والمسلمين في المشرق والمغرب حول شخص الخليفة كرمز للوحدة السياسية، من خلال الخطبة له على المنابر، وكتابة اسمه على العملة . كما ظل تقليد الخليفة للحاكم شرطاً أساسياً لنفاذ أحكامه وسير أموره . من ذلك، مثلاً، أنه إذا لم يُنصّ في تقليد الحاكم على تفويضه بسك العملة، فإن عملته لا تعتبر صحيحة شرعية ، بل عملة مزيفة (زغل) . ولا أدل من حياة ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م والمهام السياسية التي تولاها في غرناطة وفاس وتونس والقاهرة ودمشق ، على ان حق (المواطنة) لعربي كان مصوناً ومعترفاً به أينها حلّ في وطنه الكبير حيث لا حدود ولا قيود.

إن الوطن العربي قبل العصر الحديث لم يعرف (التجزئة) بمفهومها الاصطلاحي الشائع القاضي بتحديد الجنسية والعملة والنشيد والجوازات والحدود الفاصلة والحواجز الجمركية القائمة. .
إلا نتيجة الاتفاقات والمعاهدات التي عقدتها الدول الاستعمارية الاوروبية حين تقاسمت الأقطار العربية وسيطرت عليها. وإن جميع الاختلافات في النظم الادارية والتشريعية والاقتصادية والسياسية . هي من مواريث الاحتلال الأجنبي، فهي إذا حديثة وعارضة . والعامل المهم الذي كان له أثر حاسم في التجزئة العربية ، هو عامل الاستعمار الأوروبي، وقد نشأ بعد تأسيس العربية ، هو عامل الاستعمار الأوروبي، وقد نشأ بعد تأسيس

امبراطوريات آسيوية استعارية للأوروبيين. ذلك أن حركة الكشف الجغرافي الأوروبي التي بلغت أوجها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مكّنت الأوروبيين من الإلتفاف حول الوطن العربي، وهيأت لهم أيضاً سيادة في بحار لم ينازع الملاحة العربية فيها منازع. وعلى أثرها، نهضت المنافسة الأوروبية في القرن التاسع عشر على امتلاك المستعمرات في أوروبا وافريقيا. فحين لم تنجح الحملات الصليبية في بسط نفوذها على عالم الاسلام في حوض البحر المتوسط، فكرت الدول الأوروبية الغربية في تطويقه بواسطة احتلال المعابر المائية البحرية، إتماماً لحرب الاسترداد التي بدأتها اسبانيا في الأندلس لطرد العرب منها، والتي تزامنت مع الحملات الصليبية على الوطن العربي. ثم محاولة اخضاع المسلمين المحملات الصليبية على الوطن العربي. ثم محاولة اخضاع المسلمين في المغرب الكبير لأنهم كانوا يغذون حركة الجهاد البحري في المغرب الكبير لأنهم كانوا يغذون حركة الجهاد البحري الأندلسية والمغربية بالمال والرجال.

ومن ناحية أخرى، رغبت الدول الأوروبية الإستعارية صاحبة الامبراطوريات الآسيوية، في أن تصل الطرق البرية الموصلة لهذه الامبراطوريات والمارة بالأقطار العربية الشرقية، بالطرق البحرية الخاصة بها، وقد انتهت هذه المرحلة بالاحتلال البريطاني لمصر والعراق، والاحتلال الفرنسي لشهال افريقيا والشام. ويلاحظ أن علاقة أوروبا بالعرب مرت بحرحلتين، احداهما أطول من الأخرى: فالتطويق الأوروبي للوطن العربي جرى ما بين (١٥٠٠ ـ ١٨٠٠)، وأنجز به الأوروبيون الإحاطة

بديار العرب في أطرافها وعلى هامشها، فإذا حكموا جزءاً من هذه الديار كان على الساحل فقط.

والمرحلة الثانية تنقسم الى فترتين: أولاهما تقع ما بين (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠) حين تطور التطويق إلى احتلال وبسط نفوذ في القلب. والأمثلة: حملة فرنسا على مصر (١٧٩٨) ونزول فرنسا في الجزائر (١٨٣٠) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨١)، وثانيتها تقع ما بعد عام ١٩٠٠ حين بدأت ايطاليا باحتلال ليبيا (١٩١١) وفرنسا باحتلال المغرب الأقصى (١٩١١).

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى، تتمثّل الفترة القوية في تأكيد النفوذ الأوروبي باحتلال فرنسا وبريطانيا لأقطار الهلال الخصيب (الشام والعراق) بأشكال مثل الانتداب والمعاهدات (١٩٢٠).

فالتطويق الذي بدأ بتأسيس امبراطوريات إستعارية، ولم يؤد الى اعتداء على حوزة الوطن العربي، تطور الى احتىلال، لتفاوت قوة العرب وقوة الأوروبيين في الحرب والعلم والاقتصاد. والفترة ما بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ فترة محاولات، بعضها حقق غرضه وبعضها لم يحقق غرضه، وما بعد عام ١٩٠٠ جرت محاولات قوية لبسط النفوذ، ثم بدأ إنحسار النفوذ الأوروبي الاستعاري بسبب تعاظم المد القومي العربي، وعدم استطاعة الأوروبيين مجابهته بعد حربين عالميتين ساحقتين، ثم بظهور روسيا كعامل توازن.

إن التجزئة التي تعيشها الأقطار العربية المتعددة اليـوم، لم تتكون بإرادة جماهير هـذه الأقطار، أو بمقتضيات طبيعتها، وإنما تكونت نتيجة المعاهدات والاتفاقات المرمة بين الدول الأوروبية الاستعمارية لاقتسام أقطار الوطن العربي والسيطرة عليها. كـذلك لم تكن جماهير هذه الأقطار هي التي نصبت الحواجز بينها ورسمت الحدود القائمة فيها. وإنما تقررت الحدود بعد مساومات ومفاوضات إستعمارية مضنية، تمّ بعدها التوصل الى ضمان مصالح الدول الاستعارية وفق مبدأ (التعويضات المتقابلة). واختــلاف الأقـطار العــربيــة في النــظم الإداريــة والتشريعيــة والإقتصادية، وتباينها في الاتجاهات السياسية والنزعات القـومية لا يـرجعان الى مشيئة العرب واختيـارهم، وانما يـرجعان الى عهـود الاحتلال والسيطرة الأجنبية التي فرضتها وأملتها بالقوة والقهر، فهي طارئة عارضة استحدثها وأوجدها الاستعمار في الأقطار العربية وفق مبدأ (فرّق تسد).

والاستعبار، سواء أكان فرنسياً أم بريطانياً أم ايطالياً أم اسبانياً، احتل هذه الاقطار في تواريخ مختلفة وظروف متباينة، ومضى يحكم كلاً منها بموجب نظم ادارية وتشريعية وإقتصادية وثقافية خاصة، ترمي الى إيجاد الفوارق بينها، بحيث يتهايز هذا القطر عن ذاك تمايزا واضحاً. وبالمقابل، أدت ثورة كل جزء من اجزاء البلاد العربية ضد دولة الاستعمار الحاكمة الى تكوين حكومة وطنية ذات استقلال جزئي مقيد، تدرجت منه الى

الاستقلال التام المطلق، بوسائلها الخاصة وبجهود ابنائها، في تواريخ مختلفة وظروف متباينة، وبذلك تكونت في البلاد العربية دول متعددة وظهرت التجزئة العربية، هذه التجزئة التي تثبتت حين لم تتخلص البلاد العربية من آثار معظم النظم والأوضاع التي خلفها وفرضها الحكم الاستعاري السابق.

إن قيام التجزئة العربية على صورة دول متعددة، تمتاز كل منها بعملها وحكومتها ونقدها وأنظمتها. قد أوجد بعض النزعات القطرية والخصوصيات المحلية، وصارت هذه مع مرور الوقت تعرقل شعور العرب بأنهم ابناء أمة واحدة على رغم اختلاف أوضاعهم السياسية القائمة، ولكن حقائق العالم من حولنا التي لا تحترم الا الكيانات الكبيرة الموحدة، والنكبات التي لا تزال تنهال على أمتنا العربية نتيجة هذه التجزئة المصطنعة، قد أضعفت هذه النزعات الإقليمية، وقوّت الإيمان بوحدة أمتنا العربية.

وكلما تعمق المفكرون في درس حقيقة الأحوال الراهنة للأقطار العربية من شتى وجوه الحياة السياسية والإقتصادية والإدارية والتشريعية، وقارنوا هذه الأحوال بدقة لإظهار الفوارق والمشابهات القائمة بين هذه الأقطار من الوجوه المذكورة، ثم عملوا على كشف هذه الفوارق والمشابهات وتبيان الظروف التي أوجدتها، وتحروًا الوسائل التي تساعد على إزالة الإختلاف، وزيادة التقارب والتشابه بين الأقطار العربية، كلما أعادوا تيار

التاريخ العربي الى مجراه الأصيل الموحد، وساهموا في القضاء على ظاهرة التجزئة التي هي مصدر جميع عللنا، وبذلك يرتفعون الى مستوى مسؤولياتهم القومية والتاريخية، ويحققون رجاء أمتهم العربية فيهم.

وقـد رأيت أن البحث يتضـح ويستقيم لـو قسّمتـه فصـولًا، يوجز أولها وحدة الوطن العربي السياسية والحضارية وصمودها حتى مطلع القرن التاسع عشر، حيث عرضت بإيجاز شديد لنشأة الـدُولة العربية المـوحدة، والفتـوح التي رافقتها، ومـا أعقبها من هجرة القبائل العربية الى البلاد المفتوحة، وانتشار الإسلام واللغة العربية بين شعوبها. وبيّنت كيف ان المجتمع العربي كأن يمتلك القوة الذاتيـة لمقاومـة أخطار الغـزو والقهر والإنفصـال حتى أواخر عهد الخلافة العباسية التي واجهت تحديات خطيرة في الداخل والخارج. وعلى رغم سقوط بغداد في يـد المغول، فقـد استمرت الخلافة العباسية تمارس سلطانها المديني والشرعي من القاهرة عاصمة الماليك، حتى سقوط دولتهم على يد الدولة العثمانية. وقد تناولت باختصار الفتح العثماني للأقطار العربية مشرقاً ومغرباً، وقد تصدَّى لمحاولات الغزو الأجنبي، وتحقق للنيابات المغربية في أيامه مقومات وجودها السياسي والقومي المذي برزت معالمه في المرحلة الاسلامية السابقة، وارتسم كيان كل منها من حيث اختيار العاصمة، وظهور معالم الحـدود، وقيام الأجهـزة الإدارية والنـظم السياسية والإقتصادية.

وعالجت في الفصلين ألثاني والثالث على التوالي، ارتباط الهيمنة الاستعمارية بالتجزئة العربية ما بين ١٧٩٨ و١٩٢٠ فشرحت كيف نكبت أقطار الوطن العربي باستعمار أربع دول أوروبية، بدأت جولاتها مع الحملة الفرنسية على مصر والشام، وانتهت باقتسام بريطانيا وفرنسا أقطار الشام والعراق، وبذلك تكاملت الهيمنة الاستعمارية، وظهرت التجزئة العربية في صورتها الراهنة.

وتناولت في الفصل الرابع ردود العرب على تحدي الاستعار والصهيونية والتجزئة ما بين ١٩٢٠ ـ ١٩٦١، فمهدت بكلمة عن الجهود التي بذلتها القومية العربية في مواجهتها للعنصرية التركية والمطامع الاستعبارية قبل عام ١٩٢٠، ثم أوجزت المساومات الدولية التي قضت علي هدف العرب في الاستقلال والوحدة عام ١٩٢٠. وضربت مثلاً لرسم الحدود بين (الدول) في بلاد الشام ابتداء من العام المذكور، تنفيذاً للتجزئة السياسية، وأشرت الى التطور السياسي والقومي في كل من الأقطار العربية التي بدأت تتخلص تباعاً من الاستعبار، وتعمل على تجاوز التجزئة. وعرضت في الفصل الخامس لعوامل التجزئة الداخلية في ضوء النزعات والاتجاهات وصراع المؤيات في الدول العربية، إضافة الناكات السياسية والتجارب العملية التي مرت بها منذ نوال الاستقلال.

وفي الفصل السادس تناولت عوامل التجزئة الخارجية،

ومقاومة الدول الكبرى لفكرة الوحدة العربية قبل خلق (اسرائيل) وبعدها، ومساعيها الدائبة مع صنيعتها (اسرائيل) لتصبح التجزئة القدر المحتوم للأمة العربية.

ولا حاجة إلى القول إن موضوع (التجزئة العربية) موضوع ضخم، وقد حاول الباحث أن يلم به من جميع جوانبه، رغم المزالق والصعاب التي تكتنفه، فتجعل مجال الصراحة فيه محدوداً ضيقاً، وميدان الاجتهاد واسعاً متبايناً، ولا سيا في الفترة المعاصرة.

والباحث إذ يتوجه بالشكر الى مركز دراسات الوحدة العربية على التنبّه للموضوعات الحيوية التي تهمّ أمتنا العربية في هذه المرحلة المصيرية، ليأمل أن يكون له أجر المجتهد إن أصاب أو أخطأ، راجياً أن يسمع من نقد القراء وملاحظتهم ما يغني مجال هذه الدراسة الموجزة، وتلافي أي نقص مستقبلًا والله من وراء القصد.

الفصل الأول

وحدة الوطن العربي السياسية والحضارية وصمودها حتى مطلع القرن التاسع عشر

إذا تركنا جانبا تاريخ العرب القديم، وتجاوزنا أدواره الحضارية الهامة، وركزنا على الوثبة الكبرى التي قامت بها الأمة العربية بعد هجرة النبي العربي العظيم، لوجدنا أنه منذ أن ظهر الاسلام يكافح النزعات العصبية القبلية، ويحل رابطة العقيدة على رابطة الدم، ويتجاوز الحدود القبلية ويتطلع الى تكوين الأمة التي تسمو فوق كل القبائل، وتعلو مصلحتها فوق كل مصلحة، مارست الأمة العربية وجودها التاريخي لأربعة عشر قرناً على أرض الوطن العربي.

لقد سلّمت قبائل شبه الجزيرة العربية بالطاعة لدولة المدينة التي امتـد نفوذها في بلاد اليمن وحضرموت وعمان، إضافة الى أطراف العراق والشام. وتحققت وحدة العـرب السياسية بزعامة النبي (ص)، عـلى أسـاس وحـدة العقيدة والنـظم والتشريع

والأخلاق والسلوك. وتأصّلت اللغة العربية بعد أن غلبت لغة القرآن ولهجة قريش على ما عداها من لهجات العرب.

وقامت الأمة العربية بفتوح سريعة وعظيمة جعلت حكمها يمتد حتى المحيط الاطلسي غرباً، وهضاب الصين وأنهار الهند شرقاً. واستطاعت أن تفتح خلال قرن واحد بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثهانية قرون، ورافقت هذه الفتوح، وأعقبتها نظم حضارية وثقافية جبارة، أوصلت العرب الى أعلى المراتب في العلوم والآداب والصناعات.

وحملت الأمة العربية معها رسالة الخير والعدل الى بلاد الشام والعراق ومصر، وتولت تحسريرها من العبودية السياسية والاقتصادية، بعد أن كان أهاليها يدفعون غاليا ثمن الحرب الضروس بين بيزنطة وفارس، بعد حرمانهم من حقهم في حرية العقيدة، واضطهادهم لمخالفة مذهب الدولة المسيطرة عليهم. وبعد الإطاحة بفارس وحصر بيزنطة عند حدود معينة لا تتخطاها، وجد أهالي هذه المناطق في العرب ما لم يجدوه في المستعمرين من الفرس والروم، فأسلم معظمهم، واتحدوا مع العرب في أصل من أصول الحياة الروحية، وكانت اللغة العربية العرب أن تقاربهم ثقافياً وإجتماعياً وروحياً، وظفر غير المسلمين الذهبية بفضل تسامح الدين اختاروا البقاء على دينهم، بحرياتهم المذهبية بفضل تسامح العرب، وظلت روح الاخماء العربي تجمع بين المسلمين المسيحيين في الأقطار العربية حتى يومنا.

وبعد الفتوح، أصبحت المنطقة الممتدة بين الخليج والمحيط مسرحاً لتطورين هامين صبغا شعوب المنطقة بصبغة عربية واضحة تجلّت بالتساند العضوي والتضامن القومي، وهما هجرة كثير من القبائل العربية الى البلاد المفتوحة واستقرارها فيها، وانتشار الاسلام واللغة العربية بين شعوبها.

وبينها هاجرت أولى القبائل العربية في القرن الأول الهجري (السادس الميلادي) إلى بلدان الهلال الخصيب، فقصدت أولا العراق، ثم امتدت إلى بلاد الشام، وتدفقت إلى مصر، وانساحت في بلاد النوبة والسودان، هاجرت آخر القبائل العربية من مصر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى بلاد المغرب، وانتشرت في برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، ثم انحدرت جنوباً حتى مصب نهر السنغال.

وبادىء الأمر ظل العرب المهاجرون يعيشون في مدن عربية أو معسكرات وأجناد أقاموها في هذه البلدان، حفاظاً على العنصر العربي الذي كان وقود الجهاد وعدّة الحرب من الإختلاط مع السكان الأصليين والإشتغال بالزراعة وسواها. ولكن الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، سمحت للقبائل العربية المهاجرة بحيازة الأرض والعمل بالزراعة، وبدأ امتزاج العرب بشعوب هذه المنطقة، كما بدأ الاسلام ينتشر بينها، ببطء أولاً، ثم جماعات وافواجاً، سواء في العراق وفارس، أم في الشام ومصر والمخرب. وزاد في تماسك الاقطار العربية، خضوعها لحكم

واحد، تمثّل في نظام الخلافة الذي كان من أهم أركان الوحدة السياسية، وكان في تعامله مع شعوب الامصار، ينطلق من مبدأ (الحرية)، فلم يحاول العرب أن يفرضوا عليها لغتهم العربية، ولكن انتشار الاسلام، اقتضى أن يتعلم معتنقوه اللغة العربية لفهم القرآن واحكام الدين واحياء شعائره. وبذلك أصبحت العربية لغة التخاطب والثقافة والعلم حتى لدى غير المسلمين من سكان الوطن العربي. ولم يتحقق ذلك بوضوح إلا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وهكذا اتسع مفهوم الوطن العربي، فلم يعد قاصراً على الجزيرة العربية، وإنما شمل الأقاليم الوافعة بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي، وارتسمت على هذا النحو حدود الوطن العربي التي توارثناها عن الأجيال، وما زالت قائمة حتى اليوم.

وبما ان نظام الحكم الذي رسمه العرب لا ينطوي على عصبية جاهلية أو تفرقة عنصرية، ولم يكن نظاماً فرضه غالب على مغلوب، فقد استقطب ولاء جميع الناس حوله، لأنه أعطاهم المزيد من الحريات المدنية، الى جانب ما حصلوا عليه من حريات دينية واجتماعية واقتصادية، ولأنه اشتمل على عناصر مرنة تفاعلت مع النظم والتقاليد القديمة لشعوب المنطقة فيها لا يتعارض مع أحكام الشريعة.

ولم تكن الموحمدة التي أظلت الموطن العربي ودار الاسلام وحدة سياسية فحسب، وإنما كانت ايضا وحمدة ثقافية وفكرية ازدهرت وتأصلت في نفوس أهل البلاد. وبما ساعد عـلى ظهورهـا وتطورها انتشار العقيدة الاسلامية واللغبة العربية، وتزايد عدد المدارس وتجاوزها دور التقليد الى دور الأصالة والتجديد، واقبال أهل البلاد على النهل من علومها. ولا شك في أن السوحدة السياسية قد وقرت للوحدة الثقافية عوامل نموها، حين سمحت للعلماء والمتكلمين أن ينتقلوا بين أرجاء الوطن العربي دون قيود أو حدود، كما أتاحت لطلبة العلم أن يرتحلوا بين مدارس المغرب والمشرق، فأخذت المدارس ودور العلم تتبادل الافكار والمؤلفات، فلا يكاد كتاب يظهر في المشرق الا ويتلقفه أهـل المغرب، وبـالمثل كان أهل المشرق ينكبُّون على مطالعة نتـاج المغاربـة والأندلسيـين. ومما ساعد على تأصيل الثقافة العربية وازدهـارها، انفتـاحها عـلى الثقافات القديمة، وتسامحها مع ثهار الفكر اليوناني والفارسي والهندي، ومقدرتها على هضمها والاضافة اليها وتطويرها، لتطبعها بطابع عربي واضح ظل مستمرآ مصونا طوال العصور الوسطى والحديثة.

ولم توحد هذه الثقافة أفكار العرب ومثلهم فحسب، وإنما وحدت عاطفتهم ومصلحتهم، فبينها كانت أسواق دمشق وبغداد والفسطاط والقيروان وتطوان ومكة والمدينة والبصرة، تعبج بالبضائع الشامية والمصرية واليمنية والمغربية، ويتم فيها تعارف العرب وتفاعلهم وتقاربهم، إذا بكل من هذه العواصم تتحول توا الى رباط للجهاد والفتح، إذا اصابت العرب عادية أو وقع عليهم ظلم.

والعسرب اذ ينتقــل مـن بلده في طــلب العــلم أو الحــج أو التجارة، لا يشعر بالغربة بعيداً عن أهله وذويه، إذ يعتبر حـواضر العرب في المشرق والمغرب جزءا من كيانه وامتداداً لـوجـوده، فارتباطه بكل منها لا يقل عن ارتباطه بموطنه الأصغر ومسقط رأسه: فاللغة واحدة، والتجربة التاريخية واحدة، والمشاركة الوجدانية في الأمال والآلام واحدة، والمجتمع الذي ينعم بالحرية والعدل، ويقوم على التعاون والتكامل، ويأخذ من الغني الى الفقير، وينتصف للمظلوم من القـوي، هو مجتمـع واحد، يضمـه وطن واحـد وتنتظمـه اهداف واحـدة «وهذه أمتكم أمـة واحدة». وكان لا بد أن تتعرض وحدة الأمة العربية لأخطار متعددة، شأنها في ذلك شأن الأمم الكبرى، ولكن الأمة العربية تمكنت ـ عموماً ـ من التغلب عليها. وطوال الحقبة الزمنية التي استمرت منل حكومة النبي العربي حتى الحكم العباسي، كان المجتمع العربي الاسلامي يمتلك القوة الذاتية الدافعة لمقاومة اخطار الغزو والتمرد والانفصال. ولكن في أواخر عهد الدولة العباسية، تجمدت هذه القوة وتضاءلت عوامل الحركة فيها، وبدأت تواجه تحديات خطيرة في الداخل والخارج.

١ - في الداخل، ظهر اتجاه جديد أخذ يقوى وتتفاعل تأثيراته حتى غدا بمرور الوقت أخطر الاتجاهات على الكيان العربي، ذلك هو أثر الموالي، أو العناصر غير العربية من أهالي البلاد المفتوحة في المجتمع الاسلامي. برزت نزعة الموالي بصبغة اسلامية فتظاهرت

بأنها تندعو الى المساواة بين المسلمين مهمها اختلفت أصولهم وأجناسهم، وانتشرت بين بعض غـلاة الموالي في فـارس خاصـة، وظهرت النزعة بوضـوح حين وصـل الموالي الى السلطان السيـاسي في عهد الدولة العباسية، وكشفت عن عدائها للعرب ودينهم لأنهما في نظر هؤلاء الغلاة مسؤولان عن انهيار مجد فــارس ودينها. وقــام الموالى الغلاة بحركة تـرجمة وتـأليف شعبية واسعـة لاحياء تـراثهم أخبارهم بالأسطورة روعة وبهاء، كيدا للعروبة والاسلام. وتلت هذه الحركة الفارسية مناقشات دينية واسعة هدّدت أسس المجتمع العربي، ومبادئه الاسلامية، فاهتم الخلفاء العباسيون بالرد عليها. وطلبوا الى الفقهاء والمتكلمين ان يذودوا عن حياض الأمة ومعتقداتها. وتسلح هؤلاء بـأسـاليب الجـدل والمنـطق وجـابهـوا أعداءِهم من الزيادقة والشعوبيين. الزنادقة الذين مثّلت حركتهم نزاعاً سياسياً دينياً بين الديانات الفارسية والطموح الفارسي من ناحية، وبين الروح العربية والـدين الاسلامي من نـاحية ثـأنية. والشعوبيون الذين استهدفوا مسخ تراث العرب والاستهانة بمثلهم وقيمهم ومنجزاتهم. وكانت مساعي هاتين الحركتين تـرمي الى تشجيع روح الثورة عـلى السلطان العربي، وبعث الـوعى الايراني على اساس البعث الأدبي الثقافي. وفشلت حركة الزنادقة امام ضغط الادارة العباسية، وامـام الحملة الثقافيـة التي قادهـا الخلفاء العباسيون صَّدهاً. اما الحركة الشعوبية التي استمرَّت الى مـا بعد العصرالعباسي الأول، فقد أدت الى تركيز مفهوم العروبة وإغنائـــه وتأصيله لأول مرة، فقد أخذ العرب ينظرون الى أنفسهم من خلال لغتهم الواحدة، وتراثهم الثقافي المتصل قبل الاسلام وبعده، ونادوا بوحدة العرب الثقافية في التاريخ. وعندئذ فقط، شهدت المرحلة التاريخية فكرة الأمة العربية ذات اللغة والثقافة الواحدة والسجايا الموحدة، تتخلل كتابات بعض الأدباء والمؤرخين.

إن اختـلال التوازن بـين العرب والفـرس، وضعف التعـاون بينهما، وخيبة امل الارستقراطية الايرانية في تحقيق مآربهما، وتفاقم ثـورة بابـك الخرمي، وتضعضع كيان العـرب بعد مقتـل الخليفة الامين، وعدم الثقة بولاء الجند الفارسي والعربي، وتصاعد الخطر البيزنطي على الحدود العباسية، كل ذلك استوجب ايجاد حل سريع وحاسم لللارتباك المذي يهدد كيان الدولة بادخال عنصر عسكري جديد، يعتمد عليه الخليفة في توطيد دعاثم دولته. وهكذا قفز الترك الى المسرح السياسي والعسكري في عهد الخليفة المعتصم في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، واقتضت الضرورة أن يكون بعيداً عن جو بغداد، فتمركز في سامراء، ونجح في كسب الحروب، ولكنه مع بعده عن تقاليد الادارة الحضرية، أخفق تماماً في توجيه سياسة جديدة، أو في الاحتفاظ باستقرار الادارة وثباتها. وما أن حل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى فقدت الخلافة العباسية مناطق واسعة من البلاد التابعة لهـا في شهال افريقيا، حين قامت دولـة المرابطين، وامتدت من جنوب الجزائر ونهر السنغال والنيجر، لتشمل القسم الاكبر من شهال افريقيا والاجزاء التي بقيت بيد العرب المسلمين في الاندلس. ودولة المرابطين دولة بربرية قامت على اساس العامل المزدوج من الدين والسياسة، ودامت قرابة القرن واستمرت حتى ٤١٥٥ هـ/ ١١٤٧ م.

أما الجزء الشرقي من شهال افريقيا، فقد شهد انسياح قبيلتين عربيتين عظيمتين هما بنو هلال وبنو سليم، قادمتين من مناطق مصر العليا في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وكان هؤلاء البدو أقوياء بفضل عصبيتهم القبلية وحنكتهم الحربية. وكان لهذه الهجرة العربية أثر كبير على كيان المغرب، إذ استعرب الكثير من البربر سكان شهال افريقيا لغة ودما، وانتشر بينهم الدين الاسلامي، ونشطت بذلك عملية التهازج التاريخية بين البربر والعرب، التي بدأت منذ فتح العرب للمغرب.

وفي الفترة التاريخية نفسها، ظهرت موجة جديدة من الغزاة قادمين من وسط آسيا، عرفهم العرب بالاتراك، وكانوا من قبل قد أخذوا يجلبون منهم الرقيق الى المشرق العربي، ويختارون من برز منهم في أعمال الإدارة والحرب، وقد عرف هؤلاء فيها بعد باسم المماليك. وقد أشرنا الى أن المعتصم ومن تلاه من الخلفاء، وجدوا فيهم سندآ لحكمهم المركزي، لا سيما وأن المماليك لم يكن لهم عصبية محلية أو قبلية أو عائلية أو قومية أو دينية، فضلا عن

إنهم طائفة من اهل الحرب والفروسية .

وبينها وجد الفرس متنفساً سياسياً لهم في قيام الأسر الفارسية المستقلة الحاكمة في الولايات العباسية الشرقية، نجد ان الموجة الغازية التي عرفت بالسلاجقة، قد استلمت زمام الامور والاحكام في إيران والعراق والشام وآسيا الصغرى. ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد (٤٤٧هه/ ٥٥٠م) وقضى على حكم البويهيين. كذلك نجح السلاجقة في انتزاع الجزء الاكبر من الأناضول من أيدي الروم البيزنطيين، وبذلك استطاعوا أن يعيدوا الوحدة إلى الامبراطورية العباسية من جديد، وكانوا الحكام الحقيقيين لها، في حين بقي الخلفاء حكاماً إسميين.

٧ ـ وفي الخارج، تمثلت التحديات التي هددت المجتمع العربي الاسلامي في النجاح الذي حققته جولات الأوروبيين في مدافعة العرب والاسلام بالأندلس وصقلية، وفي اشتداد حركة الإسترداد في اسبانيا المسيحية ضد الأندلس المسلمة لطرد العرب منها. وفي غضون ذلك، كان الغرب المسيحي قد اقتبس من علوم العرب ونهل معين حضارتهم في اسبانيا وجنوب فرنسا وايطاليا وفي صقلية، ما أيقظه من سباته، وما أدخله عصر النهضة الشاملة في شتى نواحيها الإقتصادية والإجتماعية والفكرية. وأخذ الغرب يفتش عن مجاله الإقتصادي الحيوي موجها حملاته العسكرية للسيطرة على حوض البحر المتوسط. وهكذا تعرض عالم الاسلام لخطر كبير هو الغزو الصليبي الذي ابتدأ على المشرق العربي عام لخطر كبير هو الغزو الصليبي الذي ابتدأ على المشرق العربي عام

٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م واستمر قرنين من الزمان. وكان محاولة مبكـرة للتوسع الاستعماري في قلب الوطن العربي. واستطاعت الحملة الصليبية الأولى، بفضل كثافة عددها ومساعدة الـدولة البيـزنطيـة لها، أن تقيم بين عـامي ٤٩١ و٤٩٣ هـ/١٠٩٧ و١٠٩٩م أربــع إمارات في المشرق هي الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقـدس. ويلاحظ أن العدوان الصليبي كان يبدأ عادة حين يكون المشرق العربي منقسماً على نفسه، يعاني من الضعف والتجزئة، بينها الغرب المسيحي يكون قـويآ متـهاسكاً، ويسفــر العدوان عن نصر سريع خاطف على حساب العرب، وتتلو ذلك يقظة وإفاقة عربية على خطر التجزئة وعواقبها، ومبادرة الى التكتل والإتحاد. ولا شك في ان مظاهر العنف والقسوة والتعصب التي رافقت العدوان، كانت عاملًا هاماً في دفع العرب المسلمين نحو تـوحيد صفوفهم، والقضاء على الانقسام والتجزئة، قبل توجيه الضربة الحاسمة للصليبيين. وقد نسج صلاح الدين سلطان الدولة الأيـوبية التي ضمت مصر والشـام، على منـوال سلفـه نـورالـدين محمود زنكى، في تأمين الجبهة العربية الاسلامية وتـوحيـدهـا. وتمكن صلاح الدين بفضل استهالة الانصار، وتأييد الخليفة العباسي من ان يوحد القوى الاســـلامية من أعـــالي العراق والشـــام حتى مصر ووادي النيل، فاجتمعت اليه قوات مصر والشام، وحلب والجزيرة وديار بكر والموصل، وحينتـذ قام بهجـومه الكبـير وحقق على الصليبيين نصراً ساحقاً في معركة حطين عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م، اتبعه باسترداد بيت المقدس في العـام نفسه.

ولكن الوحدة التي بناها صلاح الدين انهارت بعد وفاتمه (٨٩٥ هـ/ ١١٩٣ م) وانقسام مملكته بين ابناء البيت الايوبي، فعاد شبح الخطر ليهدد العرب من جديد في النصف الاول من القرن السابع الهجري (الشالث عشر الميلادي) وتعرض المسلمون في المشرق والمغرب لهجهات الأوروبيين عن طريق إرســـال حملات صليبية عديدة. وحين عجز الأمراء الأيـوبيون عن المحـافظة عـلى كياناتهم المجزأة ضد الخطر الصليبي في الخارج، وانشغلوا في منازعاتهم بالداخل، اضطروا الى الإعتباد على الماليك للدفع عن مصالحهم في الخارج والداخل، ولم يلبث أن تـزايد نفـوذ هؤلاء، حتى انتهى الامر بسقوط دولة الايوبيين، وقيام دولة الماليك عام ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، التي تـولي سـلاطينهــا اسـترداد انــطاكيــة وطـرابلس من أيدي الصليبـين، ولم يلبث خليـل بن قـلاوون أن أنزل الضربة القاضية بالصليبيين، حين استولى على آخر معاقلهم في عكا عام ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م، وأزال ملكهم نهائيا بعد أن استمر في قلب الوطن العربي نحو قرنين من الزمان.

وفي غضون ذلك، ظهر تهديد آخر تمثل في الغزو المغولي، فقد استطاع جنكيز خان توحيد قبائل منغوليا الوثنية المتنقلة وتوجيهها للفتح. وبحلول عام ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م، كان المغول قد احتلوا بلاد ما وراء النهر (جيحون). وإذا كان هولاكو قد نجح في إقامة دولة ثابتة القواعد للمغول في فارس، اكتسحت بقايا الدولة الخوارزمية التي ورثت املاك السلاجقة في الشرق،

وانتزعت منها ايـران، واخضعت سلاطـين دولة ســلاجقة الــروم، فإنه لم يلبث ان زحف بالمغول وضرب العاصمة العباسية بخداد فسقطت في يـده (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، وقتـل الخليفـة العبـاسي المستعصم وأولاده، وأعمل الجند السلب والنهب والهدم في المدينة، وهددوا الشرق الاسلامي بأكمله، واستمر الغـزو المغولي والتتري بشكل متقطع طوال قـرنين من الـزمان تقـريبـًا، أي حتى بـداية القــرن التاســع الهجري (الخـامس عشر الميلادي)، وزالت الخلافة العباسية من بغداد، وبذلك فقد المسلمون هذا النظام التاريخي الذي كان مرجعهم القانوني الشرعي ورمز وحدتهم، ولأول مرة اصبح العبالم الاسلامي دون خليفة على رأسمه، ولكن ذلك لم يستمر أكثر من ثلاثة أعوام، إذ سارع سلطان الماليك بيبرس، الى احياء الخلافة العباسية في مصر ليتسلح بسلطانها المعنوي في حكمه. فما أن سمع بوصول أحد أبناء البيت العبـاسي الى دمشق، ناجياً من مذبحة هولاكو في بغداد، حتى استقدمه الى القاهرة بمظاهر الاحترام والتكريم، ولقب بالمستنصر، وتلقى تقليد السلطنة المملوكية (٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م)، وبذلك يكـون قد تـولى منصبه بتفويض من مقام الخلافة الشرعية في العالم الاسلامي.

وظل الخلفاء العباسيون في القاهرة حتى انهيار دولة المهاليك على يد العثمانيين عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م، وبذلك زالت الخلافة العباسية نهائياً. ومعلوم أن بيبرس، قائد السلطان المملوكي قطز، كان قبل عام تقريبا قد أوقف زحف المغول من العراق الى الشام،

واستطاع تأمين مصر من غزوهم الوشيك، بعد أن احتلوا بقيادة هولاكو حلب ودمشق، واضطر المغول امام طلائع جيش قطز أن ينسحبوا بقيادة كتبغا، نائب هولاكو. وفي موقعة عين جالـوت بين نـابلس وبيسان، دارت معـركة طـاحنة قتـل فيها كتبغـا وكثير من رجاله، وفرّ الباقسون (١٥٨هـ/ ١٢٦٠م) واستردت دمشق وحلب، وبذلك أنقذت عين جالوت الشام ومصر، وجعلت دولة المغول تقف عند حدود العراق، على أساس أن الدولة الايلخانية التي انشأها هولاكو، قد ضمت بلاد فارس والعراق، وامتدت من نهر السند شرقا حتى نهر الفرات غرباً، ومن المحيط الهندي جنـوباً حتى نهر جيحون وبحر قزوين شمالًا، وهذا يعني أنه بدأت ترتسم حدود سياسية بين العراق وبالاد الشام في هذه المرحلة، وسيستمر ذلك حتى ضمّ الدولة العثمانية للعراق نهاثيا عام ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م. وتابع خلفاء بيبرس نهجه في التصدي للمغول والصليبيين، ولا سيها قلاوون وأسرته، فقد استطاع ابنه خليـل بن قلاوون ـ كـها رأينـا ـ طـرد آخـر الصليبيـين من عكــار اواسط عمام ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م، كما صدّ ابنه الناصر محمد حملة غازان التتري الثانية في معركة الصفر قرب دمشق عام ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م. ولم تكن الأهمية الحيوية لسواحل الشام ومصر، لتخفى على رجال السياسة الأوروبية، ولذا وجهوا الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م) الى مصر ذاتها، واستهدفوا دمياط لأهمية مينائها على المتوسط ولقربها من فلسطين، وقبرص، ولكن الحملة لقيت الهزيمة. ثم انضم عدد كبير من عظهاء وملوك أوروبا

الى ملك فرنسا القديس لويس، وقاموا بهجوم نهائي (الصليبية السابعة) فهزموا شر هزيمة، وأسر قائد الحملة القديس لويس (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م) وشارك الشعب في المقاومة، وكان للماليك دور كبير في دحر الغزاة.

وهكذا لم تستطع قـوى المسيحية المـوحدة بعـد مائتي عـام من الجهود المضنية أن تحقق أي غرض من أغراضها ضد دار العروبة والإسلام، ولذا لجأت الى تطويق الـوطن العربي ابتـداء من أواخر القــرن الخامس عشر وأوائــل القرن الســادس عشر، أي من زوال الحكم العربي الاسلامي من الاندلس نهائياً ومباشرة المهالسك الأوروبية الهجوم على جميع الثغور المغربية في البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، في محاولة للعشور على طرق ملاحية توصلهم الى الاقطار الشرقية الأسيوية بالالتفاف حول بلاد المسلمين، على أمل انشاء صلات اقتصادية دينية حربية مع تلك الاقطار الأسيوية غير الاسلامية، وفي مسعى لتضييق الخنـاق عـــلى دار الاســلام وتجارتها عن طريق الاستحواذ على مفاتيح البحار العربية، وتـرتب على ذلك ان القوات البحرية العثمانية وجدت أن الكفاح بين المغاربة والأوروبيين يستدعي التدخل لإغاثة المغاربة، أو إضعاف القوى البحرية الأوروبية المعادية، وحرمانها من امتلاك قواعد على البر المغربي، كما يستدعى الاستيلاء على الاقطار العربية المطلة على البحر الاحمر وبحر عمان والخليج العربي.

استولى البرتغاليون على جزيرة مسقط المتحكمة بمضيق باب

المندب وتجارة البحر الأحمر، واغاروا على ميناء عدن، وتحمولوا الى سواكن للتنسيق مع ملك الحبشة على تحويل نهر النيل ومنع جريانه الى مصر، ثم اتجهوا الى جدة بقصد غرو الحجاز، ولكنهم انسحبوا بسرعة حين علموا ان الاسطول المملوكي متوجه من السويس الى جدة. كذلك قطع البرتغاليون الاتصال البحري بين الهند و جدة. واستولوا على جزيرة هرمـز، المسيطرة عـلى مدخـل الخليج العربي، ثم انتقلوا الى تـوجيه الضربـات ضدهـا في البحر الأحمر والمتوسط، بتنسيق مع فرسان الإسبتاريـة (فرسـان القديس يوحنا) في جزيرة رودس. ففي الوقت الذي قـام فيه الـبرتغاليـون بمهاجمة السفن الهندية المتجهة الى البحر الأحمر، كان القراصنة الفرنجة من فرسان القديس يوحنا يقومون بنفس المهمة في البحر المتوسط، بقصد شـلَ الحركـة التجاريـة مع مـوانىء الشام ومصر، وإعاقة السلطان المملوكي عن بناء السفن لمنازلة البرتغاليين. وهكذا استطاع البرتغاليون تحويل طرق التجارة الى رأس الرجماء الصالح، فحققوا حرمان القوى العربية الاسلامية من أهم مصادر ثروتها وتمويلها. ومما رجح ميزان القوى المعادية للعرب والمسلمين، تآمر الحبشة مع البرتغال، ومحنة العرب المسلمين في غرناطة التي سقطت بيد الاسبان (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م)، وما كان من اضطهادهم وإجبارهم بحد السيف على اعتناق النصرانية، وظهمور قوة الصفويين الشيعة في فارس، تمدفعهم اطماعهم التوسعية وخلافهم المدهبي مع الدولة المملوكية على التحرش بها، والتطلع إلى محالفة أعداء الاسلام ضدها. وبدا ان استعادة هؤلاء للأراضي المقدسة في فلسطين وشيكة الموقوع، غير أن ذلك لم يتحقق بعد أن آلت السيادة على بـلاد الشام ومصر والحجاز الى الـدولـة العشانيـة التي انتصرت عـلى الماليك في معركة مرج دابق، قرب حلب (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م).

والدولة العشمانية التي ظهرت في صميم الأحداث التي عصفت بالوطن العربي، تعتبر من أكبر الامبراطوريات الاسلامية الاخيرة، وقد ظهرت بعد نصف قرن تقريبا من سقوط بغداد بيد المغول، واستمرت ستة قرون، وضمت من العالم الاسلامي، معظم اقطار الوطن العربي.

توجه السلطان سليم الأول العثماني لفتح بلاد الشام والأقطار العربية الأخرى، وهذا الفتح لا يرجع سببه فقط الى تنازع الدولتين العثمانية والصفوية على النفوذ والتوسع في مشرق العالم العربي الاسلامي، وصراعها المذهبي هناك، وإنما اهم من ذلك، يرجع الى الأحداث الدولية التي جرت وقتذاك في أوروبا وفي حوض البحر المتوسط، وانعكاساتها على كل من الدولة العثمانية والصفوية والمملوكية. ذلك أن الفتح كان يرمي الى ضمان السيادة العثمانية على حوض البحر المتوسط الشرقي، وإبعاد نفوذ البندقية وجنوة، ومنع تجرم قراصنة البحر الأوروبيين، وتأمين مواصلات الدولة العثمانية، وبعث بجد الدولة الاسلامية السنية ضد خصومها جميعاً من أوروبيين وشيعة، وكسر حصار المسيحيين (من إسبان وبرتغاليين) لدار الاسلام، وحماية الاماكن المقدسة من عبثهم،

وصدهم عن تهديد الدولة العثانية نفسها، نتيجة تحالفهم مع الصفويين والأحباش، واخيراً الحصول على الموارد من بلاد الشام ومصر وغيرها من الأقطار العربية.

وكان لا بد ان تتأثر الأقطار العربية بموجب الفتح العثماني واحوال الدولة العثمانية تأثراً كبيراً، ربط مصيرها بالدولة خلال القرون الثلاثة أو الأربعة التي بقيت تابعة لها. ان الدولة العثمانية لم تنجح تماما في بعث وحدة الدولة الاسلامية، وانحا نجحت في ضم الاقاليم العربية فحسب، ويهمنا ذلك لأن الاقطار العربية بأوضاعها الحديثة كانت داخلة في الدولة العثمانية، كذلك يهمنا إيجاز الظروف التي اصبحت فيها هذه الاقطار ولايات عثمانية، وإجمال طبيعة العلاقات بين العرب والعثمانين.

بدأ الفتح العثماني للأقطار العربية في منتصف عام ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م باستصفاء بلاد الشام دون حرب أو مقاومة، ودخل السلطان سليم دمشق حيث تلقى طاعة زعماء سوريا الجنوبية وجبل لبنان، ثم دخل القاهرة بعد قتال شديد لأن جنوده استثاروا مشاعر الأهالي بالنهب والسلب. وسقطت دولة الماليك بعد اعدام طومان باي آخر سلاطينها، وورث السلطان سليم نفوذها على الحرمين الشريفين في الحجاز، كما ورث عنها واجباتها ومسؤولياتها في رفع الحصار البحري البرتغالي على الملاحة العربية، ومواجهة التطويق الذي أخذ الاوروبيون يحكمونه على أقطار العروبة وعلى السلطنات الاسلامية في المحيط الهندي، إكمالاً لجهود الماليك في

هذا السبيل. وسارع الى القاهرة وفد شريف مكة لتقديم ولائه للسلطان، وتسليمه مفاتيح الحرمين الشريفين. وفي دمشق نظم السلطان سليم ادارة بلاد الشام في ثلاث ولايات هي: دمشق وحلب وطرابلس، ثم بعد قرن ونصف القرن تقريبا، اضيفت لها ولاية رابعة هي ولاية صيدا. كذلك أنعم على امراء جبل لبنان المذين اعلنوا ولاءهم له، وثبت رئيسهم فخر الدين المعني على إمارة الشوف، وسلم ادارة المناطق الأخرى الى امارات مستقلة في شؤونها الداخلية، ولكنها من حيث المبدأ كانت تتبع والي دمشق وطرابلس، ومؤخراً صيدا. وبقي جبل لبنان اقطاعياً كعهده والسابق، تولى شؤون كل مقاطعة منه امراء ومقدمون أو مشايخ من أعيانه، حتى الغاء النظام الاقطاعي والإمارة اللبنانية عام ساري المفعول حتى مطلع الحرب العالمية الاولى.

والحجاز كان يحكمه الأشراف باسم السلطان المملوكي، وهم (يرجعون بنسبهم) الى الدوحة النبوية، وكان منوطاً بشريف مكة تأمين قوافل الحجاج الوافدة الى الديار المقدسة وحمايتها من سطو قبائل البدو عليها. وحين طالبت الشياخات الاسلامية في افريقيا الشرقية مثل: هرر وزيلع وجزيرتي مصوّع وسواكن... الدخول في الحياية العثمانية، أصبح الوالي العثماني في جدة مسؤولاً عن هذه التغور، وأطلق على ولاية جدة اسم (ولاية الحبش) عام 970 هـ/ ١٥٥٧ م.

أما اليمن، فقد ساعد العثمانيين على احتلالها قربها من الحجاز، ولكن حكمها لم يستقر إلا حوالى منتصف القرن السادس عشر بعد عدة حملات عسكرية ضد الامامة الزيدية، كما تم استيلاء العثمانيين على القطيف والبحرين في الخليج العربي.

والعراق استحوذ السلطان سليان القانوني عليه عام 9٤١ هـ/ ١٥٣٤ م، وكان العراق يشكل أحد المطامح الرئيسية للصفويين، نظرا لوجود العتبات الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية، وصاروا يرون في احتلاله مزيجاً من التدين والوطنية. وقد تفرغ سليان لانتزاع العراق من الصفويين، بعد ان دحر ملك المجر في موقعة موهاكز ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦ م ودخل عاصمته (بودا). وقد حاول الشاه طهاسب الصفوي الاتصال به وتنسيق التعاون معه ضد سليان، ولكن هذا زحف بجيشه نحو العراق، واحتل بغداد ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م، واتبع سياسة التسامح العراق، وتقبل ولاء قبيلة المنتفك العربية التي تحكم البصرة ولاية وما حولها من جنوب العراق، وبذلك اصبحت البصرة ولاية عثانية تابعة لولاية بغداد.

على ان النزاع العثماني ـ الايراني استمر في عهد الشاه عباس اللذي خلف طهماسب، فاسترد الايسرانيون في عهده بغداد (١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م) وحكموها خمسة عشر عاماً، منتهزين فرصة انقلاب قائد الشرطة بكر الصوباشي على الوالي العثماني، واستنجاده بهم، ثم اختلافه معهم لرفضهم الخروج من بغداد،

وقتله، حتى إذا استعادها العثمانيون في عهـ د السلطان مراد الـرابع (١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م) خلص العراق لهم، فظلوا يحكمونه، حتى اواخر الحرب العالمية الأولى.

لقد كان تجرّم البرتغاليين في البحار العربية من أهم دواعي فتح اليمن الذي اشرنا اليه، فقد استاء السلطان سليهان القانـوني من البرتغاليين لقتالهم سلطان الكوجيرات الـذي كان قـد استنجد بحمية سليان، لانقاذ السلطنات الاسلامية على ساحل الهند الغربي من عدوانهم. كما استاء من اتصال البرتغاليين باعدائمه الصفويين لامدادهم بالتجهيزات الحربية، ومساعدتهم على صنع الاسلحة الحديثة وتدريبهم عليها. ولذا سارع الى ارسال حملة بقيادة والي مصر سليهان بـاشا الخـادم من ثهانـين مركبـاً، لمحاربــة النفوذ البرتغالي في الهند وافريقيا الشرقية، وفك الحصار البحرى الذي فرضوه على العالم العربي والاسلامي، والحيلولة دون وقـوع الديار المقدسة الحجازية في أيديهم، اضافة الى حماية الطريق التجاري إلى مصر عبر البحر الاحر والمحيط الهندي. وفي طريقها قضت الحملة على عديد من السفن البرتغالية، وضربت الحصار على قلعة (ديـو)، ولما عيـل صـبر قـائـد الحملة، انسحب ولكنـه عَوْض عن فشله باحتلال عدن والمخا، وزحف على زبيد في اليمن حيث قضى على فلول الماليك، ولكن ظلت صنعاء والمرتفعات الجبلية بعيدة عن السيطرة العثمانية، الى أن تمكن سنان باشا من فتح صنعاء (٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ م)، واستكانت المقاومة الزيدية موقتاً لتنشط من جديد وتستعيد صنعاء، وتضطر العثمانيين الى الانسحاب من اليمن (١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م)، واصبح اليمن مستقلا تحت حكم الاثمة الزيود، الى أن عاد العثمانيون لفتحه عام ١٨٧٢ بعد شق قناة السويس، وتفاقم النزاع الدولي من حول الجزيرة العربية.

وفي حين اخفقت الجهود العثمانية، كالمملوكية، في طرد البرتغاليين من الخليج العربي، وفي ضرب نشاطهم في المحيط الهندي، وفي تحطيم حصارهم للبحار العربية، فانها استطاعت ان تبعد البرتغاليين عن بعض الحواضر العربية في افريقيا الشرقية، وان تخفف ضغطهم على الامارات العربية الساحلية في عان ومسقط والخليج العربي. كما احبطت كل محاولة لتكوين جبهة برتغالية حبشية. وحظرت دخول المراكب الاوروبية الى البحر الاحر لضمان سلامة الديار المقدسة الحجازية، وظل الحظر نافذا حتى خروج العثمانيين من اليمن وانسحاب أسطولهم من المحيط الهندي.

ولكن العثهانيين، من ناحية اخرى، تقدموا نحو ميادين الصراع في البحر المتوسط وفي اقطار المغرب الكبير طرابلس وتونس والجزائر، حيث تمكنوا من انقاذ هذه الاقطار من اخطار الاحتلال الاسباني، ولكن نزول العثمانيين الى ميادين الصراع في المغرب تأخر عن مدّ يد المعونة الى مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط غرناطة.

والحق اننـا لوحلقُنـا فوق عـالم العروبـة والاسلام كله شرقــأ وغرباً، لوجدنا ان سقوط بغداد (٢٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) يسجل بداية دخول هذا العالم في دور الانحطاط الذي لا يزال يعمل على الخبروج منه حتى الموقت الحاضر. وتبعه انهيار دولة الموحمدين (٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م) التي كانت تنتظم أقطار المغرب الكبير من السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي، وأعقبت دولة المرابطين، وكان من أسباب سقوطها انقسام الأسرة الحاكمة على نفسها، واستعانة بعض افرادها على البعض الآخر حتى باعدائهم الاسبان. وكمان همذا أول تدخل للعنصر الأوروبي في شؤون المغرب الذي اخذ يتزايد تدريجياً حتى انتهى بالاستعمار. ومن اسبابه ايضا، تقسيم الدولة بين ابناء الخليفة الموحدي وضم شيخ من شيوخ القبائل الى كل واحد منهم لمساعـدته في شؤون الحكم. وسرعان ما انتقـل النفوذ والسلطان الى هؤلاء الشيـوخ، فتأججت بينهم نار العصبية القبلية، فتحاربوا وتنازعوا، وزالت دولة الموحدين نهائيا بوفاة آخر سلاطينها (٦٤١ هـ/ ١٢٧٥ م)، وكانت تجمع أهالي المغرب جميعاً من عرب وبربر في وحدة سياسية واقتصادية قوية. ثم تقاسمت املاكها دول ثلاث: الدولة الحفصية في تونس، ودولة بني عبدالواد أو الدولة الزيانية في تلمسان (الجزائر) والدولة المرينية في المغرب الأقصى. وكان الموحدون قد أخضعوا القبائل، وطردوا النورمانديين الذين فرضوا حمايتهم قبل ثلاثين عاما على معظم المدن التونسية الساحلية. وقد عين الموحدون عام ٢٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م قائداً من قوادهم هو عبد الواحد بن ابي حفص واليأ على تونس، وبعد عقدين من السنين، حقق الولاة الحفصيون استقلالاً عملياً، وحكمت أسرتهم البلاد ما يزيد على ثلاثة قرون.

وبدأت هذه الدول الثلاث تتناحر وتتنازع وسعى كل منهـا في الفترة ما بين منتصف القرن السابع الهجري وحتى أواخر التاسع، لإعادة وحدة المغرب الكبيركما كنت أيام الموحدين، ولكنها كانت تعاني من عوامل ضعف أهمها عدم تبصّر حكامها بالخطر الأجنبي الداهم المتربص بهم إذا استمروا سادرين في التجزئة والخصومة، وكيد بعضهم للبعض الآخر. فالدولة الحفصية قوى نفوذها وأجبرت الدولتين الزيانية والمرينية على الاعتراف بسيادتها. ولكنهــا أضطرت لمواجهة الحملة الصليبية (الثامنة) ضد تونس عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م ولم يلبث الصراع على العرش ان احتدم بين افراد الأسرة الحاكمة، وعمّ الاضطراب انحاء البلاد التي انقسمت الى فريقين متنازعين ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م، ودخلت القبائل العربية البدوية طرفاً لترجيح كفة من يدفع أكثر. كما سعى كل فريق الى استعداء الزيانيين (بني عبدالواد) أو المرينيين على خصمه. وقاست المدولة الحفصية من شرور الصراع على الحكم والنسزعات الإنفصالية، والاضطرابات القبلية وهجهات الاراغونيين الاسبان على السواحل التونسية من صقلية، ثم استعادت وحدتها بعد ربع قرن، وفي حين شنت حرباً (جهاداً بحريـاً) على أوروبـا المسيحية

أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، أبرمت معاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطالية كانت ذات فائدة للبلاد. وتميزت أواخر ايام الدولة الحفصية بظهور الاضطرابات الداخلية مجددا، وبعجزها عن مدافعة الاسبان الذين تمركزوا (٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م) في بعض المناطق الساحلية مثل حلق الوادي ما يقرب من اربعين عاما (٣٤٩ م ٩٨٢ م ٩٨٢ م ١٥٣٥ م)، للرجة أن شارلكان (شارل الخامس) ثم فيليب الثاني فرضا حمايتها على الامراء الحفصيين، على نحو جعل الرعية تزدريهم ولا تثق بهم، بل تقف الى جانب رجال البحر المغامرين من الاتراك امثال دارغوث.

أما الدولة الزيانية، فكان عليها ان تواجه جيرانها الحفصيين والمرينيين لفترات طويلة، اضافة الى القبائل في منطقة وهران، وتوجّب على الدولة المرينية ان تواجه حرب الاسترداد الاسبانية، وتحول دون استيلائها على المزيد من المدن العربية في اسبانيا، ولكن جهودها ذهبت ادراج الرياح. وشكّلت المساعي التوسعية للزيانيين تهديدا خطيراً للمرينيين دام اكثر من ربع قرن. ولم تستطع الدولة المرينية اعادة وحدة المغرب الكبير الا لبضعة اشهر، نظراً لتواضع قوتها العسكرية ومقاومة القبائل البدوية لها.

وحين ضعف شهال افريقيا العربي، وهان امره على اعدائه، وبعد سقوط آخر معاقل العرب (غرناطة) بيد الاسبان (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) نقـل الاسبان الحـرب الى الساحـل الافريقي الشهالي، وعجـزت الامارات المغـربيـة عن الصمـود أمـامهم، فلجـأت الى السلطنة العثمانية، اكبر دولة اسلامية آنذاك، لتعمل على طرد الاسبان من الثغور التي احتلوها في طرابلس وتونس والجزائر، وتتعاون في اجلاء البرتغاليين عن عدد من الثغور المغربية المطلة على المحيط الاطلسي.

ولقد أجاب رجال البحر المغاربة، ومعهم عدد كبير من اللاجئين الاندلسيين الملتهبين حماسة، على التعديات البحرية واعال القرصنة التي كان يمارسها الاسبان ضد ثغورهم، بنشاط بحري فعال، اللذين أصبحوا قوة مرهوبة تحسب حسابها دول الغرب، ويُستعان بهم، كدولة الحفصيين التي ادخلت في خدمتها اثنين من كبار رجال البحر هما عروج واخوه خيرالدين من أسرة بربروسة أي اللحية الحمراء، ولم يكن غرضها التلصص والسلب وإنما الحرب والجهاد لاعلاء كلمة الاسلام، ولذا طبقت شهرتها آفاق البحر المتوسط، وذاع صيتها بين رجال الملاحة الأوروبية من جبل طارق الى الدردنيل.

ويبدو ان ظاهرة (القرصنة) وجدت في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر في البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، ولم تكن مقصورة على الماللك المغربية، وانما كانت تمارسها كل الدول الكبرى دون استثناء، وترتبت على طرد المسلمين من الأندلس، فصار الأخوان واعوانهم يعترضون سبل سفن اسبانيا وحليفاتها، ويستولون عليها وعلى متاجرها ويرون ذلك امرآ مشروعاً ما دامت حرب الاسبان على المسلمين في

الاندلس قد اتخذت شكلا صليبيا، اتضح في تجنيد الانكليز والفرنسيين والايطاليين وغيرهم في جيوش الاسبان، فالروح العدائية المتعصبة ضد الاسلام كانت واحدة، وهي التي أوجدت ظاهرة (القرصنة) في غرب البحر المتوسط، كها اوجدتها في شرقيه، ممثلة بقرصان فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) الذين تألفت جمعيتهم في الاراضي المقدسة العربية اثناء الحروب الصليبية، ثم خرجت بعد طرد الصليبين الى جزيرة رودس، وحين غزاها العثمانيون وفتحوها، لجأ القراصنة الى جزيرة مالطة، وكانوا يشنون حرباً لا هوادة فيها ضد سفن المسلمين وثغورهم.

وقد عاد الجهاد البحري على الاقتصاد النقدي التونسي (مثلاً) بمكاسب كبيرة، ذلك انه اعتبر جهاداً، وبهذا الوصف، اكتسب شعبية كبيرة، واتخذه قطاع واسع من الاهلين مهنة، تجتذب النقد الأجنبي، ولا سيها الريال الاسباني. كذلك كان الجهاد البحري يسهم في اضفاء الصفة الشرعية على السلطة العثمانية في تونس والجزائر. ولا شك في ان ظهور الدولة العثمانية شرق البحر المتوسط، في أقوى امتدادها بعهد السلطان سليم الاول والسلطان سليمان القانوني، قد أذكى القرصنة الأوروبية، وقوى حركة الجهاد البحري الاسلامي. وكان يقابلها ظهور اسبانيا في منطقة غرب البحر المتوسط، ولذا احتدم التنافس بين الدولتين، وكل غرب البحر المتوسط، ولذا احتدم التنافس بين الدولتين، وكل منها تريد بحو راية الاخرى من تلك المنطقة. وكان من الطبيعي ان ينحاز اهالي شال غرب افريقيا من العرب والمسلمين الى

الدولة العثمانية، بحيث امتد نفوذها الى اقطار الجزائر وطرابلس وتونس. وتم ذلك نتيجة تدخل غير مباشر، وفي وقت اشتد فيه الصراع بين المسلمين والاسبان بعد طرد المسلمين من الاندلس، وتعقبهم الى ثغور المغرب الكبير.

دخلت الجزائر تحت الراية العشهانية، بمحض ارادة حاكمها خيرالدين بربروسة الذي خلف اخاه (عروج)، وكان قد انتقل مع اخوتـه عـروج واليـاس واسحـاق من جـزيـرة لسبـوس في بحـر الأرخبيل، بسفنهم وعتادهم الى الجنزائر، حيث أعجب بجرأتهم أهالي الموانىء الجزائرية المحتلة، أو المهددة بخطر الاحتلال الاسباني، ومنها مدينة الجزائر التي استنجد اهلها بعروج ضد الاسبان، فسارع واحتل المدينة بمساعدتهم، ثم توسع غرباً فاستولى على بعض الثغور الجزائرية، ولم يلبث ان قتل في صدام مع الاسبان (٩٢٤ هـ/ ١٥١٨ م) بعد ان أضعف الأسرة الزيانية الحاكمة وأوقف الغزو الاسباني. وادرك خيرالدين اللي كان مدفوعاً بعاطفة دينية صادقة، أنه لن يتمكن من القضاء على التهديد الاسباني ببضع عشرة سفينة وثلة من الاعوان المخلصين، فجمع اعيان البلاد واقنعهم بإعلان تبعية الجزائر للدولة العثمانية باعتبارها الدولة الاسلامية التي تستطيع مواجهة العدوان المسيحي الخارجي. وسرعان ما اعترف خير الدين بسيادة السلطان سليم الذي سر بهذه البادرة، وانعم عليه بلقب (بكلربكي) أي (بك البكوات) وأمدّه بقوة انكشارية مزودة بالمدفعية وبمتطوعة وبعض السفن، وجعل سفنه جزءا من الأسطول العشهاني، وعينه حاكماً من قبله على الجزائـر التي تمكن من الاستيلاء عليهـا بفضل هـذه المعـونة (٩٣٦هـ/ ١٥٢٩ م)، فكـانت اول بلدان المغرب الكبـير التي خضعت للعثهانيين.

ولما تزعم شارل الخامس (شارلكان) ملك اسبانيا والعدو الأقوى للدولة العشانية، حملة صليبية ضخمة لاحتلال مدينة الجزائر (٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ م) مني بكارثة كان لها دوي كبير في العالم المسيحي، اذ شارك فيها نبلاء كثيرون من اسبانيا والمانيا وايطاليا، إضافة الى فرسان القديس يوحنا وأخوي البابا. وسلمت الجزائر من الاحتلال الاجنبي حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر.

اما تونس فقد استولى عليها خيرالدين عام (٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م) منتهزآ اضطراب احوال الدولة الحفصية وانحلالها التدريجي، ولم يلبث شارلكان ان جرد حملة كبرى قادها بنفسه، ودخل تونس، واعاد الامير الحفصي للحكم، ثم غادرها بعد ان ترك فيها حامية اسبانية. وبما ان تونس ذات موقع استراتيجي هام يشرف على مضيق صقلية الذي يربط بين حوض البحر المتوسط الشرقي والغربي، فقد شيد شارلكان حصناً منيعاً في ميناء العاصمة تونس، وبفضله بقيت الحامية الاسبانية هناك اربعين عاماً تقريباً.

وفي غضون ذلك تمكن القائد دارغوث (طرغوت) الذي ربط

نفسه - كخيرالدين - بالدولة العثهانية من احتلال طرابلس الغرب، بعد طرد فرسان القديس يوحنا منها، وكان الاسبان قد احتلوها عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠م وسلموها الى الفرسان ليحكموا السيطرة على طرق الملاحة بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط، ولذلك كافأت الدولة العثهانية دارغوث وعينته واليا على طرابلس مع لقب باشا (٩٦٣ هـ/ ١٥٥١م). وقد رجّع هذا الوضع كفة العثهانيين في صراعهم مع الاسبان، فاسترجعوا تونس طرابلس، اللذين وصلتها تعزيزات قوية من الاستانة بقيادة سنان طرابلس، اللذين وصلتها تعزيزات قوية من الاستانة بقيادة سنان باشا فاتح اليمن.

على ان السيادة العثمانية المباشرة على ولايات طرابلس وتونس والجزائر لم تدم طويلاً، إذ ظهرت سلطة الأسر المحلية وعصبيات العساكر ورجال البحر التي لم تعترف إلا بالسيادة العثمانية الإسمية. ففي طرابلس قامت الأسرة القرمنلية عام ١١٢٣ هـ/ ١٧١١ م، بينها ظهر في تونس والجزائر نظام عسكري عرف بنظام البايات ونظام الدايات. وتعزى نشأة هذه الأنظمة المحلية والعسكرية الى ضعف الدولة العثمانية، وانشغالها عن الاهتمام بشؤون ولاياتها، وبخاصة البعيدة، مما افسح المجال لسقوط هذه الولايات بعد ذلك في قبضة الاستعمار الاوروبي، وسنجمل فيها يلى كل ذلك:

ليبيا

يرجع الفضل إلى دارغوث في تثبيت الحكم العشماني في ليبيا، وقد شاركَ في نهاية حياته في الحملة التي وجّهها السلطان العشماني سليمان القانموني لاحتلال جمزيرة مالطة معقل فرسان القمديس يوحنا. ولقى دارغوث حتفه أثناء الحصار. ويبدو أن دارغوث أكثر من جند الانكشارية في ليبيا، حتى عظم نفوذهم وأصبح الوالي في طرابلس الغرب لا يبرم أمراً إلَّا بموافقتهم. لقد كانت الانكشارية دعاة الحكم في النيابات (الولايات) المغربية ـ طرابلس وتونس والجزائر ـ وكمان لهم ديوان ينظم شؤونهم ويحمى مصالحهم وهمو مؤلف من كبار ضباطهم. وعلى الرغم من نفوذ رجال الجهاد البحري، فإن الانكشارية في هذه النيابات كانـوا يمارسـون النفوذ الفعلي، ويقتسمون مع رجال البحر غنائم الجهاد البحري ضد مراكب الفرنجة. وعلى الرغم من اضطراب شؤون طرابلس في فترة القرن ونصف القرن الأولى من الحكم العثماني، فقد توطدت السلطة العثمانية في طرابلس، وبرقة وفزان، وارتسمت ملامح ليبيا الحديثة في أواسط القرن السابع عشر.

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري/ الشامن عشر الميلادي (١٧٢٥ هـ ١١٧٥م) كانت الأحوال مهيأة لظهور حاكم قوي من القولوغلي (أي أبناء الأتراك العثمانيين من النساء المحليات) يدعى أحمد القرامنلي، توصل إلى الحكم بموافقة الجند والأهالي، لينقذ البلاد من الفوضى والفتن، ويثبت قواعد الحكم. وكانت

أسرتمه قد جماءت من قرمان جنوب الأناضول، واستقىرت في طـرابلس، وتـزاوجت فيهـا مـع العــرب، وبــدأ حكم الأسرة القرامنلية في ليبيا الذي دام قرناً وربع القرن، واعترفت الأستانــة بالأمر الـواقع، وأنعمت عـلى أحمد القـرامنلي بلقب بـاشا مـع رتبة (بكلربكي)، وأقرّت توارث أبنائه للسلطة (١٣٢ هـ/١٧١٩م)، فنظم الادارة المدنية والعسكرية، ورتب شؤون الأسطول والمال والقضاء. ويعتبر قيام الأسرة القـرامنليـة في طـرابلس انتصـــاراً للقولوغلي على الانكشارية، وهو أيضاً انتصار للعنصر الوطني عـلى حساب العنصر التركي، إذ اعتمد مؤسس الأسرة على المجندين من مدينة طرابلس، وأبناء القبائل العربية، وفضَّلهم على الأنكشارية المشاغبين، وبما أنه لم يكن يـطمئن إلى نوايـا علي بـاشـا حاكم تونس من الأسرة الحسينية، فقد تقرب عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م من داي الجزائر الـذي عـرض تكـوين حلف دفاعي بين النيابات الثلاث، لتسوية الخلافات بينها. واستمر أحمد وطرابلس وفزان) وعمل على تأمين طرق التجارة عبر الصحراء إلى بلاد السودان وشجع الزراعة وأنواع الصناعة الصغيرة، وتابع خلفاؤه سياسته في الاهتمام بالبحرية حتى اكتسبت ليبيا مكانة دولية، فعقدت معها الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية اتفاقيات، لضهان سلامة سفنها من هجوم سفن الجهاد البحري الليبية، مقابل أتاوات سنوية تدفعها تلك الدول. ولكن في القرن التاسع عشر، بدأت تلك الدول تتمنع عن دفع الأتاوات،

ولاسيها بعد أن قرر مؤتمر قيينا (١٢٣٥هـ/١٨١٥م) منع النشاط البحري العربي، تحت ستار مكافحة القرصنة في البحر المتوسط وسواه، فاضطربت مالية البلاد، وتطلع حكام ليبيا وتونس والجزائر للحصول على القروض من الأجانب.

وقد شهدت ليبيا في عهد يوسف القرامني (١٢١٠ ـ ١٧٩٥ م) أحداثاً دولية هامة، كالحملة الفرنسية على مصر، والحروب النابليونية. وضاق الأهالي ذرعاً بزيادة الضرائب في عهده، فثاروا عليه، وزاد من حرج موقفه وصول السفن الانكليزية إلى طرابلس للمطالبة بسداد القروض المستحقة، فاستقال عام ١٢٤٨ هـ/١٨٣٢م، وتولى مكانه ابنه على، وخشي السلطان محمود الثاني أن تتطور أوضاع ليبيا على نحو ما تطورت إليه في مصر محمد على باشا، أو أين يكون مصير ليبيا كمصير الجزائر، ومهدت له الحالة المضطربة في ليبيا، وانقسام الأسرة الحاكمة على نفسها سبيل التدخل، فأرسل أسطولاً كبيراً عام (١٢٥١هـ/١٨٥٥م) وأنهى حكم الأسرة القرامنلية، وأعاد ليبيا إلى الحكم العثماني المباشر حتى عام ١٩١١.

تونس

لا يكاد يختلف تطور الأحداث في تونس عن تطورها في ليبيا والجزائر في الحقبة الحديثة. وقد اكتسبت تونس أهمية خماصة في الصراع العثماني له السباني في البحر المتوسط، نسظراً لموقعهما

الجغرافي الهام، ولذا تبادل الطرفان المتنازعان احتلالها غير مرة. وتعتبر معركة تونس بين العثبانيين والاسبان عام ١٥٧٤ آخر معركة حاسمة تحدد الوضع بعدها على نحو أصبح معه الساحل الشيالي للمتوسط أوروبياً مسيحياً، والساحل الجنوبي عربياً اسلامياً، وإن ظل النزاع محتدماً بين نيابة الجزائر العثمانية واسبانيا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بسبب احتلال الاسبان لمدينة وهران.

في البدء ألحقت تونس مـوقتاً بحكم البكلربـايات في الجـزائر بصيغة (بكوية)، ثم تحولت إلى ولاية على رأسها (بكلربكي) بلقب باشا يساعده ديوان مؤلف من كبار رؤساء الحامية الانكشارية وعددها ما بين ٣ ـ ٤ آلاف. ويبدو أن صغار ضباط الانكشارية استاءوا من احتكار كبارهم للسلطة، فقتلوهم وحلُّوا مكانهم في عضوية الديوان، وكان يطلق على كل منهم لقب (داي) وهـو في الأصل رئيس لمـاثة. وحـين ثبت عجز مثـل هـذا النظام السياسي، استولى أحد الدايات واسمه عثمان داي على السلطة في البلاد، واستهل عهد سيطرة الدايات الذي استمر حتى منتصف القرن السابع عشر. ونظمت الادارة في عهده، فانشيء منصب (الباي) أو قائــد القوات الــبرية، ومنصب (القبـطان) وهو قائد الأسطول. وخلف يوسف داي الذي لا يقل أهمية عن سلفه. وقد عني بالجهاد البحري ضد السفن التجارية الأوروبيـة. وفتح وسلفه أبواب تونس أمام مهاجرة العرب المسلمين المطرودين من الأندلس، فأدخل هؤلاء إليها خبراتهم المتقدمة في الصناعة والتجارة والزراعة والعمران.

وتعاظم شأن (الباي) حتى أصبح أكثر أهمية من الداي، وذلك لأن مهامه العسكرية كقائمد للجند أتاحت له إدارة شؤون القبائل وجمع الضرائب، واستطاع الباي مراد أن ينتزع السلطة من المداي، ويجمعلها وراثمية في أسرته ما بين (١٠٢٢ ـ ٠٤٠هـ/١٦١٢ ــ ١٦٣١م) وأعلن ولاءه للأستانة، وحصل على لقب باشا وخلف ابنه حمودة باشــا (۱۰٤٠ ـ ۱۰۷۰هـ/۱٦٣١ ـ ١٦٥٩م) الذي يعتبر من كبار حكام تونس في القرن السابع عشر، فقد وطد الأمن في البلاد، وأخضع القبائل المتصردة، واستقبل سفراء الدول الأوروبية. ومما أضعف الأسرة المرادية تنازع أفرادها، واستعانة بعضهم بالدايات في الجزائر، على البعض الآخر، حتى ثار آغـا السباهيـة الشريف وقتل جميـع أفراد الأسرة الحاكمة عام ١١١٤هـ/١٧٠٦م، وجمع في شخصه سلطات الباي والداي (رئيس الـديوان) ولكنه جُرّ إلى حرب مع داي الجزائر فهزم وأسر، وانهار نظامه (١١١٧هـ/١٧٠٥م)، وخلفه قائد فرسانه حسين بن علي، فأسس الأسرة الحسينية ألتي حكمت تونس وشهدت فرض الحماية الفرنسية عليها (١٨٨١)، واستمرت حتى استقلال البلاد واعلان الجمهورية عام ١٩٥٧.

الجزائر

لا تختلف أوضاعها الداخلية عن مثيلاتها في ليبيا وتونس، فمنذ أن ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية مرت بأربع فترات مختلفة، أولها فترة البكلربكوات (جمع بكلربكي) وامتـدت ما بـين (٩٢٣ ـ ٩٩٦هـ/١٥١٨ ـ ١٥١٨م)، وفيها تولى حكم الجزائر عـدد من البكلربكوات أصحاب الكفاءات البحرية والعسكرية والادارية، بـرز منهم خير الـدين بربـروسة وسـواه، وأصبح للجـزائر بفضــل جهدهم مكانة مرهوبة في البحر المتوسط، ولكن قبضتهم ما لبثت أن تراخت على الجيش والبحرية، نتيجة هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو البحرية (٩٧٩هـ/١٥٧١م)، أمام أساطيل البندقية واسبانيا والبابوية. وقد ساهمت هذه الهزيمة مع استعادة العشمانيين لتونس من الاسبان، في فتور الحماس الذي كان يدفع العثمانيين إلى السيادة على الحوض الغربي للمتوسط، والاسبان إلى السيطرة على حوضه الشرقي، فألغت الأستانة نظم البكلربكوات، وجعلت الجزائر ولاية عادية يحكمها وال برتبة باشا.

أما فترة الباشوات (٩٩٦ - ١٥٨٧ هـ /١٥٨٧ ـ ١٦٥٩م) فقد تميزت بالصراع بين القوى الرئيسية الثلاث: الباشا ممثل الدولة، والأوجاق ممثل الانكشارية، والطائفة وهي مجلس رؤساء البحر. واستقرت الأحوال حين اندمج الانكشارية في سلك البحرية، وتم ذلك بصعوبة نظراً لانتهاء الطائفة إلى العنصر الوطني، وانتهاء الانكشارية إلى العنصر التركي وسواه. ولم تلبث أن تناقصت أهمية

الباشوات، وبدأت فترة الأغوات (١٠٧٠ - ١٠٧٩ هـ/١٦٥٩ - ١٦٧١ والمارة ١٠٨٠ عن نصب الأوجاق أحد أعضائه من الضباط الأربعة والعشرين داياً أو حاكماً فعلياً. وسرعان ما أفضى هذا النظام إلى انتشار البلبلة والفوضى في البلاد، إذ كان على الأغا أن يتخلى عن منصبه لمن يليه في الأقدمية، وصار الانكشارية يغتالون الأغوات، وهنا فضل الأهالي أن يتولى أمور البلاد حاكم من (الطائفة) لأنه أقدر على تمثيل مصالحهم، وبالفعل أنهى رؤساء البحر سيطرة الانكشارية، وفرضوا أحدهم على الأوجاق، وبدأت فترة الدايات الانكشارية، وفرضوا أحدهم على الأوجاق، وبدأت فترة الدايات الفرنسي في الجزائر عام ١٦٤٦هـ/١٨٣٠م.

ويذكر أنه منذ أن انفصلت تونس عن التبعية للجزائر، نشأت بينها مشكلة حدود، كانت تشتد حين يتولى حكم قوي في تونس، فيطمح للإستيلاء على منطقة قسنطينة، كما حدث في عهد مراد بك، في منتصف القرن السابع عشر، أو حين يتولى دايات أقوياء في الجزائر، فيتطلعون إلى ضم ولاية تونس بأكملها. وفي كثير من الأحيان كانت الآستانة تتوسط في النزاع بين النيابتين، مذكرة بالوشائج الروحية التي تربط بينها، فكان الدايات والبايات يستجيبون للنداء طائعين حيناً، ومذعنين لضغط الرأي العام الاسلامي أحياناً. ورأت الآستانة أن تحل مشكلة الحدود، فتوسطت لعقد اتفاقية بين البلدين ترسم الحدود وتخططها، وأبرمت اتفاقية عام ١٣٣٧هم، وهي أقرب إلى أن تكون

اتفاقية حدود بين دولتين لا بين ولايتين. واتضح أن الجزائر كوحدة سياسية تشكلت نهائياً خلال العهد العثماني، إذ امتدت إلى واحات الميزاب الموغلة في الصحراء الكبرى.

هذا إلى أن الحرب الجهادية البحرية التي كانت تتولاها الجزائر ضد المراكب الأوروبية في البحر المتوسط، مثل ليبيا وتونس والمغرب الأقصى (مراكش)، قد أدت إلى صدامات مسلحة مع الأساطيل الأوروبية، كها أدت إلى قصف مدينة الجزائر عدة مرات من جانب الأسطول الانكليزي والأسطول الفرنسي.

ويلاحظ أن الجزائر، مثل ليبيا وتونس، قـد حققت في القرن الشاني عشر الهجري ـ الشامن عشر الميلادي ـ استقـلالاً ذاتياً عن الدولة العثمانية، وأبرمت الاتفاقات مع دول أوروبا دون الرجـوع إلى الاستانة، وفعلت أوروبا الشيء نفسه مع النيابات الثلاث.

والحق أن الفترة العثمانية من تاريخ أقطار المغرب الكبير: ليبيا، تونس، الجزائر، تعتبر ذات أهمية أساسية وحاسمة، ليس فقط لأنها امتدت ثلاثة قرون بالنسبة للجزائر، وثلاثة قرون ونصف القرن بالنسبة لتونس، وحوالي أربعة قرون بالنسبة لليبيا، وإنما أيضاً لأنها فترة تعرضت في مطلعها هذه النيابات لخطر مشترك هو الغزو الاسباني الذي حاول باحتلال الثغور الساحلية أن يكرر ماساة الأندلس، وينهي الوجود الاسلامي في افريقيا العربية. كا تعرضت بعد ذلك لاعتداءات متكررة من جانب الدول الأوروبية، وخاصة اسبانيا وفرنسا وانكلترا، متخذة شكل الحملات الصليبية، ولكن النيابات الثلاث صمدت لها وتغلبت عليها وتزايدت ثقتها بقوتها.

وعلى الصعيد السياسي والحضاري، تحقق لهذه النيابات المغربية في الفترة العثمانية، تعميق اصابتها الحضارية، وترسيخ تراثها العربي الاسلامي، ومقومات وجودها السياسي والقومي الذي برزت معالمه في المرحلة الاسلامية السابقة. فضلاً عن أنه اكتمل فيها الكيان السياسي فظهرت هويتها الواضحة، وتحددت مقومات الدولة فيها، بالمقارنة مع المرحلة السابقة التي تلت انقسام دولة الموحدين التي توارئها الحفصيون والزيانيون والمرينيون. وعلى رغم تبعية هذه النيابات الثلاث إسمياً للدولة العثمانية، فقد ارتسم كيان كل منها، من حيث اختيار العاصمة، ورسم الحدود مع جاراتها، وظهور الأجهزة الإدارية، ووضع نظم اقتصادية، واقرار أوضاع اجتماعية، وارتباط كل من هذه النيابات بعلاقات سياسية خارجية توافق مصالحها وأوضاعها، وتوثيق صلاتها سياسية مع البلدان العربية في المشرق ومع السلطنة العثمانية.

المغرب الأقصى

أما المغرب الأقصى (مراكش) فقد كانت ظروف تميزه عن النيابات العثمانية: الجزائر وتونس وطرابلس، فهو من ناحية لم يخضع للسياسة العثمانية أبداً، بـل تعاقبت عليه في الحكم أسرتان هما الاشراف السعديون، والاشراف العلويون. ومن ناحية أخرى فإن نشاط رجال البحر لم يكن بارزاً متميزاً، بخلاف النيابات المغربية العثانية، فإنها في جمعها بين عناصر القوة البحرية وعناصر القوة البرية، وفي طبيعة علاقاتها بالأقاليم وأهاليها، لم تكن فقط مشابهة في ظروفها خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وإنما أيضاً كانت تطوراً جديداً في تاريخ شال افريقيا العربي.

وقد تأثرت سياسة المغرب الخارجية بمجاورته للنيابات العثمانية، وبمحاولة الحكومة العثمانية ونيابة الجزائر التدخل في شؤون المغرب الداخلية في أكثر من مناسبة. وحين عجزت الدولة الوطاسية التي خلفت الدولة المرينية عن مجاهدة البرتغاليين وصد الغزو الأجنبي، قامت دولة الأشراف السعديين للقيام بذلك. إذا يمكن أن يعزى قيام الأسرة السعدية (أ) في مسراكش إلى نفس الظاهرة التي اجتذبت العثمانيين إلى الجزائر وتونس وطرابلس، وهي العدوان الأوروبي الذي انتقل إلى مرحلة المجوم بعد أن ظل مدافعاً عما بيده ضد غزوات العرب المسلمين. وكان أسلاف السعديين عرباً خلصاً انتقلوا من الحجاز إلى المغرب في زمن مبكر (حوالي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) واستقروا

 ^(*) يرجع بعض المؤرخين نسبة الأسرة السعدية إلى قبيلة سعد من هوازن التي تنتمي إليها مرضع النبي حليمة السعدية، ومنهم من يرجعها الى محمد النقس التركية من أبناء الحسين بن علي (رضي الله عنه).

في واحــات وادي درعة في أقصى جنــوب المغــرب، حيث عــاشــوا يطلبون العلم ويفقهون الناس في الـدين على عـادة شيوخ الـزوايا والمرابطين آنذاك، وبعد مدة انتقلوا شمالًا إلى منطقة السويس، حيث توجه الناس إلى محمد، كبير هذه الجهاعة الملقب بالقائم بأمر الله (٢٣ هـ/١٥١٧م) وبايعوه على مجاهدة البرتغـاليين فقط، لأن الدولة الوطاسية كانت قائمة، فقبل دعوتهم، وهاجم البرتغاليين في ثغر أغاديس، ثم توفي وتبرك ولدين هما أحمد الأعرج ومحمـد المهـدي. وكانت البيعـة للإبن الأكـبر أحمد، فـاتخـذ أخــاه وزيــراً يشاركه في الحكم ويستعين برأيه. وزحف الأخوان شمىالاً عـلى طريقة المرابطين والموحدين من التجمع في الجنوب والـزحف نحو الشيال، ودخلا مدينة مراكش (٩٣٢هـ/١٥٢٥م) مظهرين الولاء للسلطان الوطاسي الحاكم، ثم حاربًا البرتغاليين فاستوليًا على حصن أغادير (٩٤٨هـ/١٥٤١م) واضطرا البرتغاليين لـالإنسحاب عن مواقع كثيرة مثل صافي وآزمور وأصيـلا (٥٥٩هـ/١٥٤٤م)، وبذلك تمكنت الدولة السعـدية من تصفيـة الوجـود البرتغـالي من ساحل المغرب على الأطلسي، ولم يلبث السعديون أن شتتـوا شمل الوطاسيين، وطردوهم من فاس (٩٦٠هـ/١٥٥٣م)، على رغم أنّ أحد أفراد الأسرة الوطاسية هرب وطلب معونة العثمانيين لاسترجاع ملكه، وتم له ذلك بمساعدة العثمانيين في الجزائر، ولكن محمد المهدي عاد فاستولى على فاس وقضى على الوطاسيين نهائياً، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي امتد فيهـا النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى. غير أن الدسائس الأجنبية الناجمة عن

أطماع الدول المسيحية من ناحية والعثمانيين من ناحية ثانية، فعلت فعلها، وبخاصة بعد ظهور المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة، ذلك أن السلطان محمد الغالب بالله (٩٦٥ ـ ٩٨٢هـ/١٥٥٧ ـ ١٥٧٤م) وجد أن مصالحة الاسبان خبير وسيلة لمقاومـة العثمانيـين الـذين يريـدون ابتلاع المغـرب، كما أوجـد علاقــات تجاريـة مــع انكلترة، ولكن أخـويه عبـدالملك وأحمد عــارضــا سيــاسـتــه، ولاذًا بـالأستانــة وطلبا معــونتها لفتـح المغرب. وفي غضــون ذلك تــوفي الغالب بالله وخلفه ابنه محمـد المتوكـل على الله، فعجـز عن صد القوات العثمانية الزاحفة، مع عبدالملك وأحمد، واضطر إلى إغراء دون سيباستيان ملك البرتغال بفتح المغرب، وكان سيباستيان شديد التعصب ضد الاسلام، فرحب بالعرض وجهز حملة صليبية شارك فيها اسبان والمان وبرتغاليون. وعبر البحر ومعه الرهبان وكبار رجال الكنيسة. وفي صيف عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م جرت معركة وادي المخازن الحاسمة شمال مدينة فاس، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للحملة التي هلك فيها ثلاثة ملوك هم عبدالملك الـذي وافته المنية في بـدايـة المعركـة، والمتوكـل الـذي غـرق، وسيباستيان الذي قتل أثناء المعركة. وتولى أحمد الحكم بعد أخيه، وقبطف ثهار النصر، فتلقب بالمنصور بالله، وعملا شأن الدولة السعدية بهذا النصر المبين، ووصلت إلى أوج قوتها وازدهارها، في حـين تحطمت قـوة البرتغـال، ولم تمض سنتان حتى ضمهـا فيليب الثاني ملك اسبانيا إليه. وأقام المنصور علاقات طيبة مع السلطان العشاني، وأنشأ عـ لاقات تجارية مع انكلترا. وبعد وفـاته تنــازع

أبناؤه الثلاثة على السلطة، وانقسمت البلاد بين المأمون الـذي استولى على فاس بمساعدة الاسبان، وبين زيدان الـذي احتـل مراكش والجنوب، وعمّت الفوضي. ورفعت القبائل العربية والبربرية رأسها، وصارت تساوم على مساعدة هذا أو ذاك، واضطرب حبل الأمن، ومهد كل ذلك لظهور أسرة الأشراف العلويين التي بدأت تبرز في سجلهاسة، جنوب البلاد، وتستعد لتسأخذ مكان السعديسين الذين انهاروا نهائيساً حوالي عمام (١٠٧٠هـ/١٦٥٩م). وهــذه الأسرة التي يعود نسبهــا إلى آل على بن أبي طالب (رضي)، سيطرت على فاس (١٠٧٦هـ/١٦٦٦م). ويبدو أن آل البيت منذ أن ضاقت بهم الأحوال في الحجاز (ينبع النخل) كانوا يهاجرون إلى المغرب حيث يجدون هنالك التعظيم والاحسترام. وقامت دولة الأشراف العلويين عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م، وما زالت تحكم المغرب حتى اليـوم. ويعتبر محمد بن الشريف بن علي مؤسس الدولة، إذ قاد أنصاره من العرب والبربر نحو الشهال، واصطدم بالعثمانيين على حدود الجزائر وتلمسان، وكانت النتيجة رسم الحدود بـين المغرب والجـزائر، ثم خرج على محمد أخوه الرشيد وجـرت بينهها حــرب قتل في بـــدايتهـا محمد بن الشريف وانتقل الملك لأخيه رشيد الـذي يعتبر الأول في نـظر كثير من المؤرخـين وبخاصـة لأنه قضى عـلى السعديـين وفتح الكثير من البلاد، ثم توفي لدى جموح جواده عام (١٠٨٢هـ/١٦٧١م)، ولكن رجـل هذه الـدولة هـو الأخ الثالث مولاي اسماعيل، ويعتبر أعظم سلاطين المغرب في العصر

الحمديث، فقمد دام حكممه أكمثر من نصف قمرن (١٠٨٣ ـ ١١٣٩هـ/١٦٧٢ ـ ١٧٧٧م)، وبعــد أن حقق وحـدة البــلاد في الـداخل، وارتفع بمكانتها في الخـارج، اتجـه بجيشـه المؤلف من القبائل العربية، والمتطوعة من رجال الزوايا والمجاهدين، وبخاصة من السود (عبيد البخاري) المشهورين بـالشجـاعـة، لتحرير البلاد من الجيوب الأجنبية التي احتلها الأوروبيون على السواحل، فانتزع معظمها. ولكن أحوال دولته التي بلغت أعظم درجمات القوة والمشروة، لم تلبث ان اضطربت بعمد موتمه، فقمد انقسم أولاده واختلف وا على السلطان، كما انقسم الجيش، واستفادت الدول الأوروبية، وبخاصة انكلترا، لترويج متاجرها بعقـد صفقـات شراء السـلاح، لـتزيـد الفتن اشتعـالاً وتضـاعف أرباحها. ثم تحسنت الأحوال في عهد السلطان محمد بن عبدالله الـذي حكم مـا بـين (١١٧٠ ـ ١٢٠٤هـ/١٧٥٧ ـ ١٧٧٢م)، وعمل على استرداد ما بقى بيد الأجانب من ثغور بلاده مثل مازاغان، وبذلك طهر الساحل الأطلسي كله، ولكنه لم يستطع تحرير سبتة ومليلة على ساحل المتوسط من الاسبان، وان استطاعت دولته أن تبقي المغرب بعيدة عن الحكم العشماني، وعن الضغط والاحتلال الأوروبي أيضاً، حتى وقعت فريسة للفرنسيين والاسبان في بداية العقد الثاني من القرن العشرين.

الفصل الثاني

ارتباط الهيمنة الاستعمارية بالتجزئة العربية (١٧٩٨ - ١٩٢٠)(١)

أولاً: تمسهيد

نكبت أقطار الوطن العربي باستعار أربع دول أوروبية، هي فرنسا وانكلترا بالدرجة الأولى، وإيطاليا واسبانيا بالدرجة الثانية. وقد تحقق هذا الاستعار في أزمنة مختلفة وظروف متباينة وأشكال متنوعة، وبالمقابل أدت ثورة كل قطر من هذه الأقطار العربية ضد دولة الاستعار المهيمنة عليها، إلى تكوين حكومة وطنية ذات استقلال جزئي مقيد، تدرجت منه إلى الاستقلال التام المطلق بوسائلها الخاصة، وبجهود أبنائها في أوقات مختلفة، ولذلك تكونت في الأقطار العربية دول متعددة، وظهرت التجزئة العربية في صورتها الراهنة.

وقمد رأينا في الفصل الأول كيف أن المدولة العثمانية التي

حكمت معظم أقطار الوطن العربي، قد حافظت على نوع من (الوحدة) بينها. ونحن قبل أن نعرض للجولات الاستعمارية الأوروبية التي رمت إلى احتلال الأقطار العربية، سنشير بإيجاز إلى هذه (الوحدة) وإلى عواملها ومقوماتها في العصر العشاني الأول، أي قبل أن ينشب الاستعمار الأوروبي مخالبه في الأقطار العربية مشرقاً ومغرباً.

كان العرب والترك قبل أن تفرق الأحداث والنظروف بينهم أواخر الحكم العثماني، أبناء دولة اسلامية واحدة. ومتحضرين بحضارة واحدة، مشتركين في مجتمع واحد. ومما سمّل هذا التعايش بين المطرفين أن الدولة عاشت في العصر العثماني الأول مابين القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين ـ تؤمن بالفكرة العشمانية، أي تؤمن بتنوع الثقافات وتعدّد الشعوب. ولم تأخذ بالفكرة القومية التركية إلا في أواخر العصر العثماني الثاني.

وعلى الرغم من وجود فارق ظاهر بين الارستقراطية التركية، عمثلة في الحكام وكبار الموظفين والقادة، وبين الرعية العربية، ممثلة بالصنّاع والزراع والتجار والعلماء، فقد حافظ المجتمع على قوالبه الادارية العربية، وعلى مصطلحاته ولغته وتنظيماته. ويمكن التأكيد على أن عناصر الدولة وأجناسها من ترك وعرب لم تكن تشعر على أن عناصر الدولة وأجناسها من ترك وعرب لم تكن تشعر عموماً بعواطف العصبية العنصرية، ما دامت تؤمن بما للدين إذ ذاك من القوة في تنظيم المجتمع، بحيث يصبح تصور بناء

السياسة الداخلية أو الخارجية على غير أساس الدين أمراً مستحللًا.

وظل المجتمع العربي سليم العروبة بعيداً عن التأثير العثماني، لأن الحكم العثماني لم يتدخل في حياة الناس، بل أبقى ما كان، مكتفياً بمظاهر السيادة: حفظ الأمن، والذود عن البلاد وجباية الأموال المقررة والقضاء، وترك ما عدا ذلك للجماعات والطوائف، تديره وفقاً لأعرافها وتقاليدها. ولم يطرأ أي تغيير على مقومات المجتمع، إذ بقيت عناصر السكان كما كانت: الفلاحون والبدو والصناع والتجار والعلماء والأجناد وأصحاب المناصب، وبقي ما كان بين هذه العناصر من علاقات، كما بقيت نظم ملكية الأرض والجباية.

أما سياسة الدولة العثمانية نحو رعاياها من غير المسلمين (أهل الذمة)، فهي السياسة الشرعية: دخلوا في ذمة المسلمين، فيجب على الدولة أن تلحقهم بالجماعة، وأن تكفل لهم حرية شعائرهم الدينية، وتضمن لهم الحياة والمال. وعليهم أعباء مالية خاصة، وهي الجزية المقررة على أفرادهم الذكور البالغين القادرين على العمل، وتعفيهم الدولة مقابل ذلك من الخدمة العسكرية ومن الحرب.

وكان لا بد أن يتلاءم المجتمع مع هذه الحالة في العصر العثماني الأول الذي امتـد حتى أواخر القـرن الثامن عشر، وذلـك بأن ينتظم الناس في طوائف حـرفية وهيئـات شعبية ليكـونوا أقـدر على تأمين مصالحهم، فأهل الفلاحة يهيمن عليهم نظام الالتزام، وأهل الصناعة منتظمون في طوائف الحرف، وأهل العلم طائفة لها اعتبارها وكيانها، والمتصوفة لهم طرقهم، والاجناد منتظمون في أوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم أو أغواتهم. والأعراب والبدو منتمون إلى عشائر معروفة، والحكومة لا تعرف الفرد من هؤلاء إلاّ عن طريق طائفته، ولكل طائفة كيانها وتقاليدها ومشيختها وزعامتها، وكلمتها نافذة بالتنظيم والتأديب والتهذيب في أعضائها، ومقابل ذلك تقوم بالدفاع عنهم وعن مصالحهم، وتتحدث باسمهم دون أن يتجاوز محيط اهتمامها الدائرة أو الحي أو المدينة حيث تعيش باكتفاء ذاتي. وقامت مبادىء الحكم العثماني حتى القرن التاسع عشر على أساس أن تتخفف الدولة ما أمكن من أعباء الحكم المباشر، فتترك لطوائف الشعب وهيئاته أن تدير من أعباء الحكم المباشر، فتترك لطوائف الشعب وهيئاته أن تدير شؤونها بنفسها ما دامت على ولائها للدولة.

ولكن هذا المجتمع العثماني كان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في موقف لم يكن من صنعه وحده، بل كان أيضاً من صنع سياسات الدول الأوروبية نحو الدولة العثمانية، نجم عنها تقييد حريتها في الحركة والتصرف، ذلك أن تربّص كل من الدول الأوروبية بالدولة لتقتطع ما يمكن من أملاكها، وامتعاض هذه الدول من خضوع شعوب مسيحية لحكم اسلامي، كان لا بد أن يرتبطا بسهر الدول على حماية أوضاع معينة في الدولة. فبينها اعتنقت الدولة العثمانية النظرية الاسلامية التي قسمت العالم إلى

دار سلام ودار حرب، وصدّت عن دار الحرب وازدرت أهلها، حتى في أيام اختلال توازن القوى ورجحان كفة أوروبا، فإن اعتناق الدول الأوروبية لنظرية مسيحية من نفس النوع، لم يمنعها من الإقبال على الدول الاسلامية وتوثيق الصلات بشعوبها، لتحقق منافع متنوعة أسهمت في تفسوقها السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي. ولكن العصر العثماني الأول الذي جرى فيه الحكم نظرياً وفق خطط وتقاليد موروثة، لا يلبث أن ينتهي قبيل نهاية القرن الثامن عشر، وذلك حين يتحقق أهل الحل والعقد في الدولة من ضرورة الأخذ بسياسة الاصلاح والتجديد، لإنقاذ الدولة من فتن العصبيات والمغامرين في الداخل، ومن عواقب الهزائم العسكرية في الخارج.

ويبدو أنه مهما وُجّه النقد إلى الحكم العثماني وشُجبت مفاسده ونقائصه في كثير من النواحي، فإنه لا يبلغ لدى العرب حد الرغبة في الانفصال عن هذا الحكم، وقد توفر لأقطار العروبة في نطاقه نوع من الترابط والوحدة وذلك بفضل الشكل اللامركزي البعه العثمانيون في شؤون الحكم والادارة وبفضل تمسكه بتراثه وبنيته الاجتماعية العربية الأصيلة، ولذلك احتفظ المجتمع العربي بمقوماته الأساسية، وبقدر من حرية التصرف والتنقل.

فالدمشقي كان بمستطاعه أن يرتحل إلى مكة أو بغداد أو القاهرة أو فاس. . يعيش فيها، ويتلقى العلم على مشايخها ويمارس التجارة وخلافها دونما صعوبة، فلا حدود سياسية، ولا

حواجز جمركية ولا مشكلة نقدية. وهذا الترابط العـربي كان يشــد في أزره ويغذيه، الرحلة للحج أو لطلب العلم. فالحج ليس مجرد القيام بفرض ديني فحسب، وإنما هـو ميــدان رحيب للتعـارف وللتبادل الثقافي والتجاري. إن غالبية قوافـل الحج كـانت قوافـل تجارية تحمل السلع والمعارف، قاصدة الحرمين الشريفين من المغرب والمشرق، ويتوقف أفرادها لأمد قصير أو طويل في الحواضر العربية التي تقع على طريق الحج بغيـة إلقاء المـواعظ والدروس في إحدى مدارسها، أو أخذ العلم عن شيوخها. ثم هناك الرحلة في طلب العلم، وأسبابها متصلة بين بغداد والموصل والبصرة ودمشق وحلب ونابلس والقدس والقاهرة ومكة والمدينة وزبيد، ومدن المغرب العامرة بمعاهد العلم والحافلة بالطلبة يؤمونها وينطلقون منها إلى شتى أنحاء الـوطن العربي، وبـذلك ظـل الترابط الثقـافي قوياً بين علماء العرب، ولهذه الحقيقة دلالتها الهامـة، فعلى الـرغم مما يُوجُّه إلى علماء ذلك الـزمان من نـزوع إلى التقليد في تـداول العلوم النقلية والعقلية المعروفة في عصرهم، إلَّا أنهم بـاتصـالهم العلمي المستمر بعضهم ببعض، استطاعوا أن يحافظوا على المجتمع العربي متهاسكاً، في عصر كان الكساد الاقتصادي والفوضى السياسية والادارية من أبرز سهاته. وثمة شواهد عـديدة على هذا الترابط العلمي والاتصال الثقافي، نلمسها في التواليف والتصانيف التي كان يتعاون في إخراجهًا عـدة علماءً من أقـطار مختلفـة، فيكتب كل منهم مـا يتصل بـالموضـوع في قـطره، وثمـة شواهد على الترابط القومي، نلمسها في مساهمة الجاليات العربية

غير المصرية في الثورات ضد الحكم الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٠١١م)، وفي الحمية العربية التي دفعت بعض العرب من المغـرب والمشرق إلى الخروج من بلادهم لمحاربة هذا الغزو الفرنسي لمصر.

كان أول التحديات الاستعمارية التي صدمت المجتمع العربي هي الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، وقد أثارت في الشعب العربي بمصر خاصة، مزيجاً من المشاعـر الوطنيـة والدينيـة التي تولد عنها شعور قومي نبّه الشعب إلى الخطر المحدق به، ودفعه إلى مقاومتها والثورة عليها. وكان من نتاثج هذه الحملة التمهيد لتكوين دولة محمد على الحديثة التي أوجدت النهضة العربية في مصر وكان لها أصداء واسعة في المشرق العـربي والمغرب العربي على حد سواء. فضلًا عن تنبُّه الـدول الأوروبية إلى أهمية مصر والأقطار العربية المطلة على البحر المتوسط، والمارة بها الطرق البرية والبحرية المؤدية إلى الهند والمستعمرات الأسيوية. وحين أخفقت خطط بريطانيا للسيطرة على مصر بواسطة بعض عملائها من الماليك، والإطاحة بمحمد علي، أرسلت حملة عسكرية بقيادة الجنرال فريزر (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)، ولكنها ردت على أعقابها في رشيد بعد مقاومة شعبية ضارية. وأدرك الشعب العربي في مصر والأقطار الأخرى، أن هذه جولة ثانية في الحرب الاستعمارية التي أخذت أوروبا تشنها على الأقطار العربية للسيطرة عليها. والجولة الثالثة وقعت في الجزائر عام ١٢٣٢هـ/١٨١٦م.

ثانياً: الاحتلال الفرنسي للجزائر

بعد حروب الثورة الفرنسية، ونابليون، طالبت بريطانيا مؤتمر قيينا الأول (١٨١٤) بعمل أوروبي جماعي ضد ما أسمته القرصنة المغربية عن طريق القضاء على حكومة الدايات في الجزائر. وحين اكتفى المؤتمر بتحريم القرصنة واسترقاق الأسرى، أرسلت بريطانيا أسطولاً بقيادة اكساوث لتهديد النيابات المغربية لتطلق سراح الأسرى الأوروبيين. ولما رفض داي الجزائر عمر باشا هذا الطلب، قصف الأسطول ميناء الجزائر وألحق به دماراً كبيراً، اضطر الداي للتسليم بشروط بريطانيا (١٨١٦). ولكن هذه الإهانة أهاجت الشعور الوطني لدى الجزائريين فقتلوا الداي ونصبوا مكانه الداي حسين الذي وقف بحزم أمام مطلب بريطانيا وفرنسا، وهو الداي الذي صفع قنصل فرنسا في الجزائر بالمروحة، وكان ذلك ذريعة لاحتلال الجزائر.

ورغم أن الدولة العثمانية صاحبة الاشراف الاسمي على الجزائر، قد زودت الجزائر بشلاث سفن حربية بعد حملة اكسماوث، ولكن موقفها بقي ضعيفاً بإزاء محاولات الاستحواذ على الجزائر، وحين نزلت قوات الاحتلال الفرنسي في الجزائر عام (١٢٤٦هـ/١٨٣٩م) اكتفت الدولة العثمانية بتقديم احتجاج يتضمن عرضاً للتوسط بين فرنسا والداي، وكان لهذا الموقف المتخاذل أثر في فصم بقايا الرابطة الدينية التي كانت تربط الجزائر بالاستانة.

وتحققت الجهاعات الوطنية الواعية في الجزائر أن هذه الحملة الفرنسية الموجهة ضد بلدهم، هي جزء من ظاهرة عدوانية أوروبية عامة تستهدف الوطن العربي الاسلامي، بدأت بحملة نابليون على مصر، ودارت بعدها عجلة الاستعبار الأوروبي، فكانت حملة فريزر الفاشلة على مصر، ثم حملة اكسهاوث على الجزائر، وحملة بريطانيا على ساحل عهان وفرض معاهدة السلام الحزائر، وحملة بريطانيا على ساحل عهان وفرض معاهدة السلام الحليج والجنوب العربي. وكان للمقاومة الباسلة التي قادها الأمير عبدالقادر أصداء قوية في المشرق العربي أيقظت كوامن الترابط الديني من المشرق والمغرب، بعد أن اهتز الترابط الديني من الدولة العثمانية التي بدأ يتضع عجزها عن حماية عالكها.

ثالثاً: مكافحة الدولة العربية الموحدة

ولسنا بصدد الحديث عن بناء دولة مصر الحديثة في عهد محمد علي، وأسسها السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية المقتبسة من أوروبا، ولا عن دوافع توسعها في الجزيرة العربية بعد القضاء على الدولة السعودية الأولى (١٣٣٤هـ/١٨١٨م)، وفي السودان (١٣٣٦هـ/١٨٢٠م) وبلاد الشام (١٢٤٧هـ/١٨٣٢م). وإنما نلاحظ أن ضرب هذه الدولة يسجل الجولة الرابعة في الحرب الاستعارية ضد العرب، وقد امتدت الدولة من أضنة شمالاً إلى غندكرو في السودان والبحر العربي جنوباً، والخليج العربي شرقاً

إلى واحة سيوه، والبحـر المتوسط غـرباً، تضم أقـاليم تتكلم اللغة العربية، بـاستثناء الأطـراف الجنوبيـة من السـودان. ولم يبق من المشرق العربي سوى العراق الذي تطلع ابراهيم باشا للسيطرة عليه، لولا أن أنذرته بريطانيا بالابتعاد عنه. واستهلت هذه الدولة العربية الموحدة نهضة علمية وفكرية وأدبية، ووصلت تأثيراتها إلى المغرب العربي، وأسهمت في دفع اليقظة القومية العربية قـدماً إلى الامام. وهال بريطانيا بخاصة أن تقوم وحدة عربية تمتد على هذه الرقعة الهامة الاستراتيجية من المشرق العربي وتهدد مصالحها تهديداً مباشراً، فأثارت ضدها الفتن في بلاد الشام، وأرسلت مع روسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا مذكرة مشتركة في صيف عام ١٨٣٩ تطلب من السلطان ألا يبرم صلحاً مع محمد علي دون موافقتها. وبعد تدخل الأسطول البريطاني المباشر، وقوات الـدول الأوروبية الأخرى في الحرب ضد ابراهيم باشــا، وتأييــد الثائــرين عليه بالمال والسلاح، وتسليم حليفه بشير الثاني الشهابي للحلفاء، اضطر ابراهيم إلى التراجع عن بلاد الشام. وصدر فرمان سلطاني بأن يحكم محمد علي وأسرته مصر حكماً وراثياً يتسولاه الأكبر والأرشد بين الأمسراء، على أن تبقى مصر جنزءاً من السلطنة العثمانية وتدفع لها الجزية السنوية. وقد بلغت أوروبا وبريطانيا بخاصة، غاية التشفى والشهاتة من سقوط محمد على وانكفائــه إلى مصر، وانهيار صرح دولته العربية الموحدة، لما تشكله من خطر شديد على مصالحها. ولو تأملنا ردة الفعل العنيفة التي عكست تخوف أوروبا من انبعاث عربي حقيقي، لوجدنا أن أوروبا تقاوم بالدرجة الأولى فكرة الوحدة العربية لأسباب اقتصادية واستراتيجية وسياسية وتاريخية معروفة. فالوحدة العربية هي خطر داهم يهدد بنسف المصالح الاستعمارية، لأنها السبيل الوحيد إلى التقدم والتنمية والاستقلال. ونما يلفت النظر أن يتلو طرد محمد على من بلاد الشام ظهور أول المشاريع المتصلة باستيطان كثيف لليهود في فلسطين. ولعل أوروبا، وبخاصة بريطانيا، سعت جاهدة لاصطناع قلعة يهودية في فلسطين، تهدد وجود الوطن العربي الذي أحست بيقظته، فهبت لتخنقها وهي بعد في المهد، قبل أن يشتد عودها.

وهكذا انحسرت حدود الدولة العربية الموحدة، بانسحاب مصر من أقطار الشام والجزيرة العربية، وعادت الأحوال في هذه الأقطار إلى ما كانت عليه من قبل، وسجل ذلك بداية عزلة مصر عن حركة القومية العربية التي أكملتها بريطانيا باحتلال مصر عام ١٨٨٢.

ولكن النهضة العلمية القصيرة الأمد التي أوجدتها الدولة العربية في بلاد الشام، والأخذ بجبدأ المساواة بين الطوائف، وتوطيد دعاثم الأمن، وتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة، والنهوض بالتعليم الحديث، كان لها أثر واضح على يقظة الشعب العربي هناك، وزيادة وعيه لأسباب النهوض القومي، ولمطامع

الدول الأوروبية في بلاده.

والحق أن الإدارة المصرية في الشام سارت على خطط محققة لفكرة القومية العربية، ولفكرة المواطن الحديثة، من حيث الحقوق والواجبات. وحاولت أن تدير بلاد الشام على أساس أنها قطر واحد، يسكنه شعب واحد. فمن هذه الناحية بعثت دون شك الفكرة العربية، خصوصاً لما تجردت من سات الطائفية المدينية، وقوّت الارتباط بين جماهير الشعب في الشام ومصر. فانفتحت أمام الشوام (سوريين ولبنانيين)، أبواب الهجرة إلى مصر، للعمل في كل نواحي الحياة فيها: التجارة والادارة والتعليم والحركة الأدبية والصحف والتمثيل، إضافة إلى الارتباطات القديمة، كالدراسة في الأزهر وتعاطى التجارة.

أما بالنسبة للسودان، فقد أحدث الفتح المصري تغييراً اساسياً في أحواله، إذ هدم السلطات المحلية القائمة من مشيخات وعصبيات، وأوجد ارتباطات جغرافية وإدارية لم تكن قائمة من قبل. فنقل السودان من مجموعة شعوب وقبائل لا وحدة بينها إلا إسم السودان، إلى قطر له حدود مميزة، وإدارة مركزية، وعاصمة واحدة. ووجدت فيه الظروف التي تكفل ارتباطه بمصر والوطن العربي.

وبالنسبة للجزيرة العربية، لم يستطع الحكم المصري في الواقع أن يحدث تحويلاً أو تغييراً في شيء ما، بل كان، كسابقه العثماني، حكماً سطحياً لا يمس أوضاع الجزيرة، فظلت أقاليم

الحياة العربية على حالها، سواء في المناطق الداخلية، أم في منـاطق الخليج والجنوب التي تجمع بين البيئة البحرية والبيئة البدوية.

وانصرف اهتهام الادارة المصرية إلى عسير واليمن (ساحل البحر الأحمر)، ولكن نجاحها هناك كان محدوداً جداً، وقد اقتصر نفوذها على الحجاز، وحتى هنا فإنه لم يكن مباشراً، إذ بعثت قوة الأشراف من جديد بفرع آخر منهم، وكانت عند الحاجة تعزل شريف مكة وتعين آخر مكانه. فالحكم المصري لم يغير شيئاً من الحياة العربية التقليدية هناك، ولا مهد السبيل لبناء جديد. ولم يسع الوقت لتجربة من نوع ما.

وجدير بالذكر أن بريطانيا خشيت من تحركات القوات المصرية، سواء في اليمن أم على ساحل الخليج، كما تخوفت من قيام محمد علي بغزو العراق، فأرسلت تحذره من مغبة أي خطوة لمد سلطانه على الخليج أو بغداد، ومهددة بالتدخل العسكري. وحين استقر الحكم المصري في تعز، وأوشك إمام اليمن أن يعترف بسيادة محمد علي ويفتح لقواته أبواب صنعاء بشروط مرضية، بادرت بريطانيا لاحتلال ميناء عدن في مطلع عام ١٨٣٩ بعد قصفها بمدافع الأسطول، كما سنرى، مستغلة جنوح سفينة تحمل العلم الانكليزي قرب ساحل عدن حيث تعرضت للنهب، وتذرعت بهذا الحادث لاحتلال عدن ثم الانطلاق منها لتوسيع سيطرتها في الجنوب العربي.

وبدأ الاحتلال من عدن يثير المتـاعب أمام الحكم المصري في

اليمن بتحريض مشايخ القبائل على عدم دفع الزكاة، أو استهالتهم بالخلع والهدايا والأموال، حتى تـراجع القـوات المصرية عن اليمن والجزيرة بعد معاهدة لندن ١٨٤٠.

وإذا رجعنا إلى بلاد الشام، نجد أن الدولة العثمانية حاولت بعد خروج محمد على وقواته، تشديد قبضتها على السلطة فيها، وبعد أن كانت موحدة في ولاية واحدة (ولاية عربستان) وعاصمتها دمشق، استهلت الادارة العثمانية أعمالها بالعودة إلى تقسيم البلد إلى ولايات دمشق وحلب وصيدا، التي شهدت تطبيق التنظيمات العثمانية الرامية إلى خلق الحكومة القوية الفعالة، مقتدية بالنظم الغربية الأوروبية بكل ما تحمله من تحولات اجتماعية واقتصادية وفكرية.

بقيت التقسيهات الادارية في بلاد الشام على هذا النحو، حتى صدور قانون الولايات لعام ١٨٦٤، وبموجبه زالت ولاية صيدا، وانتظمت بلاد الشام ولايتين هما ولاية سورية التي اتسعت بضم أجزاء من ولايتي طرابلس وصيدا القديمتين، وولاية حلب وقد امتدت إلى قلب الأناضول، وضمت عدداً من الألوية والأقضية ومنها قضاء الاسكندرونة وقضاء انطاكية ثم انفصلت متصرفية القدس الشريف عن ولاية سورية عام ١٨٨٢ لتشكل متصرفية مستقلة مرتبطة مباشرة بوزارة الداخلية في الاستانة، نظراً للمركز الهام الذي تحتله مدينة القدس بالنسبة للديانات الساوية الثلاث ولتشابك المصالح الدولية فيها. وضمت أربعة أقضية هي يافا

وغزة وبئر السبع والخليل. وأنشئت ولايـة بيروت بعـد أن فصلت عن ولاية سورية عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م نظراً لتزايد أهمية بيروت التجارية، وقدوم الكثير من الأجانب إليها، ونشاط القناصل فيها، وضرورة الحد من مداخلاتهم مع طوائف سكانها، وليسهل عملى السلطنة مراقبة المدسائس والفتن الأجنبية فيها واخضاعها لإشراف وال مستقل عن ولاية دمشق الكبيرة. واشتملت ولاية بيروت على جميع الموانء السورية الرئيسية، وعملي متصرفيات البلاذقية وطرابلس وعكا ونابلس. وارتبط بلواء بيروت اربعة أقضية هي بيروت وصيدا وصور ومرجعيون. أما لواء طرابلس، فقـد ضم أقضية عكـار وحصن الأكراد وصـافيتـا. وتـألفت بـلاد الشام في أواخر الثمانينات من القرن الماضي من ثلاث ولايات هي ولاية سورية، وولاية حلب، وولاية بيروت، وثـلاث متصرفيات مرتبطة بوزارة الداخلية بالأستانة، وهي متصرفية القدس الشريف ومتصرفية الزور ومتصرفية جبل لبنان.

وكان للحملة المصرية في جبل لبنان تأثير عميق، فبعد أن التزمت فرنسا جانب محمد علي وانكلترا جانب السلطان العثماني، كان من الطبيعي أن تجد دعايات الفرنسيين وتحركاتهم صدى بين الموارنة، ودعايات الانكليز وتحريكاتهم استجابة بين المدروز، مما جعل الموارنة مساعدين لمحمد علي، والمدروز ثائرين عليه، وبذلك انتقل النزاع التقليدي بين فرنسا وانكلترا إلى الجبهة الداخلية على شكل نزاع بين الموارنة والمدروز، وأضيف عامل الداخلية على شكل نزاع بين الموارنة والمدروز، وأضيف عامل

جديد لعوامل المنازعات القديمة، وعدا جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحاً للفتن الطائفية ومثاراً للمكائد الدولية (١٨٤٥ - ١٨٦٠م). ونجحت بريطانيا في وضع الجبل تحت رقابة دولية للحيلولة دون تفرد فرنسا بمعالجة أزمته، ووضع لإدارة لبنان الجبل نظام خاص (١٨٦١) اعتبر بموجبه متصرفية ذات حكم ذاتي، مرتبطة بوزارة الداخلية بالاستانة، يدير شؤونه متصرف مسيحي كاثوليكي عشماني، يعين بإرادة سلطانية وموافقة الدول الأوروبية المعنية. وظل الأمر على هذا النحو في جبل لبنان حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، حيث ألغي نظام المتصرفية، وبدأ الحكم العثماني المباشر ودام حتى خروج العثمانيين من بلاد الشام عام ١٩١٨.

ولكن أحداث الجبل المؤسفة بين الموارنة والدروز (١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م) التي انتقلت عدواها لدمشق على شكل فتنة أصابت الحي المسيحي، وسارع العقلاء لاخادها، تركت أثراً عميقاً في نفوس الأهالي، ولاسيما الفئات الواعية منهم. فأدركوا أن الدول الأجنبية تسعى لاستغلال طوائفهم كي تهيمن على مقدراتهم، وأن ما جرى يجب أن يحفزهم على تضافر جهودهم وتوحيد صفوفهم دون تمييز بين مسلمين ومسيحيين، وأن الجهل هو مصدر التناحر الطائفي، الذي يستغله غير العرب لتمزيق وحدتهم وتجزئة بلادهم، وقد استهلت تجزئة بلاد الشام فعلاً حين نص نظام متصرفية جبل لبنان (١٨٦١) على تثبيت الطائفية في

الادارة، والتسليم بالإشراف الدولي عليها، والقصد هو تمييز الجبل عن بلاد الشام، تمهيداً لفصله، لخلق كبان خاص مشحون بتيارات شعوبية وأجنبية، معادية لأماني شعب هذه المنطقة العربية.

رابعاً: الاحتلال الفرنسي لتونس (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م)

منذ أن قامت فرنسا بغـزو الجزائـر عام ١٨٣٠، تـطلعت إلى التـوسع شرقـاً باتجـاه تونس، وهي إحــدى النيابـات المغربيـة التي كانت تتصدى للسفن الأوروبية في البحر المتنوسط. ولكن الباي محمود، ومن بعده الباي حسين لم يقف الموقف الصلب الذي اتخذته الجزائر، إذ قبل محمود الغناء الأتاوات، ومنع استرقباق الأسرى المسيحيين. وتعهد الباي حسين لفرنسا بمنع (القرصنة)، ومنحها مركز الدولة الأكثر رعاية. ومضى يعتمد عليها في إصلاح بلاده، اقتداء بالنظم الغربية، بقصد دعم استقلالها عن الدولة العشانية، ومواجهة احتمالات التهديـد الفرنسي لتـونس. وعـلى الرغم من سطحية الحركة الاصلاحية، فقد كُلفت تـونس أعباء مالية باهظة، اضطرتها لزيادة الضرائب والاستندانة من الخنارج. وفي عهد الباي محمد الصادق (١٨٥٩ ـ ١٨٨٨)، لقيت حركة الاصلاح معارضة قويـة من العلماء والأهالي الـذين رأوا أن إنشاء المحاكم النظامية وتطبيق القوانين على النمط الأوروبي يناقض

عاداتهم. وساعدت زيادة الضرائب على نشوب ثورة عنيفة عام ١٨٦٤ ضد سياسة الباي التي ارهقت الأهالي وأفقرت البـلاد حتى اضطرت للاستدانة من الخارج. وكما جرى في عهد سعيد واسهاعيل في مصر، دخل تونس عدد من المغامرين والباحثين عن الـثروة ، فكانوا وبالاً عليها، وحين عجزت تونس عن الوفاء بديونها، تشكلت لجنة دولية لمراقبة المالية بتونس. وعلى الـرغم من أن المصلح خير الدين باشا تـولى رئاسـة الحكومـة، وسعى لتنظيم الضرائب وتحقيق التوازن بين امتيازات الدول الأوروبية والمصالح التونسية ، ووثق علاقات بلاده بالدولة العثمانية ، غير أنه عـزل من منصب فارتحل إلى الاستانة. وأسفر مؤتمر برلين (١٨٧٨) عن تفاهم فرنسا وبريطانيا والمانيا على احتلال فرنسا لتونس، وزعمت فرنسا أن قبيلة تونسية هاجمت الحدود الجزائرية، واتخذت ذلك ذريعة لاحتلال تـونس (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، وأرغمت الباي محمـد الصادق على تـوقيع معـاهدة البـاردو، وفيها اعـترف بمقيم فرنسي يراقب تنفيذ المعاهدة، وأهم ما نصت عليه أن تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن على الحدود وفي السواحل، ويزول هذا الاحتلال عندما تقرر السلطتان الفرنسية والتونسية بأن الإدارة المحلية أصبحت قادرة على توطيد الأمن العام. . ويلتزم سمو الباي بأن لا يعقد أي اتفاق ذي صيغة دولية بدون إبلاغ الدولة الفرنسية وموافقتها.

ولكن الثورة المدلعت في جنوب البلاد ضد الفرنسيين،

واتهمت الباي بالخيانة، فسارع الأسطول الفرنسي، ودمر ميناء صفاقص، وقضى الفرنسيون على معقل الثورة في القيروان، وفرضوا معاهدة المرسى (١٣٠١/١٣٠١) على الباي الجديد علي الذي تعهد بقبول المقترحات الفرنسية، كما أقر بوضع الشؤون المالية تحت الوصاية الفرنسية.

واستنكر العرب الموقف الضعيف للسلطان عبدالحميد الثاني من احتلال تونس، وأدركوا أن الدولة العثمانية عاجزة عن حماية ممالكها، كما تنبهوا إلى حقيقة النوايا الفرنسية الاستعمارية التي تختفى وراء العطف الكاذب على الأماني العربية.

خامساً: احتلال بريطانيا لمصر (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م)

منذ جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، كان احتلال مصر شاغلاً من أهم شواغل بريطانيا الحريصة على أن تكون بيدها كل الطرق المؤدية إلى الهند. وبعد تراجع قوات محمد علي إلى مصر إثر تسوية ١٨٤٠، احتدم التنافس البريطاني - الفرنسي على نوال الامتيازات في مصر، لاستخدامها ذريعة للتدخل في شؤونها، ولاسيها بعد منح امتياز حفر قناة السويس إلى فرنسا في عهد سعيد باشا، وافتتاح القناة رسمياً في عهد الخديوي اساعيل باشا، وافتتاح القناة رسمياً في عهد الخديوي استدان بسعيد من البيوت المالية الأوروبية، ولم يكن في حاجة ملحة للمال، ولكنه كان متلافاً كثير النفقات مسرفاً على نفسه وعلى قصوره

وحفلاته، سخياً في غير موضع للسخاء، خصوصاً مع الأجانب.

وخلفه اسماعيـل، ولم يكن بأفضـل منه، إذ اشتهـر بالتبـذير وبالبذخ وحب الظهور، بوصفه حاكم دولة كـبرى تمتد جنـوباً إلى خط الاستواء وأواسط افريقيا. وتوسع اسهاعيل في الاستدانة، ولما عجـز عن سداد ديـونـه، بـاع اسهم مصر (١٨٧٥) في قنـاة السويس، وتقارب نصف مجموع الأسهم. ولكن الأزمة ظلت مستحكمة. وحين تزعزعت ثقة البيوت المالية الأوروبية بالخزانة المصرية، وافق اسهاعيل على عرض انكلترا لإيفاد بعثة تدرس أوضاع مصر المالية. وخشيت فرنسا أن تنفرد انكلترا بالتدخل في مصر، فأوفدت مندوباً عنها لمعاونة الخديـوي في تنظيم ماليته. وانقسمت حاشية الخديوي بين مؤيد أو معارض للمقترحات الانكليزية أو الفرنسية المطروحة لمعالجة الارتباك المالي. وكانت موافقة اسماعيل على انشاء صندوق للدين من مندوبي الدول الدائنة، بمثابة وصاية أوروبية (انكليزية ـ فرنسية خاصة) على مالية البلاد، بحيث هددت بشل سلطة الحكومة على شؤونها المالية والادارية، وقادت في النهاية إلى تدخل سياسي مكشوف في الادارة الحكومية بإدخال وزير انكليزي للمالية وآخر فرنسي للأشغال في وزارة نوبار ذي الميول الأوروبية. وحين استجاب اسماعيل لإرادة الشعب وأقمال وزارة نوبار، اعتبرت انكلترا وفرنسا ذلك تحديـاً لنفوذهما، وطالبتا بأن يكون للوزيـرين في وزارة الأمير تـوفيق (ابن اسماعيل) حق الفيتو على مقترحات مجلس الوزراء. وزاد حنق

الدولتين حين انهى اسماعيـل لقناصـل الدول أن البـلاد تسودهـا موجة من الغضب، وهي تطلب وزارة وطنية، فاستقال الوزيران، وضغطت انكلترا وفرنسا على الدولة العثمانية لعزل اسماعيل وتعيين ابنه توفيق لخديوية مصر. ووافقت الأستانـة لأنها وجدت في ذلـك فـرصة لتـأكيد سيـادتها عـلى مصر مجدداً. وبمــا أن انكلترا وفرنســا اشتركتا في خلع اسماعيل (١٨٧٩)، الـذي حاول في نهايــة الأمر مقاومة نفوذهما في مصر، فقد كان من الصعب أن ينجو الخديـوي توفيق من تدخل الدولتين رغم تنازعها، وتخوفت الدولتان من اقرار مجلس شورى النواب لمشروع الدستور، لما ينطوي عليه من تهديد لمصالحهما المالية ونفوذهما السياسي، فطالبتـا بأن لا يكـون للمجلس الحق في نظر الميزانية. وطبيعي أن يتحرك الجيش لـردع التدخل الأجنبي بزعامة الضابط أحمـد عرابي وزمـلاثه، وكــان قد أغاظهم الغبن الذي تضمنه نظام الترقية في الجيش، وتسريح عدد كبير من الضباط الوطنيين. واستجاب توفيق مكرهاً لمطالب العرابيين بإقالة وزير الحربية، وتظاهر بالصفح والمصالحة، ولكنه صمم على ضرب الثورة العرابية. وفي حين توثقت العلاقة بين الثورة وبين أكثر الزعماء الوطنيين، وتزايـد السخط الشعبي على الأوروبيين، وعلى انكلترا بخاصة، بعد اقدام فـرنسا عـلى احتلال تونس، أقرّ مجلس النواب الدستور الجديد ليشمل حق المجلس في تقرير الميزانية غير المخصصة لسداد الدين العام. وتفاقمت الأزمة بين الخديوي والعرابيين، فأرسلت الدولتان ست بـوارج فرنسية ومثلها انكليزية إلى مياه الاسكندرية، للحيلولة دون تدخل الدولة العشانية، ونشرتا الأراجيف عن اضطراب أحوال مصر، وما تنطوى عليه من خطر على الأجانب، وطالبت الـدولتان بـإيعاد عرابي عن مصر موقتاً، وإقالة وزارة البارودي. وقبل توفيق ذلك، وتشكلت وزارة جديدة احتفظ فيها عرابي بمنصبه كوزير للحربية، وإقترحت فرنسا عقد مؤتمر بالأستانة للنظر في المسألة المصرية، ولكن انكلترا خشيت أن تتجه نية المؤتمر المذكور إلى مطالبة الدولة العثمانية بإرسال قواتها إلى مصر، باعتبار أنها صاحبة السيادة الشرعية على البلاد، ولذلك قررت انكلترا التدخل عسكرياً، وتذرعت بما قام به العرابيون، من اصلاح تحصينات الاسكندرية، فقامت بقصف المدينة والنزول فيها، واحتمى الخديـوي تـوفيق بالأسطول الانكليزي. بيد أن الـدولة العثمانية أضعفت موقف عرابي المعنوي، حين أيدت موقف الخديوي المعادي لعرابي، وتم احتلال مصر بعد هزيمة عرابي عند التل الكبير ودخول القاهرة، وتسليم عرابي وصحبه للسلطات الانكليزية.

وكان من عواقب الاحتلال البريطاني لمصر، أن ألغي الدستور وحل مجلس النواب، وأوقف عملية التحول والتغيير والتجديد التي بدأت أيام محمد علي، ورسم لمصر سياسة اقتصادية تجعل منها مزرعة تنتج لبريطانيا المواد الخام، وسوقاً تبيع فيه مصنوعاتها، ومجالاً تستقر فيه رساميلها وتستخدم فيه موظفيها. وبعد أن كانت الفئات الوطنية الواعية تركز جهودها على تطوير البلاد في مختلف الميادين، إذا بها بعد الاحتلال تنصرف إلى مواجهة ومقاومة

اجراءتهم القمعية الرامية إلى تمزيق الجبهة المصرية الداخلية، وعزلها عن الإطار القومي العربي العام، مما أوجد في مصر تياراً وطنياً علياً تصدى لمقاومة الاحتلال، ورفع شعار (مصر للمصريين) كما فعل زعيم الحزب الوطني مصطفى كامل، وخليفته محمد فريد، إضافة إلى تيار اسلامي تقدمي تزعمه السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وسعى إلى اصلاح أحوال المسلمين في كل أنحاء العالم، وتطلع إلى الدولة العثمانية لمساعدته باعتبار أنها الدولة الاسلامية الكبرى التي ليس لمصر من نصير سواها ضد انكلترا.

سادساً: احتلال السودان

كان لدخول القبائل العربية إلى الأقاليم السودانية، وبخاصة من الشيال والشرق، أثر بعيد في تعريبها وفي إدخال الإسلام إلى ربوعها. وقد تلقى شرق افريقيا منذ العصور السابقة للإسلام والتالية له، موجات بشرية من الجزيرة العربية، وبخاصة من حضرموت وعهان، استقرت في موزمبيق وزنجبار وممباسة ودنقلة وسنار، وغلبت على العناصر الزنجية والحامية هناك. وفي حين انحسر ظل العروبة والاسلام عن الأندلس، كانت القبائل العربية تتقدم في مجاهل افريقيا ووادي النيل، حتى تكاثرت أعدادها وتعاظمت سيطرتها، فأسست دولاً إسلامية ذات طابع عربي في اللغة والثقافة، امتزج مع تراث محلي من العادات والتقاليد وطرق

المعيشة، نتيجة التأثر بالمناخ والتفاعل والتزاوج مع السكان الأصليين، وأسهم كل ذلك في تكوين السودان الحديث بوجهيه العربي ـ الاسلامي والأفريقي. وكان هذا حاله عشية وصول طلائع الفتح المصري أيام محمد علي باشا (١٨٢٠).

ومن المعلوم أن الإدارة المصرية في السودان منـذ عهد محمـد على أثقلت كاهل الأهلين بالضرائب، وكان أغلب حكام السودان من الترك والشراكسة والأوروبيين على جانب كبير من الظلم والقسوة وارهماق الأهلين، ولم يكن الأوروبيون مخلصين لمصر، فزادوا بأعمالهم ومظالمهم مشاعر الاستياء في النفوس. وفي عهـ د عساس الأول تأسست القنصليات في الخرطوم، وتغلغلت الإرساليات التبشيرية وجماعات التجار الأجانب في جنوب السودان، حيث تبين لهم أن ارباح تجارة الرقيق أوفر من تجارة العاج وريش النعام. والغي سعيـد الجهارك بـين مصر والسودان، فتوثقت عرى البلدين، ونشُّط التجارة وبناء الـطرق لربط أقـاليم السودان بعضها ببعض من ناحية، وبالقاهرة من ناحية أخرى، والغي تجارة الرقيق (النخاسة) وأصلح الجهاز الإداري، وفي عهـ د الخديوي اسماعيل شغل السودانيون الوظائف الهامة، وكلف غوردون الانكليزي بمكافحة النخاسة بعد أن عين حاكمأ للسودان، فكان أول أوروبي يشغل هذا المنصب.

ولكن ظروف الخديوية المصرية كانت حرجة، ففي الـوقت الذي ركزت فيه جهودها لقمع حركة النخاسيـن في الجنـوب،

تدخلت الدول لتخلع اسهاعيل وتنصب ابنه محمد توفيق مكانه. واستقال غوردون وخلفه محمد رؤوف باشا، فارتكب أخطاء غوردون من حيث الاستعانة بالموظفين الأجانب في محاربة النخاسة، وانتقل التذمر إلى سواد الشعب، وساد الإعتقاد بأن المدراء المسيحيين يشنون حرباً ضدهم بدافع التعصب الديني. ولم يلبث أن توحدت كلمة الأهالي وتجار الرقيق على إسقاط الحكم المصري في السودان، وطرد الأجانب، ولاسيها بعد قيام ثورة أحمد عرابي في مصر.

ومثلما استغلت انكلترا الثورة العرابية لاحتلال مصر، كذلك استغلت الثورة المهدية لتفكيك الامبراطورية المصرية ـ السودانية التي امتدت جنوباً حتى دارفور وخط الاستواء. وبدأت الثورة عندما قام فقيه زاهد اسمه محمد أحمد عبد الله في جزيرة آبا على النيل الأبيض يدعو إلى نفسه بأنه المهدي المنتظر، ويحرض الناس على عصيان الحكومة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، ولقيت حركته النجاح بسبب فساد الإدارة الحكومية واحتكارها تجارة العاج التي كانت بدر على أربابها أرباحاً وفيرة. وانتشرت الثورة من كردفان إلى المناطق الشرقية. وبعد احتلال مصر، حالت بريطانيا دون اتخاذ مصر الإجراءات اللازمة لمنع استفحال ثورة المهدي، والقصد هو اتخاذ الثورة ذريعة لاستمرار بقائها في مصر، ولفصل السودان والاستثنار به لمصلحة بريطانيا وحدها. وحين حقق المهديون انتصارات عسكرية على الحملات المصرية الموجهة ضدهم،

تـذرّعت الحكـومـة الانكليـزيـة بـذلـك لتغـير مــوقفهـا من مصر والسودان، فبعد أن أعلنت مراراً أن احتلالها لمصر موقت، ورفضت استخدام جنود بريطانيين أو هنود لمعاونة المصريين على الاحتفاظ بالخرطوم والأقـاليم الأخرى، ادعت بـأن مصر عاجـزة عن الصمود في وجمه قوات المهدي، وأن عليها أن تجلو عن السودان. وشعر الانكليز بالإرتياح لأن انتصار الثورة المهدية أعسطاهم ذريعة للبقساء في مصر عن طريق الادعساء بأن مصر بمواردها وقواتها سوف تعجز تماماً عن الاحتفاظ بالسودان، ومدافعة القوات المهدية عن حدود مصر الجنوبية. ولذا فلا بد من بقاء القوات الانكليزية في مصر للقيام بهذه المهمة، ثم لإعادة فتح السودان واسترجاعه من المهديين، من المحافظة على شكليات مشاركة مصر في ذلك. وعهد إلى الجنرال غوردن بتنفيذ سياسة جلاء مصر عن السودان، ولكن رئيس الحكومة المصرية شريف باشا عارض الجلاء قائلًا: ﴿إِذَا تَرَكُنَا السَّوْدَانَ فَالْسَوْدَانَ لَنْ يَتَرَكُّنَا ۗ، ثُمُّ استقال لأن الخديوي توفيق رضي بالجلاء، وكان معنى اذعان نوبار باشا رئيس الوزراء المصرية الجديد لمطالب انكلترا، ضياع نصف الدولة المصرية، وفك ارتباط السودان بمصر، وانهيار الامبراطورية المصريـة ـ السودانيـة في افريقيـا. وارتكب غـوردون عـدة أخـطاء جسيمـة كانت من عــوامل فشله، فقــد أعلن وهو في طـريقــه إلى الخرطوم (١٨٨٤) أن الخديوي تـرك السودان لأهله، وأن مهمتـه تنحصر في إرجماع العساكـر إلى مصر، فاتخـذ المهدي قـرار الجلاء عن السودان ذريعة لدعوة المترددين بالإنضام إليه، وكان سقوط

الخرطوم بيد المهدي ومقتل غوردون ايلذاناً بالسيطرة المهدية الكاملة على السودان في أوائل عام ١٨٨٥.

وهنا طلبت انكلترا من الحكومة المصرية جعل حدودها الجنوبية في وادى حلفا، دعماً لسياسة الجلاء عن السودان، وأذعنت الحكومة وأخلت دنقلة، وقررت في صيف العمام نفسمه جعل حدودها جنوب حلفا، وجاء ذلك نـذيـراً بانحــلال الامبراطورية المصرية ونهاية الحكم المصري في السودان، وأصبحت أقاليم السودان في نـظر الدول (ملكـاً مباحـاً) لا يملكه أحد، فأخذت كل منها ترسم الخطط لتضمها إلى أراضيها. ولكن انكلترا حالت دون وقوع الأقاليم السودانية في يد دولة اوروبية تهدد احتلالها لمصر، ونجحت في منع توغل فرنسا وايطاليا والحبشة في أعالي النيل من ناحية البحر الأحمر على أساس التساهل في استقرار الايطاليين في مصوع، بعد انسحاب الحامية المصرية منها (١٨٨٥)، وتأسيس مستعمرة ارترية. كذلك استولت انكلترا على زيلع وبربرة (١٨٨٤)، ثم أجلت القوات المصرية عن مديرية خط الاستواء (١٨٨٩) ولم تكن قد سقطت بيد المهديين. وبـذلك تمت حلقات الاستعمار البريطاني في شرق افريقيا، وفي الجنوب العربي والخليج العربي، كما سنرى. وفي غضون ذلك استولت فرنسا على تاغورة وجيبوتي (١٨٨٤). ولكن حين وجدت انكلترا أن فرنسا أرسلت بعض قواتها عبر الصحراء الافريقية الكبرى إلى أعــالي النيل، أمــرت الجنرال كتشنــر بالــزحف على الخــرطوم عــلى رأس قوات مصرية _ انكليزية، وهزمت قوات المهدي، ودخل كتشنر أم درمان، ثم تقدم جنوباً إلى فاشودة حيث واجه القائد الفرنسي مواجهة عاصفة، انتهت بانسحاب الأخير، بعد أن تأزمت العلاقات بين الدولتين ووصلت إلى حافة الحرب (١٨٩٩).

وتقرر مستقبل السودان في اتفاقية الحكم الثنائي التي أكرهت مصر على توقيعها مع انكلترا في أوائل عام ١٨٩٩، وهي الاتفاقية التي جعلت ادارة السودان من الوجهة الاسمية ادارة ثنائية تشترك فيها مصر وانكلترا، أما في الحقيقة فهي الاتفاقية التي مهدت لانفراد انكلترا بادارة السودان.

واقتصر دور مصر في الحكم على سد العجز السنوي في ميزانية السودان، على الرغم من أن القوات العسكرية التي استعادت السودان كانت ٢٥ ألفاً من جانب مصر، مقابل الفين على الأكثر من جانب انكلترا، ودفعت مصر ثلثي تكاليف الحملة، وأنفقت مصر على الاصلاح في السودان مبالغ طائلة.

وعلى رغم أن الخديوي عباس حلمي اعتبر أنه لا يجوز للحكومة المصرية عقد اتفاقية الحكم الثنائي للسودان، لأن فيها اعتداء على السيادة العثمانية، فقد وافق مجلس الوزراء المصري عليها، ووقعها وزير الخارجية بطرس غالي باشا، واللورد كرومر، على كره ظاهر من جماهير الشعب المصري، وبلغت حدة المشاعر المصرية درجة أدت إلى اغتيال بطرس غالي فيها بعد، وشغل الضباط الانكليز جميع المناصب المرئيسية في الادارة المركزيـة وفي مديريات الأقاليم، وكـان المديـرون يشرفون مبـاشرة على القضـاء والتعليم والصحة والـزراعـة في مـديـريـاتهم، ويتصرفــون فيهــا بسلطات مطلقة؛ فمشلاً منع مدير دنقلة الانكليزي التعليم الابتدائي في مديريته خـلال حكمه الـطويل، وظهـرت المعارضـة المصرية لاتفاقية الحكم الثنائي بعـد شهر من تعيـينِ الحاكم العـام الجديد ريجنالد ونغت بعد نقل كتشنر، باعتبار أنها أمليت من قوي عملي ضعيف، وسرت عمدواهما إلى ضباط الجيش المصري في السودان، وطبيعي أن تعمل حكومة الخرطوم عملي قطع كمل ما يصل مصر والسودان، وهي تعلم أن السلطات المصريـةَ لا تملك حق الاعتراض على أي تشريع يصدره الحاكم العام الانكليزي. ولكن رغم ضيق السلطات الانكليزية بالمصريين في السودان، من ضباط ومعلمين وموظفين. . . فإن الوشائج اللغوية والدينية في مصر والسودان كانت تعمل في اتجاه نـوع من الوحـدة الوطنيـة، ظهرت جلية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

سابعاً: الاحتلال الايطالي لليبيا (١٣٣٠هـ/١٩١١م)

كانت طرابلس الغرب ولاية عثمانية تديرها الدولة العثمانية مباشرة، وكانت بني غازي متصرفية عشمانية لا تختلف عن غيرها في ادارتها. وإذا كانت مسؤولية احتلال الجزائر وتمونس ومصر لا تقع بكاملها على عاتق الدولة العثمانية نفسها، بل كانت إلى حد

كبير أو صغير تقع على عاتق الحكومات المحلية التي كانت قائمة فيها، فإن مسؤولية احتلال طرابلس الغرب وبني غازي تقع بكاملها على عاتق الدولة العثمانية نفسها، لأنها لم تقم بعمل يذكر لاستكمال وسائل الدفاع عنها، أو لتوفير وسائل العمران فيها.

وكانت ايطاليا تطمع في امتلاك واستعمار تلك البلاد مند العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، ولاسيها بعد أن فقدت الأمل من احتلال تونس التي استولت عليها فرنسا على كره منها، إذ كانت تعتبر أن تونس وليبيا تقعان في مجالها الحيوي، وأرادت أن تعموض عن فقد تمونس بالتموسع في منطقة البحر الأحمر وشرق افريقيا، حيث نجحت في تأسيس مستعمرة ايطالية في ارترية وجـزء من الصـومـال، مستغلة فـرصــة انهيـار الحكم المصري في السودان نتيجة الثورة المهدية وما تبلاها. واضطرت للتخلى عن مطامعها في الحبشة بعد أن هزمها الأحباش في معركة عدوة (١٨٩٥)، فتطلعت إلى ضم طرابلس الغرب وبني غازي، وقمد مهدت لذلك بأن عقدت سلسلة من الاتفاقيات السرية لهذا الغرض مع عدد من الدول الأوروبية ما بين ١٨٨٧ و١٩٠٩، وأولاها الاتفاقية السرية بـين ايطاليـا وبريـطانيا (١٨٨٧)، وفيهـا تؤيد ايطاليا أعمال بريطانيا في مصر، مقابل دعم بريطانيا لأعمال ايـطاليا في طـرابلس الغرب وبني غـازي. كذلـك عقدت ايـطاليا اتفاقية سرية مع فرنسا أواخر عام ١٩٠٠، تعترف فيها لفرنسا بالأولوية في مراكش، مقابل اعتراف فرنسا بالأولوية لايطاليا في

طرابلس الغرب وبني غازي. وفي عام ١٩٠٢ نصت اتفاقية سرية أخرى بين الدولتين على أن الحقوق التي اعترفت بها فرنسا لايطاليا في طرابلس الغرب وبني غازي تشمل منطقة فزان أيضاً. وفي عام ١٩٠٩ عقدت ايطاليا مع روسيا اتفاقاً سرياً تتعهد روسيا بجوجبه أن تنظر بعين العطف إلى مصالح ايطاليا في طرابلس الغرب، كما تنظر ايطاليا بعين العطف إلى مصالح روسيا في المضائق (التركية). أي أن ايطاليا حصلت على الاعتراف بأطهاعها في طرابلس، من بريطانيا مقابل مصر، ومن فرنسا مقابل مراكش، ومن روسيا مقابل المضائق.

وكانت ايطاليا منذ زمن قد تسللت بنفوذها الاقتصادي إلى طرابلس الغرب، وأنشأت فيها فرعاً لبنك روما لإقراض المال بضهان الأرض والعقار، وفروعاً للمصارف الايطالية، وزاد عدد الجالية الايطالية هناك، وتوسعت مصالحها ومشروعاتها الاستغلالية تحت غطاء المنشآت الاجتهاعية والأعهال الخيرية (مدارس، مشافي. .). وفي أواثل عام ١٩١١ رأت ايطاليا أن الوقت قد حان للإستيلاء على ليبيا، لأن فرنسا قد انتهت من مفاوضاتها ومساوماتها مع المانيا، وباشرت احتلال المدن في مراكش (المغرب)، كما أن اسبانيا شرعت في احتلال منطقة (الريف)، فأصبح من (حق ايطاليا) احتلال ليبيا بحكم اتفاقياتها السابقة . فاصبح من (حق ايطاليا) احتلال ليبيا بحكم اتفاقياتها السابقة . فادعت أن فقدان الأمن في ولاية طرابلس يلحق الضرر بالمصالح فادعت أن فقدان الأمن في ولاية طرابلس يلحق الغرر بالمصالح الايطالية، ووجهت انذاراً لمدة ٢٤ ساعة إلى الحكومة العثمانية بأنها

اعتزمت احتلال طرابلس وبني غازي، وطلبت عدم معارضة هذا الاحتلال، وحركت ايطاليا اسطولها ثم احتلت مدن طرابلس وبني غازي ودرنة وخمس في تشرين الأول/اكتوبر ١٩١١. ومعلوم أن القطعات العسكرية العثهانية المرابطة في ليبيا لم تتجاوز بضعة آلاف، وفي قول أقل من ثلاثة آلاف، لأن الاستانة سحبت قسها من الحامية لمحاربة الإمام يحيى في اليمن وإرضامه على الاستسلام. بينها أرسلت ايطاليا ما يزيد على ١٤٠ ألفاً من مشاة وفرسان، مع عربات النقل والمدافع وع طائرات.

والتزمت الدول جانب الحياد في النزاع بين الدولة العشائية والمطاليا، وبإزاء المقاومة الشعبية العنيدة، للغزو الايطالي، ومشاركة الأقطار العربية في فرق المتطوعين وجمع التبرعات والبعثات الطبية، سعت ايطاليا إلى تهديد الدولة العثمانية، فقصفت تحصينات الدردنيل وميناء بيروت، واحتلت بعض جزر الأرخبيل ومنها رودس، فاضطرت الدولة العثمانية لتوقيع معاهدة أوشي (١٩١٢) والرضوخ للمطالب الايطالية، والانسحاب من ليبيا. ولكن المقاومة الوطنية الليبية رفضت هذه المعاهدة وشكلت حكومة وطنية لمتابعة الجهاد، ونجحت في وقف الرحف الايطالي وحصره في المدن الساحلية.

وانضم إلى حركة الجهاد الليبي طائفة من الضباط العرب. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، اشتدت حركة المقاومة السنوسية ضد الايطاليين في ليبيا وضد الانكليز في مصر، وتمكنت من الحاق الهزيمة بالإيطاليين في عدة معارك، بما اضطر هؤلاء لتوقيع اتفاق مع السيد محمد ادريس السنوسي، وبموجبه يبقى القسم الداخلي من ليبيا بيد السنوسيين. ولكن الحكم الفاشي بزعامة موسوليني قرر تطبيق سياسة الاحتلال الشامل عام ١٩٢٣، فاصطدم بالمقاومة البطولية التي قادها عمر المختار نحو ثهاني سنوات انتهت بأسره وإعدامه، وإقفال الزوايا السنوسية وتشريد رجالها (١٩٣١).

ثامناً: احتلال فرنسا للمغرب الأقصى (مراكش) (۱۳۳۱هـ/۱۹۱۲م)

حافظ المغرب الأقصى على استقلاله، وامتنع على العثمانيين والأوروبيين، حتى أوائل القرن العشرين، عندما اشتد الضغط الفرنسي عليه. والواقع أن السلاطين اللذين تولوا حكم المغرب بعد مولاي اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) أظهروا مقدرة فائقة في منع التدخل الأجنبي حين استغلوا بمهارة التنازع الدولي على بلادهم، وقد بدأ يشتد في منتصف القرن التاسع عشر، وخاصة بين فرنسا واسبانيا وانكلترا. فمنذ أن باشر الفرنسيون احتلال الجزائر (١٨٣٠) كانوا يتطلعون للإستيلاء على المغرب (مراكش)، وبخاصة بعد أن حاربت قوات كبيرة من المغاربة ضد فرنسا إلى جانب الأمير عبدالقادر الجزائري. ولكن سلطان المغرب مولاي عبدالرحمن اضطر لوقف المساعدة بعد أن قصفت فرنسا ميناء عبدالرحمن اضطر لوقف المساعدة بعد أن قصفت فرنسا ميناء

طنجة، وكادت أن تحتىل الجزء الشرقي من المغرب بعد معركة ايسلي (١٨٤٤) التي هُزم فيها المغاربة، وفرضت عليهم فرنسا اتفاقية للحدود، كما نالت معاهدة تعطيها حق الأولوية التجارية. ولم تلبث انكلترا أن وقعت مع المغرب اتفاقية تجارية جديدة (١٨٥٦) وسّعت امتيازاتها الاقتصادية السابقة، بحيث أصبحت تسيطر على ثلثي مجموع التجارة المغربية الخارجية، أما اسبانيا فقد حصلت عام ١٨٦٠ على ما يماثل امتيازات انكلترا الاقتصادية والقضائية، إضافة إلى احتلال مدينة تطوان بعد حرب ضد المغرب. وحققت فرنسا عام ١٨٦٠ امتيازات قضائية مماثلة تمنح حق الحماية لرعايا مغاربة يعملون في خدمة تجارها.

ولكن هذه الاتفاقات الثنائية أججت نار التنازع الدولي، وأدت إلى تفاهم الدول على عقد مؤتمر مدريد (١٨٨٠) الذي حضرته ثلاث عشرة دولة أوروبية، إضافة إلى الولايات المتحدة والمغرب، وفرضت معاهدة مدريد على المغرب أن تعترف للدول الأوروبية بامتيازات جعلتها مكتوفة الأيدي تجاه بعض رعاياها الذين لاذوا بالحياية الأجنبية وخضعوا للمحاكم القنصلية بدل الأهلية، الأمر الذي هدد الحكومة المغربية بفوضى اجتماعية التصرف لوحدها فيها يتعلق بالمسألة المغربية، فقد عملت فرنسا التصرف لوحدها فيها يتعلق بالمسألة المغربية، فقد عملت فرنسا واسبانيا إلى مجاراتها في السياسة نفسها، ولذا رأت فرنسا أن تقنع واسبانيا إلى مجاراتها في السياسة نفسها، ولذا رأت فرنسا أن تقنع

الدول الأوروبية ذات النفوذ في المغرب، ولاسيما بعد أن نجحت في احتلال تونس (١٨٨١)، بحقها في التدخل بشؤون المغرب، زاعمة أن مصالحها مهددة، اكثر من غيرها بالإضطراب الذي تثيره القبائل المغربية على الحدود الجزائرية:

مع ايطاليا، أبرمت فرنسا اتفاقاً عام ١٩٠١ يطلق يد ايطاليــا مستقبلاً في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بني غازي، مقابل أن يكون لفرنسا حرية التصرف مستقبلاً في المغرب (مراكش).

ومع انكلترا وقعت اتفاقية الوفاق الودي (١٩٠٤) على أساس إطلاق يند انكلترا في مصر، وينه فرنسنا في المغرب الأقصى (مراكش)، وكان الحافز على اتفاق الدولتين خشيتهما من نهوض المانيا كدولة عظمي في أوروبا، وسعيها الحثيث لتكون دولة بحرية لها مكانها المرموق في العام. ومع اسبانيا عقدت فرنسا، في العام نفسه، اتفاقية نصت بنودها السرية على تقسيم المغرب بين الدولتين، بحيث تسيطر اسبانيا على منطقة صغيرة في شمال المغرب (منطقة الريف)، ومنطقة أصغر جنوبه، نظير سكوتها عن مطامع فرنسا الاستعمارية في القسم الأكبر من المغرب. كما نصّت على اشتراك الدولتين في المشروعات الاقتصادية. ولكن المانيا رأت أن هذه الاتفاقيات الثناثية موجهة ضد مصالحها، وفي زيارة مثيرة لمدينة طنجـة (١٩٠٥)، أعلن الأمبراطـور ولهلم الثاني أن سلطان المغرب هو الحاكم الشرعي المطلق في بـلاده، وناشـده بأن يحـافظ على استقلالها، ولا يجعل فيها امتيازاً خاصاً لأية دولة، وأن تكون المنافسة التجارية في المغرب لجميع الدول. وأيد الأمبراطور دعوة السلطان لعقد مؤتمر دولي لبحث المسألة المغربية، لوضع حد للمطامع الفرنسية المؤيدة من ايطاليا وبريطانيا واسبانيا. وهكذا انعقد مؤتمر الجزيرة في أوائل عام ١٩٠٦ بحضور الدول الأوروبية الشلاث عشرة والولايات المتحدة والمغرب. ورغم أن مقررات المؤتمر قضت على الامتيازات التي أقرها مؤتمر مدريد لفرنسا، والغت تماماً كل المعاهدات السرية السابقة، واعترفت بحرية المغرب واستقلاله، ولكنها وضعت فرنسا في مركز ممتاز تجلى في المقررات التالية:

- تكوين قوة وطنية مغربية مسؤولة عن الأمن في الموانى، يشرف عليها ضباط فرنسيون وإسبان.

- تأسيس مصرف للدولة يتولى الشؤون المالية بمراقبة الدول، وتوزع أسهمه بالتساوي عليها، ويكون لفرنسا من الأسهم أكثر مما لغيرها، ويترك لها حق التفاهم من المغرب في شؤون الحدود التي تخصها وفي قوة الأمن.

- وضع الجمارك في المغرب تحت رقابة دولية، ومشاركة مختلف المدول في تنفيذ المشروعات الاقتصادية.

خرج المغرب من المؤتمر خاسراً، ولم تقدم له المانيا دعماً يذكر، ومضت فرنسا، مسلحة بهذا الـدعم الدبلوماسي، تثير المشاكل والفتن الـداخلية للمغـرب، وتهدر طاقـاتـه المـاليـة والبشريـة في مواجهتها، بما اضطر حكومة المغرب إلى استدانة المزيد من القروض الأجنبية فارتبكت أمورها.

ومنذ البداية أثار التدخل الأجنبي الشعور الديني، وهب الشعب لمقاومته، وقامت حركة وطنية بدأها الشيخ ماء العينين لمقاومة الفرنسيين في أقصى جنوب المغرب (شنقيط أو موريتانيا) والتف حولها مختلف القبائل، وكانت تنتظر من سلطان المغرب عبدالعزيز أن يقوم بدفع غائلة العدوان الأجنبي عن البلاد، وبسن نظام دستوري يحفز الجاهير على المقاومة.

وأقدمت فرنسا على احتلال الجزء الشرقي من المغرب، واستولت على مدينة وجدة (١٩٠٧)، وتذرعت باضطرابات نشبت في الدار البيضاء لاحتلال المدينة، وبما أن السلطان عبدالعزيز قد تورط في المصادقة على موقف ممثليه في مؤتمر الجزيرة المجحف بحق المغرب، وبما أنه أثبت عجزه عن مقاومة التغلغل الفرنسي في موريتانيا، فقد رأى الشعب أن خير وسيلة للتحرر من التزاماته القديمة والجديدة، هو الثورة عليه وخلعه، ومبايعة مولاي عبدالحفيظ مكانه. اجتمعت جماهير الشعب في مدينة مراكش على شكل مؤتمر وطني وطالبت بطرد الأوروبيين من البلاد، وعدم الاعتراف بمقررات مؤتمر الجزيرة، وأعلنت الجهاد، وجرت مبايعة مولاي عبدالحفيظ سلطاناً في حزيران/يونيو ١٩٠٨.

وانعقد مؤتمر وطني آخـر في فاس، وأعلن مـطالب مشابهـة، إضافة إلى مطلب له دلالة واضحة عـلى عمق تلك اليقظة العـربية

بين المشرق والمغرب، وهـو الاعتهاد عـلى دول المشرق الإســـلامي المتقدمة، وهـو مطلب كـان قد سعى إليـه من قبل مـولاي الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤)، حين ارتأى أن خير وسيلة لـدفع التنافس الاستعماري عن البلدان الاسلامية، هو تجديد علاقات المغرب الدبلوماسية مع الدولة العثمانية، والعمل على الإفادة من خبرائهما ورجالاتها. وبعد مؤتمر مدريد (١٨٨٠) حضر وفد مغربي إلى الأستانة برئاسة وزير مغربي، فاستقبله السلطان عبدالحميد بحفاوة بالغة، واتفق الجانبان على تبادل التمثيل السياسي، وتقرر تعيين الأمير محيى الدين نجل الأمير عبدالقادر الجزائري سفيرا للاستانة في المغرب. ولكن فرنسا، وقد شعرت بخطر الـدعوة للجامعة الاسلامية في المغرب، حرصت الدول الغربية على اللاغ الحسن بأنها لا تنظر بارتياح إلى سياسة التقارب العثباني المغربي، لما لها من صبغة اسلامية تجعلها معادية للدول الأوروبية حليفة المغـرب. أما انكلترا فلزمت الصمت لأنها كانت تتخذ المغرب أداة لتهديد فرنسا كلم حاولت معارضتها بخصوص وادى النيل، ولأنها ترى أن سياسة عبدالحميد مناوئة لتنوسع روسيا جنوب بحر قزوين وتهديدها حدود الهند. واضطر الحسن يـومذاك إلى التخلي عن تنسيق سياسته الخارجية مع السياسة العثمانيـة. وبرغـم أن مولاي عبـدالحفيظ أرسل وفـدأ مماثـلًا إلى الأستانـة قابـل السلطان محمد رشاد، وحصل على وعد بعدم اعتراف الأستانة بآلحهايـة الفرنسيـة لو نجحت فرنسا في بسطها على المغرب، فإن عبـدالحفيظ عملياً لم يتخذ أية خطوة في هذا الاتجاه، بالعكس، تعهد بقبول مطالب

المذكرة المشتركة التي قدمتها إليه فرنسا واسبانيا كشرط للاعتراف به، وأهمها ترك فكرة الجهاد، وقبول المعاهدات والصكوك الدولية المتعلقة بالمغرب. ومع أن الثورة تصاعدت في فاس، وشارك فيها الجيش المغربي، فقد افتقرت إلى التنسيق مع الثورات الأخرى، ولذا استفردتها القوات الفرنسية وأخمدتها ودخلت فاس ومكناس المانيا إلى الاحتجاج، فأرسلت طراداً إلى ميناء أغادير بحجة حماية المسالح الألمانية، وانذار فرنسا بأن وجود جيشها في المغرب نخالف المتفاقية الجزيرة، وطلبت سحب الجيشين الفرنسي والاسباني من اراضي المغرب، ولكن الأزمة سرعان ما انتهت باتفاق الدولتين على أن تعترف المانيا بحق فرنسا في المغرب، نظير تنازل فرنسا لها عن جزء من مستعمراتها في افريقيا الاستوائية.

الفصل الثالث

ارتباط الهيمنة الاستعمارية بالتجزئة العربية (١٧٩٨ ـ ١٩٢٠)(٢)

أولاً: الاستعمار البريطاني في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية

تمهيد

إن بحث الأصول التاريخية لمنطقة الخليج العربي يكشف عن مصادر أوضاعها السياسية الراهنة، وأسباب اختلاف أحوالها وتعدد دولها، ونبدأ بمنطقة الخليج:

يشكل الخليج العربي الحد الشرقي الأقصى للوطن العربي، ويعرف القسم الجنوبي منه بخليج على الذي ينتهي بمضيق هرمز، ثم يمتد شمالاً ويتسع ليكون الخليج العربي، وتضم السواحل الغربية من الخليج عدداً من الدول والإمارات العربية

تشابهت أصولها القبلية، وتماثلت في تكوينها السياسي الـذي تدرج من المحلة إلى المدينة فالدولـة وحتى الامبراطـورية، كـما كان حـال سلطنـة مسقط وعمان قبـل تجزئتهـا بـين القسم الأسيـوي والقسم الأفريقي في مطلع ستينات القرن التاسع عشر.

وارتبط ظهور الوحدات السياسية في الخليج والجنوب العربي بانهيار السيطرة البرتغالية منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي، بحيث عادت القوى العربية هناك إلى مسرح الأحداث، واستعادت ما فقـدته من نشـاط ملاحي وتجـاري. وبرز من هـذه القوى (اليعاربة) ثم البوسعيد في مسقط وعهان، والقواسم في ساحل عمان، والعتوب في البحرين والكويت، وبنـو كعب في عربستان (المحمرة). وكان يصح أن تتجمع هذه القوى السياسية، ولكن التدخل الاستعماري البريطاني في الخليج والجنوب منذ أواخر القرن الثامن عشر، أبقى على الحالة الـراهنة بين هذه القبوى، وسعى جاهـداً لتثبيت التجزئـة والخصومـة فيما بينها، وربط كلَّا منهـا بعجلة السياسـة البريـطانية، لحـماية طـريق الهند وإبعاد أي نفوذ عربي أو أوروبي آخر عنه. وقبـل الاستعمار لم يكن الخليج العربي أو الجنوب العربي يعرف هذه الوحدات السياسية المنفصلة وهي الكويت والبحرين وقسطر ومشيخات ساحل عمان السبع التي اتحدت مؤخراً في دولة الامارات العربية، ويمكن ترتيبها من الشمال إلى الجنوب على النحو التــالي: أبو ظبي، دبي، الشارقة، عجمان، أم القيوين، رأس الخيمة، الفجيرة. أما (عربستان) وتعني بالعربية (أرض العرب) فهي تسمية فارسية كانت تطلق على الأجزاء الشالية من الساحل الشرقي للخليج، وذلك اعترافاً من ايران بعروبة هذه المنطقة التي تعتبر المحمرة أهم حواضرها، والتي أنشأت فيها قبيلة بني كعب العربية إمارة منذ أواخر القرن السابع عشر واحتفظت باستقلالها عن فارس والدولة العثانية. وعلى الرغم من أن معاهدة أرضروم الخاصة بسرسم الحدود بين فارس والدولة العثانية (١٨٤٧) قد جعلت (المحمرة) تابعة لفارس، فإن هذه الإمارة العربية ظلت بعيدة عن السيطرة الفعلية الفارسية، وتعاقب على حكمها أمراء بعيدة عن السيطرة الفعلية الفارسية، وتعاقب على حكمها أمراء العرب كان آخرهم الشيخ خزعل الذي اعتقلته السلطات من العرب كان آخرهم الشيخ خزعل الذي اعتقلته السلطات الايرانية عام ١٩٢٥، وضمت امارته إلى ايران بالقوة والقهر.

من المعلوم أن الحركة الوهابية التي بدأت في نجد حوالى منتصف القرن الثامن عشر على شكل انبعاث ديني يهدف إلى نبذ البدع والحوافات التي تفشت بين العرب المسلمين، والعودة إلى جوهر المدين الاسلامي وأساسه، كما يهدف إلى ضم الأقاليم العربية الاسلامية تحت راية التوحيد وتحريرها من الحكم العثماني الذي عجز عن المحافظة على ممتلكات الدولة الاسلامية، بسبب اختلال أموره ودخول البدع والضلالات في عقيدته على نحو أطمع الكفار في هذه الممتلكات. وقبل بروز قوة الدرعية على مسرح السياسة النجدية حوالى عام ١٧٤٥ كانت أوضاع نجد مسرح السياسة النجدية حوالى عام ١٧٤٥ كانت أوضاع نجد تعاني من التفكك والانقسام بسبب استقلال كل أمير أو شيخ

بالمدينة أو البلدة أو القبيلة التي يحكمها. ولكن الحماس الـذي صحب ظهور الدعوة الوهابية وإقامة دولتها الموحدة في نجد، دفع الـوهابيـين (الموحـدين) في الستينــات من القــرن الثــامن عشر إلى تدعيم مركزهم على أساس توحيل نجد وضرب خصومهم فيها أولًا، ثم الالتفاف إلى صد غارات أعدائهم في الأحساء. وحين نجح الوهابيون في القضاء على حكم الأحساء (بني حالم) عام ١٧٩٥، استـطاعوا أن يخـرجوا من الجـزيرة العـربية إلى أطـرافها الشرقية، ويهددوا مركز السلطان العشاني كخليفة على المسلمين، وذلك حين باشروا غاراتهم على العراق والشام، وعجز حكام القطرين عن مدافعتهم، وحين استولى السعـوديون عـلى الحجازُ وأعلنوا عام ١٨٠٦ أنه لم يعد للسلطان العثماني سلطة على الحرمين الشريفين، كلف السلطان والي مصر محمد على باشا بمهمة القضاء على الوهابيين. كذلك نجح السعوديون في مد نفوذهم إلى عدد من الحواضر اليمنية، ولكن امام اليمن طلب المعونة من السلطان العشاني، ووالي مصر محمد على ضد السعدوديين إلى أن تمكن الأخير من إعادته إلى أملاكه (١٨١٩).

إن مساعي الدولة السعودية لمد نفوذها إلى منطقة الخليج قد تعاصرت مع أحداث الغزو الفرنسي لمصر (١٧٩٨) الذي سجل بداية انطلاق حركة الاستعمار باتجاه المنطقة العربية مشرقاً ومغرباً. وتمثل في منطقة الخليج بمسارعة بريطانيا ليس فقط إلى احتواء خطط الوهابين، ثم خطط محمد على التوحيدية بعد القضاء على

الـدرعية، وإنمـا أيضاً إلى العمـل على تثبيت الـوضع الـراهن بين دويلات الخليج وربطها بالسياسة البريطانية.

وقد سلف قولنا بأن البرتغال كانت أول دولة أوروبية نهضت بحركة الكشف والاستعمار، وكان لها أهداف اقتصادية ودينية واضحة لا في الخليج فحسب، وإنمـا أيضاً في الهنــد وجنوب شرق آسيا، واستطاعت أن تستولي على جزيـرتـين تمتلكـان أهميــة استراتيجية حيوية هما: سقطرى عند مداخل خليج عدن، وهرمز المتحكمة في مداخل الخليج العربي. واستفاد البرتغاليون من النزاع المرير بين أكبر دولتين اسلاميتين وقتـذاك، الدولـة العثمانيـة والدولة الصفوية، وبفضل التقارب مع الصفويين نجح البرتغاليون في السيطرة على عديد من القواعد البحرية في البحرين والقطيف وسواهما. ولم تسفر جهود العثمانيين البحرية لطود البرتغاليين من البحار العربية والهندية عن أية نتيجة. بلي، نجحوا في الاستيلاء على مسقط وقلعتها البرتغالية، ولكنهم فشلوا في حكم المدينة بسبب تردي سمعتهم في الموانء العربية التي نـزلوا فيها، كذلك فشلوا في غزو جزر البحرين (١٥٥٥) نتيجـة تحالف البرتغاليين والصفويين، وانسحب العثمانيون من مياه الخليج، واكتفوا بالحفاظ على ميناء البصرة لصد الغزو البرتغالي عن أراضى الدولة العثمانية.

تعرضت القوى البحرية العربية لنكبة قاسية أفقدتها التفوق والازدهار الملاحي السابق، في أعقاب حركة التطويق الأوروبي

للوطن العربي الذي استهله البرتغاليون لإحكام السيطرة على المعابر العربية التي كانت تسكلها تجارة الشرق في طريقها إلى أوروبا، وكان من شأنها أن احتل البرتغاليون مركز الصدارة السياسية والتجارية في الخليج العربي والبحار العربية لفترة تقارب القرن ونصف القرن، أي منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر.

ولم يلبث أن ضعف مركز البرتغال تدريجياً نتيجة انضهامها إلى اسبانيا (١٥٨٠)، ولم تسترجع استقــلالهــا إلَّا عــام ١٦٤٠. وفي غضون ذلك برزت هولندا بعد أن تحررت من السيطرة الاسبانية، ووجهت نشاطها الاستعباري التجاري نحو جزر الهنـد الشرقية (١٥٩٥) كما وجهت انكلترا أنظارها أيضاً إلى الشرق، وأسست شركة الهند الشرقية (١٦٠٠) لترسيخ نفوذها الاقتصادي في المشرق العربي وجنوب شرق آسيا. وقد استعان الشاه الصفوى عباس الأول بسفن شركة الهند لطرد البرتغاليين من جزيـرة هرمـز (١٦٢٢)، نظير اقتسام الغنائم وعائدات المكوس معها، وانسحب البرتغاليون إلى مسقط التي غدت قاعدتهم الرئيسية في الخليج. وتقدم الهولنديون لـالإفادة من سقـوط هـرمـز والعمـل لحسـابهم بتأسيس وكالة تجارية لهم في بندر عباس، وقد تحالفوا مع الانكليز لاسقاط النفوذ البرتغالي في الخليج. ولكن الصراع لم يلبث أن احتدم بينهم وبين شركة الهند الشرقية الانكليزية حول الامتيازات والاحتكارات التجارية هناك، وانتهى بغلبة الانكليز، وتأسيس مركز تجاري للشركة في بنـدر عباس، وآخـر في البصرة. وبذلـك وضعت انكلترا قدمها في منطقة الخليج.

وساهمت القـوى العربيـة في عـمان وسـاحلهـا في التصـدي للسيطرة البرتغالية، بعد أن تغلب العرب في عمان على مشكلة التفكك السياسي التي اتاحت للبرتغاليين الاحتفاظ بحامياتهم، وكان العامل الديني هو أساس الوحدة، إزاء الأسلوب الاحتكاري الفظ الذي اتبعه البرتغاليون المتعصبون، كإحراق السفن وإغراقها وتعذيب بحارتها. كما ارتبط قيام اسرة اليعاربة في عمان بإحياء نظام الإمامة على يد ناصر بن مرشد اليعربي (١٦٢٤) الذي أعلن الجهاد الديني لتحرير بني ياس، ونجحت في طرد البرتغاليين من قلعة جلفار (الصمير ـ رأس الخيمة). وخلف ابن عمه سلطان بن سيف فأحرز نصراً حاسماً على البرتغاليين، واحتل قلعتهم الحصينة في مسقط (١٦٥١) وطاردهم في سواحل الهند وشرق افريقيا، كما استحوذ ابنه سيف (١٦٩٢ ـ ١٧١١) على ممباسة أهم حواضر افريقيا الشرقية البرتغالية، ووجه عناية خاصة إلى الأسطول فقدر عـدد سفنه الكبيرة بثمان وعشرين يحمـل بعضها ثـمانين مـدفعـاً. وحين حاول البرتغاليون، بمعونة فارس، ضرب هذه القوة العمانية الناشئة، قامت هذه بتدمير مراكز البرتغاليين قرب بومباي، والإغارة على معاقلهم في جزيرة ديو وساحل الكوجرات بـالهند. وتــولى سلطان بن سيف الثـاني حكم عــان (١٧١١) فلم يعش طويلًا، وتنـازعت أسرة اليعاربـة ومزقتهـا الحروب العنيفـة، مما أدى إلى تعرض البلاد لغزوات خارجية، ترتب عليها سقوط الأسرة الحاكمة، وانتقال الحكم إلى أسرة البوسعيد (١٧٤١) التي ما زالت تحكم حتى الآن. ففي عام ١٧٣٧ ارسل نادر شاه الأفشاري الذي سيطر على فارس وانتزع الحكم من الصفويين، حلة من بندر عباس ونزلت في خورفكان زاحفة نحو رأس الخيمة، فجوبهت بمقاومة عهانية عنيفة قادها أحمد بن سعيد والي اليعاربة في ميناء صحار، ومؤسس دولة البوسعيد، وقدم عرب ساحل عهان مساعدتهم لعهان، عما أدى إلى انهيار السلطة الفارسية، واختيار أحمد بن سعيد إماماً على البلاد، وتأسيس أسرة البوسعيد التي ما زالت تحكم عهان حتى اليوم.

ثانياً: بداية ظهور الوحدات السياسية في شرق الجزيرة العربية

بعد هدم النفوذ البرتغالي في البحار العربية، ساد الأمن والسلام ساحل الخليج، وعاصر ذلك تحركات قوى قبلية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأهمها جماعات العتوب من قبيلة عنزة، ارتحلت من موطنها في نجد، وانتهى بها المطاف بجوار كوت (حصن) بني خالد الذين كانوا من أكبر القبائل العربية وأوسعها ثراء في المنطقة من الاحساء حتى رأس الخليج. وقد أخذ العتوب يحلون بالتدريج محل بني خالد على سواحل اقليم الاحساء، وبدأ فرع منهم يستقر في أرض الكويت بزعامة آل

الصباح، وبدأت فروع أخرى بـزعامـة آل خليفة والجـلاهمة تمتـد بعدئذ إلى قـطر والزبـارة (١٧٦٦) والبحرين (١٧٨٣). كما أتاح اغتيال نادر شاه (١٧٤٧) الفرصة لانتقال نشاط القوى العربية من ساحل عمان إلى السواحل الشرقية للخليج.

ومنذ قيام حكم البوسعيد، انفصل القسم الشالي من ساحل عان عن تبعية مسقط، وظهرت فيه قوى بحرية منها قوة كبيرة في رأس الخيمة (١٧٤٩) بزعامة قبيلة القواسم، امتد سلطانها من رأس مسندم شمالاً إلى الشارقة جنوباً. كما ظهرت قوة برية على شكل حلف تزعمه بنو ياس الذين امتدت منازلهم من جنوب شبه جزيرة قطر حتى دبي. وقد شهد القواسم التنافس الاستعاري بين انكلترا وفرنسا وهولندا، وتعاظمت قوتهم حتى سيطروا على الملاحة التجارية في الخليج العربي، واتسع مجال عملياتهم فوصلوا إلى البحر الأحمر وسواحل افريقيا الشرقية والهند. وأخذوا رسوم المحرور من السفن الأوروبية أحياناً. واستهدف نشاط القواسم البحري الوقوف ضد القوى الاستعارية والحيلولة دون ارتيادها مناطق النفوذ العربية ومنعها من منافسة العرب في حياتهم وأرزاقهم.

وقد اتبح لفارس في عهد نادر شاه أن تحتل البحرين عام ١٧٣٧، واستغل إمام عمان سيف بن سلطان الاضطراب الناشىء عن ذلك، فهاجم البحرين واحتلها عام ١٧٣٨، وحين استرجعت فارس البحرين في العام التالي أدركت أن حكمها لن

يستتب إلا بتولية حاكم عربي عليها، فعينت آل مذكور من عرب المطاريش حكاماً على البحرين، وظلت كلمة هؤلاء نافذة هناك حتى عام ١٧٨٢، حين استخلص العتوب السيادة على البحرين من عرب المطاريش الذين لم يكن للشاه سوف نفوذ اسمي عليهم.

۱ ۔ عُمان

وفي عبان توفي الإمام أحمد بن سعيد (١٩٨١هـ/١٧٨٣م) بعد أربعين عاماً تقريباً من الحكم الصالح والسيرة الحسنة، وتولى بعده ابنه الإمام سعيد بن أحمد فأثار نقمة أهل عبان بسبب ضعفه وجشعه وتحيزه للهناوية الأباضية (اليبانية) ضد الغفارية السنية (العدنانية). (ينسب الهناوية إلى زعيمهم خلف بن مبارك الهنائي وهو يماني، كما ينسب الغافرية إلى زعيهم محمد بن ناصر الغافري وهو عدناني).

ومنذ عام ١٧٨٩، استقل أحمد بن سعيد، حاكم مسقط، بالساحل عن أبيه البذي بقي إماماً في الرستاق، فصار الحكم في عهان موزعاً بين سلطنة مسقط الساحلية، وإمامة عهان الداخلية. ويعتبر الإمام سعيد بن أحمد وأبوه أحمد بن سعيد الحاكمين الموحيدين من أسرة البوسعيد البذين اتخذا لقب (الإمام)، والحكام الذين توالوا بعدهما اتخذوا لقب (السيد) أو (السلطان). ولما توفي الإمام سعيد بن أحمد عام ١٨٢١ شغر مقعد الإمامة، إلى أن

شغله عزان بن قيس لفترة قصيرة بعد انتخابه إماماً عام ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨م. وفي غضون ذلك ظل حكام مسقط أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، ولكنهم لم يتمكنوا من توحيد قبائل عمان تحت رايتهم، لأن اعتبادهم على القبائل الهناوية أثار ضدهم القبائل الخافرية، وزاد من حدة الخلاف انضهام معظم القبائل الغافرية إلى القوات السعودية التي غزت عمان واحتلت واحمة البريمي (١٨٠٠) واتخذتها قاعدة لعملياتها الحربية في عمان، ومركزاً لبسط سيطرتها الادارية المعنوية على قبائل المنطقة، وعلى هذا النحو ارتبطت قبيلة القواسم القوية بدائرة الولاء السعودي، وكان السيد سلطان بن أحمد بن سعيد قد تولى السلطنة في مسقط بعد وفاة أخيه حمــد (١٢٠٦هـ/١٧٩٢م)، ولم يعترف بسيــادة الإمامــة عليه، وشَغل بتطوير القوة البحرية والسفن التجارية لعمان، وامتدت سلطته على جزيرتي قشم وهرمـز وعدد من المـوان، على الساحل الشرقي للخليج حتى الحدود الباكستانية الحالية. ولكنه اغتيل في طريق عودته من البصرة حتى استنجد بوالي بغداد العثماني ضد الهجمات السعودية المدعومة من القواسم. وخلفه بدر بن سيف الدين الذي اعتنق الدعوة السلفية ومال إلى السياسة السعودية، فشارت عليه أسرته وقتل على يد سعيد بن سلطان (١٢٢١هـ/١٨٠٦م)، الذي تولى حكم عمان فترة تزيد على خمسين عامـاً. وامتلك اسطولًا تجـارياً وحـربياً قـوياً، لا يفـوقه في القوة إلَّا الأسطول البريطاني، واستمرت المواجهة بينه وبين الدولـة

السعودية، حتى سقوط عاصمتها الدرعية على يــد والي مصر محمد علي باشا (١٢٣٣هـ/١٨١٨م).

وعلى الصعيد الدولي، شهدت عمان اشتداد المسافسة البريطانية . الفرنسية على التجارة والمستعمرات في المحيط الهندى والسواحل المطلة عليه، ولاسيها بعد نزول الحملة الفرنسيـة بقيادة نابليون بونابرت في مصر (١٧٩٨) ومحاولة فرنسا استعادة ما فقدته من المستعمرات في الشرق، ولاسيها الهند. ولكن بريطانيا نجحت في إحباط المساعي الفرنسية حين عقدت معاهدة مع سلطان مسقط عام ١٧٩٨، تعتبر أول معاهدة تبرمها بريطانيا مع امارات الخليج، كها تعتبر نقطة تحول في علاقة بريطانيا بمنطقة الخليج، إذ تطورت من علاقة تجارية إلى علاقة سياسية، تحرص على ابعاد أي نفوذ أجنبي عن منطقة الخليج، وتلزم عهان بالوقوف إلى جانب السفن البريطانية ضد السفن الفرنسية في مياه عمان الاقليمية، وتمنع الفرنسيين من تأسيس أي وكالمة لهم في عمان. واستغلت بريطانيا ظروف فرنسا السيئة بعد تدمير اسطولها في أبي قبر، فضغطت على سلطان مسقط سياسيأ واقتصادياً لتوقيع معاهدة عام ١٨٠٠، التي احكمت قبضة بريطانيا على عمان، بتعيين أول وكيل سياسي بريطاني في مسقط، وبذلك كانت عمان أول وحدة سياسية تكبل بقيود الاستعمار البريطاني الذي مدّ سيطرته على امارات ومشيخات الخليج العربي تدريجياً في القرن التاسع عشر.

وكان تغيب السيد سعيد بن سلطان في زنجبار، وانصرافه إلى

تعزيز سلطاته على أملاكه في شرق افريقيا، قد أتاح الفرصة لنشوب حركات عصيان ضده، من جانب القبائل، وبعض أقاربه حكام الأقاليم، فكان يضطر للعودة إلى مسقط لمعالجتها، كما أدى إلى ضعف سلطة الحكومة المركزية في مسقط على عمان الداخل ذات الطبيعة الجبلية المنيعة. وظل التوتر يسود علاقات السيد سعيد بفارس، وكان لموقف بريطانيا السلبي تجاه النزاع العماني الفارسي، رغم روابط الصداقة والتحالف التي تربطها بمسقط، أن فقدت هذه ميناء بندر عباس، ولم يبق لها عملى الساحل الشرقي للخليج سوى ميناء غوادور.

ومنذ عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م ترك سعيد لولده الأكبر ثويني إدارة مسقط وتوابعها، وتنازل عام ١٨٥٤ لبريطانيا دون مقابل عن جزر قورية مورية الواقعة قرب الساحل الشرقي لعهان. وفي أواخر أيام سعيد، عين ابنه الثاني ماجداً لحكم زنجبار. وبعد وفاته، سعت بريطانيا إلى فرض التجزئة على البلاد، وانتهزت فرصة نزاع الأخوين على إرث أبيها، وصدر حكمها (١٨٦١) بإقامة سلطتين منفصلتين: إحداهما في مسقط، وتتبعها عهان ونواحيها في الخليج العربي، والشانية في زنجبار وتتبعها ممتلكاتها العربية على ساحل افريقيا الشرقي، على أن يدفع سلطان زنجبار على إلى سلطان مسقط تعويضاً سنوياً عن رجحان ايرادات زنجبار على ايرادات مسقط. وقد انعكس انفصال زنجبار الغنية بمفعول سلبي على الوضع الاقتصادي في عهان، وانتزع منها جزءاً كبيراً من

أسطولها الـذي كانت تستخـدمه لأغـراض الحرب والتجـارة. وفي العام التالي (١٨٦٢) اتفقت بريطانيا وفرنســا على ضــــان استقلالُ السلطنتين وتمامية أراضيهها، واستغلت بريطانيـا الاتفاقيـة لمنــع التغلغل الفرنسي والعثماني في عمان. وبعد أن قتل سالم أباه ثـوينى وتــولى مكـانــه في مسقط (١٨٦٦) اشتــد سخط أهـــالي عــان، واستنكروا الطريقة التي أوصلت سالمًا إلى الحكم، وانتقدوا إهماله لشؤون عمان، وتركيـز اهتهامـه لاستعادة أمـلاك أسرته في أفـريقيا الشرقية، وزاد من خطورة الـوضع تفاقم النزاع بـين الغـافـريـة والهناوية، بحيث اتسمت الفترة التي انقضت بـين مقتـل ثـويني وتـولي ابنه تـركي الحكم عام ١٨٧١ بـالاضطرابـات الــداخليـة. وعندئذ رأى أهل عيان الداخل، ولاسيها من العلماء ورجال المدين، أن بعث الإمامة مجدداً هـو سبيـل الحروج من الأزمـة، وبويع عزان بن قيس بالإمامة، وهـو زعيم الفرع الثـاني من أسرة البوسعيد الذي التجأ إلى معقل الرستاق، وثار باسم عمان الداخل، وأعلن انفصاله عن مسقط لخروج حكامها على التعـاليم الدينية، ولأن فيها أموراً يستنكرها الأباضيون، بينها تعتبر مقبولة في مسقط، نتيجة اتصالها بالهنـد وبالغـرب. في اعتقـاده، سقط الساحل لأن السلطان هادن الانكليز، وتعاون معهم في حملاتهم الرامية في الظاهر للقضاء على تجارة الرقيق وتهـريب السلاح، وفي الواقع لانتقاص سيادة عيان واستقلالها. بعد أن صيار لبريطانيا حق تفتيش سفن عمان وتعقبها إلى الموانىء العمانية.

لم تعترف بريطانيا بنظام الإمامة الجديـد لأنه يكـره الأجانب والنفوذ الأجنبي، ويرفض إجراءات منع تجارة الرقيق، لأن النظام الاجتهاعي والاقتصادي ارتبط ارتبـاطاً وثيقـاً بالـرقيق، إضافـة إلىّ أنها شعرت أن بعث الإمامة لم يكن مجرد تحويل السلطة إلى شخص آخر، بل كان ثورة على الأوضاع السائدة في عمان، ويقظة قومية في خدمة مصالح الشعب، وبخاصة بعد أن صادرت الإمامة أموال أفراد أسرة البوسعيد الـذين لم يناصروهـا، فوضعت في بيت المال للانفاق منها على حاجات الناس. ولذا اتخذت بريطانيا خطوة أدت إلى انهيار الإمامة مباشرة، وذلك حين سهّلت عودة تركى بن سعيد من منفاه في الهند (١٨٦٩)، مقابل تخليه عن استرداد زنجبار، فتمكن من استهالة الغافرية في السبريمي، وواجه الإسام الذي مني بهزائم عديدة نتيجة انفضاض بعض حلفائه من حوله، وفي إحدى المعارك اندفع الإمام للقتال فأصيب وقتل أوائـل عام ١٨٧٠، وبمقتله، استسلمت مسقط ومطرح، وانهارت الإمامة بعد أن مضى على قيامها عامان وبضعة أشهر. واعترفت بريطانيا بتركى بن سعيد سلطاناً على مسقط، ولكن لم تفتر في عهده الاضطرابات والشورات، ولولا المساندة البريطانية لأطيح به. كذلك اضَّطرتُ بريطًانيا لدفع المعونة التي كانت تتلقاها مسقط من زنجبار، بعد أن وقع السيد برغش سلطان زنجبار معاهدة جـديدة تحرّم تجارة الرقيق تماماً، نظير اعفائه من دفع المعونـة إلى مسقط. وفرضت بريطانيا على فيصل بن تركي الذي نصبته مكان أبيـه عام ١٨٨٨، معاهدة جديدة (١٨٩١) تعهـد فيها ألّا يبيـع أو يرهن أو يهب أي جزء من أراضيه في مسقط وعهان وملحقاتهما لغير الحكومة البريطانية، وربط بهذا التعهد نفسه وورثته وخلفاءه.

وفي عـام ١٨٩٥ أحرزت قـوات عهان الـداخل انتصــاراً على السلطان فيصل، واحتدمت المعركة في مسقط نفسها، وتم الصلح بعد دفع مبلغ من المال لزعيم شيوخ عمان الداخل. وسارعت بريطانيا لاستغلال ذلك وفرض معاهدة دفاعية مع السلطان عام ١٨٩٨. ورغب السلطان في موازنة النفوذ البريطاني باستغلال التنافس الذي اشتد بين فرنسا وبريطانيا ما بـين ١٨٩٤ و١٩٠٤، فتودد إلى الفرنسيين ومنحهم حق إقامة محطة فحم قـرب مسقط، فاعترض الانكليـز لأن ذلك يتنـافى مع اتفـاقية (١٨٩١). وأذعن السلطان للتهديد، وسويت المسألة حين سمح الانكليز للفرنسيين بالتزود بالفحم من محطاتهم في المكلُّا بحضرموت. كسم فسرضت بريطانيا على السلطان ألا يمنح امتياز استثمار حقول الفحم في صحار إلى أية شركة أو دولة أخرى دون موافقة بريطانيا. وفي عام ١٩١٣ تم الاتفاق بين الغافرية والهناوية على اختيار سالم بن راشد الخروصي إماماً في عمان الداخل، ونشب النزاع المسلح بين قــوات السلطان وقوات الإمامة التي أوشكت أن تستولي عملي مسقط لولا أن دافعت عنها امدادات هندية كبيرة، وانتهى النزاع بسوقيع معاهدة سلام في بلدة (السيب) عام ١٩٢٠. وقد أثارت المعــاهــــة حين بعثت الإمامة مجدداً في الخمسينات، جدلًا حول صحتها ومضمونها إذ أنكرت بريطانيا ارتباطها بالمعاهدة، وقالت إن سلطات مسقط والإمام كانا طرفي المعاهدة التي اقتصرت على تنظيم شؤون التجارة وحركة التنقل بين الداخل والساحل. ولكن أنصار الإمام نشروا نص المعاهدة وذكروا بأنها معاهدة سياسية تعني اعتراف سلطان مسقط والحكومة البريطانية بسيادة الإمام واستقلاله عن مسقط، وذلك نظير تعهد الإمام محمد بن عبدالله الخليلي باحترام سلطنة مسقط ضمن الحدود التي رسمت لها.

۲ ـ مشیخات ساحل عهان

في أواخر النصف الثاني من القرن الشامن عشر، اشتد أزر قبائل ساحل عبان بانتبائها إلى الدولة السعودية، بعد انفصال ساحل عبان عن مسقط، واستطاعت أن تبني قوة بحرية خاصة بها، وحلفاً قبلياً كبيراً بزعامة القواسم. وفي نهاية القرن نفسه، تصاعد نشاطهم ضد السفن التجارية المارة نجياه الخليج، سواء أكانت تابعة لمسقط أم للبحرين. وكان هذا النوع من النشاط البحري معروفاً وقتذاك كوسيلة شرعية من وسائل العلاقات بين اللول التجارية غير المتعارفة. وقد أطلق الإنكليز على هذا النشاط المرافق بين المقطاء على ساحل عبان اسم (ساحل القرصنة) وبعد القضاء على نابليون، حملوا مؤتمر فيينا (١٨١٥) على إقرار بند بمكافحة القرصنة في جميع بحار العالم.

واتسع نطاق عمليات القواسم، فتعرضوا لسفن شركة الهند الشرقية الانكليزية في محاولة لردعها عن احتكار تجارة الخليج

وحدها. وقد ثبت أن ممثلي الشركة كانوا يتذمرون من منافسة التجار العرب لهم، لذلك استغلت بريطانيا هذا البند لتضرب النشاط البحري العربي تارة باسم مكافحة (القرصنة)، وتارة باسم مكافحة تجارة الرقيق، ووجهت ضربة إلى القواسم في رأس الخيمة عام ١٨٠٩ بمشاركة من سلطان مسقط. وتوقف النشاط البحري للقواسم ثلاثة أعوام، ليعود مجدداً في وقت رزحت فيه الدولة السعودية تحت وطأة الحملة المصرية (١٨١١ - ١٨١٨)، وليتسع فيشمل السفن الانكليزية في المحيط الهندي.

وفي هذه المرحلة الدقيقة، تفكك حلف القواسم وحلف بني ياس إلى مشيخات صغيرة تمتد على طول ساحل عهان. ويبدو أن السياسة البريطانية كانت عاملاً أساسياً من عوامل انهيار الحلفين وتجزئتها إلى كيانات صغيرة ضعيفة يسهل ربطها بعجلة الاستعهار البريطاني. إضافة إلى التدخل السعودي الذي حرص حينذاك على الا يدخل في صراع مع الانكليز بسبب مهاجمة القواسم لسفنهم، مثل حرصه على ابعاد الدعم الانكليزي لسلطان مسقط، خصم مثل حرصه على ابعاد الدعم الانكليزي لسلطان مسقط، خصم المسارقة، بينها استقلت فروع أخرى من القواسم وغيرهم في الشارقة، بينها استقلت فروع أخرى من القواسم وغيرهم في موانء رأس الخيمة وأم القيوين والعجهان ودبي وأبو ظبي والفجيرة، مكونة مشيخات جديدة على ساحل عهان.

واستغلت بريطانيا سقوط الدولة السعودية عـلى يد محمـد علي (١٨١٨) فوجهت ضربة قاصمة لنشاط القواسم عـام ١٨١٩ على

إثر الغارة الناجحة التي شنها هؤلاء على السفن الانكليزية قبل عام تقريباً. وقصفت سفَّن الحملة التي شارك فيها سلطان مسقط، ميناء رأس الخيمة، وبعد صمود القواسم شهرين، اضطر كبيرهم لتوقيع (معاهدة الصلح العامة) في مطلع عام ١٨٢٠، وانضم إليها شيوخ ساحل عمان وأميرا جزر البحرين، وتسجل هذه المعاهدة المرحلة الثانية في تأكيد النفوذ البريطاني في الخليج، كما تعتبر الأساس الذي قامت عليه سياسة التجزئة في منطقة ساحل عهان. وقد نصت أهم بنودها على امتناع العرب عن أعهال السلب و (القرصنة)، في البر والبحر، والالتزام برفع السفن العربية علم السلام (أبيض في وسطه مربع أحمر)، وحمل سجل باسم مالك السفينة وأسماء بحارتها، لإبرازه إلى السفن البريطانية المكلفة بالمراقبة، كما نصّت على حظر نقل الرقيق من افريقيا الشرقية فوق المراكب التجارية. وبعد أن عارضت بريطانيا تقدم القوات المصرية إلى ساحل عمان والبحرين، وقفت في وجه الدولة السعودية الثانية حين حاولت مدّ نفوذها إلى ساحل عان (١٨٤٢)، كما عارضت بريطانيا المحالفات التي كانت تعقدها مشيخات ساحل عمان فيها بينها، كما حدث حين فكت التحالف بين مشيختي عجمان وأم القيـوين. وتجـددت المعــاهـدات مــع مشيخات ساحـل عمان بصفـة دورية، وفي ربيـع ١٨٤٣، أبرمت معها بريطانيا معاهدة أخـري مدتهـا ١٠ سنوات تنص عـلي تحريم أي نشاط عربي مسلح، تحت طائلة فرض العقوبة من جانب المقيم البريطاني العام في الخليج. وما زالت بريطانيا تستخدم

الترغيب والترهيب، وتضخيم مطامع القوى المجاورة لدفع الشيوخ إلى توقيع معاهدة الصلح الدائمة لفرض سيطرتها على نواحيهم، وضيان اشراف أقوى على شؤونهم، حتى استجاب هؤلاء للضغوط، ووقعوا المعاهدة عام ١٨٥٣. وأفهمتهم بريطانيا أن ارتباطهم بها يرمي إلى حمايتهم من أطباع الدول المجاورة الكبرى كالدولة السعودية الثانية التي سيطرت مجدداً على الاحساء والبرعي، وكان بمقدورها في عهد فيصل بن تركي (المتوفى عام المثيخات بأن تحديض بريطانيا للمشيخات بأن يحتموا بمعاهداتهم معها.

والتفتت بريطانيا لإحكام سيطرتها على ساحل عمان، فدفعت شيوخ أبو ظبي والشارقة ودبي وعجهان وأم القيوين ورأس الخيمة إلى توقيع اتفاقات الانفرادية أو المانعة، لأنها تمنع وجود أي نفوذ غير النفوذ البريطاني في المنطقة، وقد تعهدوا فيها بما يلى:

١ ـ ألا يوقع الشيوخ أية اتفاقيات أو يـدخلوا في أية عـلاقات
 مع دولة أجنبية سوى بريطانيا.

٢ ـ ألا يسمحوا لوكيل أية دولة أخرى بالبقاء في أراضيهم،
 دون موافقة مسبقة من بريطانيا.

٣ ـ ألا يمنحوا أي جزء من أراضيهم ، سواء عن طريق البيع أم الإيجار أم الرهن أم التنازل لأية دولة أو رعاياها سوى بريطانيا.

وحظرت بريطانيا استيراد الأسلحة على الشيوخ المذكورين (١٩٠٢)، وبذلك نجحت في إضعافهم، بعد أن حرمتهم من الاستقلال والسيادة، ثم ضمنت سيطرتها الفعالة على عهان ومواردها، فأرغمت السلطان في العام نفسه على عدم منح امتياز استثهار حقول الفحم إلى أية شركة أو دولة أجنبية دون موافقة بريطانيا، كما أرغمت شيوخ ساحل عهان على عدم اعطاء امتياز استغلال النفط، في حال العثور عليه، إلا لمن تعينه الحكومة البريطانية (١٩٢٢).

۳ ۔ قطر

أما قطر فقد ظهر حكامها من آل ثاني في أوائل القرن الثامن عشر. وثاني هو جد الأسرة الحاكمة، من بني تميم، نزحوا من موطنهم في منطقة الوشم النجدية، ونزلوا في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة قطر، ثم استقروا في الزبارة حيث ولد جد الأسرة ثاني، ثم ابنه محمد الذي استوطن الدوحة، وكان تابعاً لأل خليفة حكام البحرين وقطر وقتذاك.

ولما حاول محمد بن ثاني الانفصال عن حكم آل خليفة والاستقلال بحكم قطر، نشبت الحرب بينه وبين آل خليفة، ثم توقفت بسبب عودة العثمانيين إلى قطر عام ١٢٨٨هـ/١٨٧٢م ولكن ابنه الشيخ قاسم نجح في توحيد قطر والاستقلال عن البحرين تحت سيادة الدولة العثمانية. بل إنه، بعد أن قضى على

خصومه في الداخل، وواجه الانكليز والعثمانيين، أوشك أن يستولي على جزر البحرين نفسها. وبعد وفاته، تولى الإمارة ابنه الشيخ عبدالله (١٣٣١هـ/١٩٩٩م) فحكم البلاد ٣٦ عاماً حتى الشيخ عبدالله (١٩٤٩م). وخلال حكمه الطويل، فقدت قطر استقلالها ورزحت تحت الحاية البريطانية، ذلك أن الدولة العثمانية تنازلت لبريطانيا عن كل ما ما لها من حقوق ومطالب في قطر، بموجب اتفاقية الخليج التي وقعتها مع بريطانيا (١٩١٣)، وأعلنت بريطانيا من جانبها أنها لن تسمح لشيخ البحرين بالتدخل في شؤون قطر الداخلية، والمساس باستقلالها. ومعلوم أن أحداث الحرب العالمية الأولى لم تسقط هذه المعاهدة، بل إن بريطانيا عقدت عام ١٩١٦ معاهدة شددت فيها السيطرة على قطر.

٤ ـ البحرين

أما البحرين، فبعد أن استتب فيها الحكم لآل خليفة، أصبحت هدفاً لأطهاع القوى السياسية المحلية المؤثرة في الخليج، سواء أكانت صادرة عن دول كفارس أم الدولة السعودية أم عهان. ومعلوم أن معاهدة السلام العامة التي وقعها في مطلع عام ١٨٢٠ كبير القواسم، انضم إليها شيوخ ساحل عهان وشيخا البحرين. ولا حاجة إلى القول إن من مبررات دخول شيخي البحرين في المعاهدة هو الخوف من نوايا سلطان مسقط السيد الذي كان يتربص بالبحرين لاحتلالها وطرد آل خليفة منها.

ذلك أن انضهام البحرين إلى المعاهدة يتضمن اعترافاً باستقلال الأطراف الموقعة عليها، ومنها البحرين، وتالياً تنتفي دعاوى سلطان مسقط بالبحرين، وفي حال اعتدائه على سفن تابعة لها، يصبح عرضة للعقوبة المنصوص عليها في المعاهدة العامة. والأمر نفسه ينطبق على دعاوى وأطهاع فارس. وقد حرصت بريطانيا على أن تبدو في نظر شيوخ البحرين القوة الوحيدة التي بمقدورها ردع أطهاع جيرانهم، مع التظاهر بأنها لا تحاول النيل من استقلالهم، الأمر الذي دفع شيخي البحرين إلى الاحتهاء ببريطانيا، وقد كلف ذلك عقد المزيد من المعاهدات غير المتكافئة التي ربطت البحرين ببريطانيا.

ولكن المنافسة بين أفراد العائلة الحاكمة في البحرين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت السبب المباشر الذي اتاح لبريطانيا فرص التدخل في شؤون الجزر، والحد من استقلال حكامها. وفضلاً عن أن هذا الحلاف بين شيوخ آل خليفة أفسح المجال لتدخل الدول المجاورة التي طالما سعت لاحتلال البحرين بالسبل العسكرية أو السياسية. وتذرعت بريطانيا بالمعاهدات التي عقدتها مع البحرين لتمنع القوى الأخرى في الخليج من الاستيلاء عليها، كسلطنة عمان في عهد السيد سعيد، والدولة السعودية في غتلف مراحلها، ومصر محمد علي حتى عام ١٨٣٩، والدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفارس حتى ناهية الستينات من القرن الخالي نفسه، في العشرينات من القرن الحالي نفسه، في العشرينات من القرن الحالي

وما بعدها حتى اعترافها باستقىلال البحرين. وقرنت بريطانيا التهديد والاحتجاج بمارسة سياسة للقوة والقهر، ولم تـتردد باستخدام بوارجها الحربية في كثير من الأحيان.

وعندما توفي الشيخ سلمان عام ١٨٢٥ تولى الحكم ابنه الشيخ خليفة بالاشتراك مع عمه المسن الشيخ عبدالله. وفي عام ١٨٤٣ مات خليفة تاركاً عبدالله كحاكم فرد تميز عهده بتمرد أولاده الثلاثة عليه، واستعانته بمحمد بن خليفة، الذي رفض أن ينفرد عمه بالسلطة كلها، وأسفر النزاع عن هزيمة عبدالله، ثم وفاته عام ١٨٤٨. وإثر ذلك اتسع الخلاف العائلي، إذ قام أولاد عبدالله الثلاثة يطالبون بكرسي الإمارة. ويظهر أن تولي محمد بن خليفة الحكم قد سبّب انقسام آل خليفة إلى قسمين متخاصمين، وأتاح لبريطانيا فرض السيطرة على البحرين. واستعان كل من القسمين بالقوى الخارجية الاقليمية في الخليج وهي السعودية، وفارس وبريطانيا والدولة العثمانية.

ولم تلبث بريطانيا أن اتخذت إجراء حاسماً يحول دون اتصال البحرين بفارس أو الدولة العثمانية أو سواها، حين أعلنت في ١٨٦١ بأنها تعتبر البحرين إمارة مستقلة، وتوجه المقيم البريطاني من مقره في بوشهر إلى ميناء المنامة في البحرين وضرب عليه الحصار، وفرض على الشيخ محمد بن خليفة معاهدة وقعها في ظل التهديد، مع أنها تحكم القيد على بلاده وتحد من حريته في الاتصال بجيرانه، وتتعهد فيها بريطانيا بحمايته من العدوان

الخارجي. ومع أن هذه المعاهدة قد نصت على الاعتراف بالشيخ (حاكماً مستقلًا) فقد هبطت بالبحرين إلى منزلة المحميات. وقد استاء شيخ البحرين من تقييد حرية تصرف، وفرض نظام الامتيازات القضائية والاقتصادية على بلاده، وكذلك مال إلى تحدي سياسة القوى التي استخدمت ضده، وتمسك بمظاهر استقلاله في علاقاته مع جيرانه، على كره من بريطانيا التي راحت تحكم سيطرتها على البحرين مستغلة مشكلة قطر.

فقد ساءت علاقات الشيخ محمد بن خليفة مع الانكليز، بسبب مطالبته باعتبار شبه جزيرة قطر داخلة ضمن أملاكه، ما دام معظم سكانها من العتوب. وحدث أن اشتد عامله في قطر على الأهالي، فثاروا ضده وطردوه. فأجاب الشيخ محمد باعتقال على بن تامر زعيم قبيلة النعيم التي قادت الشورة وألقاه في سجن البحرين. ورفض انذاراً قدمه الشيخ قاسم بن ثاني أحد زعياء قطر، لعزل عامله وإطلاق سراح علي بن تامر، وإعلان استقلال قطر إدارياً عن البحرين، وإلا فأهالي قطر سيخلعون طاعته، ويطلبون المعونة من فيصل بن تركي في الرياض، فكان رد الشيخ محمد هو ارسال أخيه على رأس حملة ضد قطر، تقدمت نحو الدوحة في غفلة من أهلها (١٨٦٦)، وأعملت السيف في المدينة بالمدافع ثم عادت إلى البحرين، ورحلت قبيلة النعيم عن قطر خشية البطش بها.

وفي العام التالي أعلن أهالي قطر الثورة مجدداً، فبعث الشيخ

عمد أناه علياً إلى بوشهر، ليطلب مساعدة المقيم البريطاني وقمع النورة حسب اتفاقية ١٨٦١. ولكن بريطانيا رفضت تقديم المساعدة المطلوبة، لأن سياستها تقوم على فصل قطر عن البحرين. ولذا بادر الشيخ محمد إلى مهاجمة قطر، لاسيها بعد أن بلغه أن قاسم بن ثاني يسعى للحصول على مساعدة السعوديين. وحين توجه قاسم إلى البحرين، لاسترضاء حاكمها، ألقى القبض عليه، فهاج أهالي قطر وعزموا على غزو البحرين، والتقى الجمعان في موقعة (دامسة) وأسفرت عن نصر البحرين. وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول في علاقات قطر بالبحرين من ناحية، ومن ناحية أخرى تعتبر تدعياً للسيطرة البريطانية على البحرين، وعلى قطر، التي استقلت منذئذ عن البحرين.

استغل المقيم البريطاني (بيلي Pelly) هذه الاضطرابات ليفرض مزيداً من القيود على البحرين، ويبدو أن بريطانيا استاءت من نمو قوة أسطول البحرين الذي تمكّن من فرض هيمنته على الموانىء السعودية في الاحساء والقطيف، وخشيت أن يتجه لتهديد نفوذها في مشيخات ساحل عان، ولذا فقد توجه (بيلي) إلى البحرين على رأس ثلاث بوارج حربية، فها كان من الشيخ محمد الإ أن سارع إلى قطر للتفاوض على وقف القتال، وفوض أخاه علياً بمقابلة المقيم البريطاني ومصالحته، ولكن (بيلي) أمر بمحاصرة قلعة أبي ماهر في جزيرة المحرق، وأمر بقصفها وإحراق أسطول البحرين الشراعي، وطلب من الشيخ علي أن يتولى الحكم بدل

أخيه محمد الذي سقطت ولايته بخرقه اتفاقية ١٨٦١، ولم يرفع الحصار عن البحرين إلا بعد أن وقع الحاكم الجديد اتفاقية أيلول/سبتمبر ١٨٦٨، وشارك في توقيعها وجهاء البلاد.

وبهذه الاتفاقية، كشفت بريطانيا عن نبواياها في التدخل السافر بشؤون البحرين المداخلية، وزعمت لنفسها حق عزل وتنصيب حكام البحرين لأول مرة، كها جعلت من نفسها حكها وطرفاً في المنازعات العائلية، وأفهمت الحاكم الجديد أن بقاءه في الحكم رهن مشيئتها. ثم تذرعت بعدئذ بأحداث رافقت مساعي عمد بن خليفة لاسترداد حكم البحرين من أخيه علي، وقتل فيها هذا، ولكن أخاه محمداً لم يلبث أن أطاح به مناصروه من آل عبدالله عن أبيه، ونصبوا كبيرهم محمد بن عبدالله، وسجنوا عمد بن خليفة في قلعة أبي ماهر.

ولجأ أبناء علي ومحمد بن خليفة إلى قطر حيث طلبوا من المقيم البريطاني أن يتدخل لفض النزاع بالقوة. ولذا انطلق (بلي) من بوشهر وقصف مدينتي المنامة والمحرق، ثم أنزل جنوده في البحرين لأول مرة في تاريخها، واعتقلوا جميع المناوثين للسيادة البريطانية ونفوهم إلى بومباي، ومنهم الشيخ محمد بن خليفة، والحاكم محمد بن عبدالله، وتوفي الأول في منفاه بعدن، والثاني في منفاه بالهند. وتقرر انتخاب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، وكان قد فر إلى قطر بعد مقتل والده، فاستدعي من هناك ونصب حاكماً على البحرين عام ١٨٧٠.

سجل هذا التدخل العسكري البريطاني في شؤون البحرين بداية وضع جديد، تحرك بعده الانكليز في العقدين التاليين لإكمال سيطرتهم على البلاد، وقد شهد عهد الشيخ عيسى توثق العلاقات بينه وبين بريطانيا طوعاً أو كرهاً، على نحو أصبحت معه الكلمة العليا لها في شتى النواحي الخارجية والداخلية، وبخاصة بعمد ظهور النفوذ العشهاني مجدداً في الاحسـاء، والنوايــا العثمانيــة في مدّ سيطرتها على الكويت والبحرين وقطر بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وانزعجت بريطانيا حين شرع العثمانيــون في بناء قلعــة في ميناء الزبارة المواجهة للبحرين، فأوعزت إلى الشيخ عيسي للاحتجاج ضد عمل يقع ضمن أملاكه ويتنافى مع استقلاله. وفي الوقت نفسه أرسلت بريطانيا تهدّد الاستانة بالتدخل لحماية (استقلال) البحرين. فتوقف العمل في الميناء، ولكن استمرت محاولات العثمانيين ضد البحرين، وتمثلت في تحريض قبيلة بني هاجر على غزو جزر البحرين، وردت بريطانيا بتقوية قبضتها عـلى الجزر، ومساندة شيخها ضد بني هاجر، ثم باستغلال التحركات العثمانية لفرض اتفاقية جديدة تربط البحرين نهائياً ببريطانيا. ونصت الاتفاقية على عدم دخول أمير البحرين الشيخ عيسي في مفاوضات أو اتفاقات مع أية حكومة أخرى بغير موافقة بريطانيا، ومنع أية حكـومة أخــرى من إقامــة تمثيل دبلومـاسي أو قنصلي، أو إنشاء مستودعات لوقود السفن في ممتلكات أمير البحرين دون ترخيص من بريطانيا. وفي عام ١٨٩٢، فرضت التزامات جـديدة عـلى البحرين، وهي عـدم جواز بيـع أو رهن أو السـاح بـاحتلال جزء من أراضي البحرين لأية دولة سوى بريطانيا.

ولكن الحكومة العثانية ادعت بعد فرض معاهدة الحماية لعام ١٨٩٢، أن أهالي البحرين هم رعايا عشمانيون يعيشمون في الأراضي العثمانية، وعارضت تولي بريطانيا النظر في قضايا رعايا البحرين الذين يتعرضون لاعتداءات بحرية. وردّت بريطانيا بـأن جزرِ البحرين مشيخة تحت الحماية البريـطانية، وبعـد فترة وضعت حداً للدعاوى العثهانية في البحرين حين أبرمت اتفاقية الخليج مع الدولة العثمانية (١٩١٣)، وبموجب أحد بنودها تخلت الأستانة عن كل دعاويهـا في البحرين، واعـترفت بهيمنة بـريطانيـا على منـطقة الخليج العربي، وعملت بريطانيا على إحكام سيطرتها على البحرين، بعد أن عزلتها عن جميع القوى العربية الاقليمية، كالسعودية التي تعهدت في معاهدة القطيف مع بريطانيا (١٩١٥) بألا تعتدي على امارات الكويت والبحرين وقطر ومشيخات ساحل عمان، مقابل اعتراف بريطانيا بعبد العزيز آل سعود سلطاناً على نجد وملحقاتها. كنذلك أطلقت بريطانيا يـد وكــلائهــا السياسيين في شؤون البحرين الداخلية.

٥ ـ الكويت

وكانت السيطرة على الكويت تمثل آخر مرحلة في المخطط البريطاني لربط منطقة الخليج العربي بعجلته. وقد تحققت عندما

التقت مخاوف بريطانيا من زحف النفوذ الروسي والالماني إلى منطقة الخليج على شكل مشروعات السكك الحديد، مع مخاوف الشيخ مبارك آل الصباح من هجوم جيرانه عليه، وبخاصة آل الرشيد في حائل، بتحريض العثمانيين الذين أغاظهم مقتل الشيخ محمد آل الصباح قائمقام الكويت الموالي لهم على يد أخيه غير الشقيق مبارك، ولكنهم اضطروا لتعيين مبارك مكان أخيه. وبما أن مباركــأ لم يكن مطمئناً للنوايا العثهانية، فقد عقِد اتفاقِية سرية مع بريطانيا (١٨٩٩)، لأنه ما زال يعتبر قائمقاماً تابعاً لمتصرفية الاحساء التابعة لولاية البصرة العثمانية. والاتفاقية هي صورة طبق الأصل تقريباً عن الاتفاقية التي عقدت مع سلطنة مسقط (١٨٩١)، وبـذلك تمكنت بـريطانيـا من احكام النـطاق الذي ضربتـه حـول الخليج العربي ضد محاولات السيطرة العثمانية أو الأجنبية عـلى حد سواء. وفرضت بريطانيا على الكويت حظر استبراد الأسلحة أو تصديرها (١٩٠٠)، وفي ١٩٠٤ عين أول وكيـل سياسي بـريطاني في الكويت، وفي ١٩١١ تعهد مبارك بألّا يعطي امتياز استخراج اللؤلؤ والأسفنج لأية دولة قبل استشارة بريطانيا، كما تعهد عام ١٩١٣ بألًا يعطي امتياز استخراج النفط في بـلاده دون مشـورة بريطانيا. وفي العام نفسه، وقعت بريطانيا اتفاقية الخليج مع الدولة العثمانية التي تنازلت الدولة العثمانية في أحد بنودها عن كـلّ ما لها من حقوق ومطالب في قطر والبحرين. أما بصدد الكويت، فقد نصت على اعتراف الدولة العثمانية بالاتفاقيات التي سبق أن عقدها شيخ الكويت مع بريـطانيا، وهي الاتفـاقيات التي ربـطت الكويت إلى بريطانيا ربطاً محكماً. كها نصّت على بقاء الكويت تحت السيادة العثهانية التي لا تتدخل في شؤون الكويت الداخلية والخارجية. ويرفع شيخ الكويت العلم العثماني، وله، إن شاء، أن يضيف إلى زاويته كلمة (الكويت). وفي عام ١٩١٤ تلقى مبارك تأكيداً من بريطانيا أنها ستعترف بالكويت دولة مستقلة تحت الحهاية البريطانية، شرط أن تعاون في الاستيلاء على البصرة، وقد تم ذلك. كها احتلت بريطانيا الكويت لإحكام الحصار على العثمانيين في حائل والعراق.

وتوفي مبارك (١٩١٥) وخلفه ابنه جابر فحكم عاماً ونصف العام وتوفي ليخلف أخوه سالم الذي ساءت علاقته بالسعودية بسبب مسألة الحدود بين البلدين.

٦ ـ الجنوب اليمني المحتل

يشتمل جنوب الجزيرة العربية الممتد على ساحل البحر العربي من باب المندب غرباً إلى ظفار شرقاً، على المقاطعات والإمارات العربية، وكانت كاليمن نفسها خاضعة للحكم العثماني، مع فارق واحد هو أن تبعية هذه المقاطعات العثمانية كانت تبعية غير مباشرة، لأن العثمانيين اكتفوا بسلطة إسمية لهم على هذه البلاد، عارس شؤونها سلاطينها وشيوخها شبه مستقلين. وقد تعاصر الفتح العثماني الأول في القرن السادس عشر، مع تطلع التجار الانكليز إلى الشرق وتجارته. ومنحت الملكة اليزابث صكاً إلى

شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠، كان الهدف منه اقامة تجارة بريطانية في الهند تنافس التجارة البحرية البرتغالية والهولندية. وبدأت حملات الانكليز تتجه إلى عدن، فتقدمت أول حملة نحوها ونحو البحر الأحمر، ولكنها فشلت في تأسيس وكالة تجارية في جزيرة سقطري، وانسحبت عام ١٦٠٨، وفي السنة التالية وصلت حملة ثانية إلى عدن، ولكن العثمانيين لم يأذنوا لها بتأسيس وكالة تجارية، كما رفضوا أيضاً طلب الهولنديين عام ١٦١٤ لإقامة تجارة في عدن. وتوجب على الهولنديين أن يسحبوا وكالتهم التي كانوا أقاموها سابقاً في الشحر شرق حضرموت، حيث أثمرت جهودهم عام ١٦٦٣ في إرسال أول شحنة من البن إلى هولندا. وظلت هذه التجارة مزدهرة طوال ٨٠ عاماً أغلق الهولنديون في بايتها وكالاتهم.

وأثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت فرنسا أيضاً قد اكتشفت امكانات التجارة العربية في بحر العرب والبحر الأحمر، وأرادت أن تنشىء قواعد ومحطات على طول خط مواصلاتها البحرية مع الشرق الأقصى، حتى إذا كانت حملة نابليون على مصر (١٧٩٨) أدركت بريطانيا موقع عدن الاستراتيجي، فاتجهت نحو جزيرة بريم واحتلتها، ولكن بعد عدة شهور أجبرت على سحب قواتها إلى عدن بسبب نقص الماء. على أن النزاع الذي ثار بين فرنسا وانكلترا حول مصر طوال القرن التاسع عشر، اتسع ليشمل أولاً البحر الأحمر ومضيق باب

المندب، ثم جميع سواحل الجزيرة العربية حتى مضيق هرمز والخليج العربي. لقد أدركت انكلترا أن غرض نابليون من احتلال مصر هو أن يجعلها قاعدة عسكرية للحركات الموجهة نحو الهند، ومن هنا نشأت مساعى انكلترا للقضاء على النفوذ الفرنسي في مصر، وفي سواحل الجزيرة العربية. ومعلوم أن السياسة البريطانية في هذه السواحل كانت تستهدف ضيان سلامة الملاحة والتجارة في البلاد المتصلة بهذه السواحل، عن طريق مكافحة ما أسمته (القرصنة) والسيطرة على السواحل المذكورة، مع الحرص على إبعاد أي نفوذ أوروبي آخر. ومعلوم أيضاً أن انكلتراً عقدت لبلوغ هذه الغاية، سلسلة معاهدات واتفاقيات مع شيوخ ورؤساء السواحل العربية، بـدأتها شركـة الهند الشرقيـة مع سلطان مسقط بمعاهدة عام ١٧٩٨، وعقد الانكليز عام ١٨٠٢ معاهدة تجارية مع سلطان لحج وعـدن، تعهد فيهـا بتسهيل التجـارة البريـطانية وحماية الرعاية البريطانيين، كما خصص منطقة من الميناء لاستعمال سفنها، وأعطى امتيازات أخرى لرعاياها في عــدن، وهكذا اقتصر نشاط الانكليز على الاتجار مع عدن ومحا، وحماية رعاياهم، وضهان تموين سفنهم.

وتنبه الانكليز بعد اختراع السفن البخارية إلى أهمية جنوب غرب الجزيرة العربية، وإقامة محطة تموين لسفنهم، وتذرعوا بنهب مركب كان قد تحطم على الساحل قرب عدن لاحتلالها. وفي البدء، فرضوا على سلطان لحج وعدن دفع ١٢ ألف ريال غرامة

مالية بادر إلى دفع نصفها، وتعهد بدفع النصف الآخر بعد عام، ولكن الانكليز عادوا مرة أخرى وطلبوا تسليم عدن مقابل ٨ آلاف ريال، ولما رفض السلطان هاجم الانكليز عدن واحتلوها بعد ضربها بالقنابل في كانون الثاني/يناير ١٨٣٩، وانسحب السلطان إلى لحبج، ثم اضطر بعد شهر تحت الضغط والارهاب إلى ابرام الصلح والتسليم بالنفوذ البريطاني في عدن بموجب معاهدة عقدها مع الانكليز.

ثم اتجهت جهود الانكليز نحو المناطق المجاورة لعدن بغية توسيع منطقة احتلالها، باذلين الوعود والهدايا والأموال للسلاطين المجاورين، ولكن العـرب في هـــذه المنـاطق لم يسلمـــوا واستمـر نضالهم ضد الانكليز حتى عام ١٨٥٧ حيث غلبوا على أمرهم. وفي سنة ١٨٥٧ استولى الـبريطانيـون على عـدن بأكملهـا وأبعدوا السلطان وقبيلته عنها ليثبتـوا أقدامهم في عـدن ويستخلصوهـا من سلاطين لحج نهائياً. ثم بدأوا سلسلة معاهدات الحمايـة مع سـائر السلاطين والمشايخ في الجنوب العربي من حدود الصبيحة ولحج غرباً حتى حضرموت شرقاً، وذلك كي يجبطوا مساعي العثمانيين في اليمن لضم هذه النواحي إليهم، ولكيلا ترتبط أية ناحية من هذه النواحي الواقعة على طريق الهند بدولة أوروبية أخرى أو دولة شرقية. ومعلوم أن لورد بالمرستون أرسل إلى محمـد عـلي ينـذره بوجود سحب الجنود المصريين من البلاد العربية «إذ لا حق له فيها»، وقد خشي الـبريطانيـون أن تقوم دويلة بـين هـذه المنـاطق فتوحدها، ولذا لجأوا إلى سياسة الإغراء عن طريق إهداء السلاح إلى بعض القبائل أو بيعه لها، فانشغلت القبائل بمنازعاتها المحلية مما ساعد بريطانيا على توسيع منطقة احتلالها في عدن.

وفي عام ١٨٧٧ تقدمت القوات العثانية في جنوب اليمن حتى حدود لحج عقب استغاثة بعض السلاطين بالسلطات العثانية في اليمن، وسارعت السلطات البريطانية للاستنجاد بقوات الامبراطورية في الهند لتهديد السلاطين الثائرين والقوات العثانية المتاخة للمحميات، واستمر هذا النضال حتى عام ١٨٧٨ عندما اشترت السلطات البريطانية في عدن، الأراضي المشرفة على خليج عدن والتي مساحتها ٣٥ ميلاً مربعاً والمعروفة باسم ناحية الشيخ عثان من أملاك سلطنة لحج، وذلك لحماية منطقة عدن من أي هجوم قد يقوم به العثمانيون أو الشيوخ الثائرون في النواحي المجاورة. وقد تم توقيع صك البيع عام ١٨٨٨، وقعه الشيخ عثمان شقيق سلطان لحج مقابل مبلغ عشرين ألف ريال دون أن يكون له حق البيع.

وعندما أعلن الإمام يحيى استقلاله في اليمن عام ١٩١١ بعد ثورته على العثمانيين، تطلع للاستيلاء على هذه المناطق الجنوبية باعتبار أنها تؤلف جزءاً من اليمن، ولكنه اصطدم بالنفوذ البريطاني الذي كان يزعم أنه يحمي مصالح حلفائه المشايخ المشمولين بحايته.

وقبيل الحرب العالمية الأولى وقعت بريطانيا اتفاقية المحميات

وحضرموت مع الدولة العشانية (آذار/مارس ١٩١٤) وتضمنت تعيين الحدود بين ولاية اليمن، وبين عدن (المحميات التسع)، وتخلي الدولة العثانية عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب في حضرموت. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى هاجم العثمانيون عدن من لحج ولكن الامدادات انقطعت عن القائد العثماني سعيد باشا، فعقد هدنة مع القائد الانكليزي، وظل جيشه مرابطاً في لحج ونواحيها، واستطاعت الدسائس الانكليزية أن تعقد معاهدة عدن عام ١٩١٨ مع امارتي حضرموت.

وفي عام ١٩١٨ رفض الإمام أن يعترف بالحدود التي كانت تركيا وبريطانيا قد اتفقتا عليها قبيل الحرب والتي تركت بموجبها منطقة عازلة تقطنها القبائل المحمية بين محمية عدن وبين اليمن. وفي عام ١٩١٩ دارت مباحثات مباشرة بين اليمن وبريطانيا حول هذا الموضوع، فسافر وفد بريطاني إلى صنعاء للمفاوضة بشأن الأوضاع التي نجمت عن جلاء الترك عن المحميات، وبشأن تخطيط الحدود بين عدن واليمن.

وبينها كانت المفاوضات تتقدم بين الإمام والانكليز، أعلن السيد محمد الإدريسي في عسير، العصيان على الإمام، وتقدم لاحتلال القسم الشافعي من اليمن، وادعى الخلافة الدينية بإيعاز ومؤازرة بريطانيا، ومنحته بريطانيا ميناء (الحديدة)، فأنهى الإمام المفاوضات وتفرغ لإخماد الفتنة، ولما تم له ذلك، بدأت بريطانيا سلسلة عدوانها على الحدود اليمنية عن طريق ايجاد فرص تتيح لها

التدخل المسلح، ففي عام ١٩٢١ تدخلت القوات البريطانية في مناوشة جرت بين الحاميات اليمنية على الحدود، وبين بعض القرى التي تزعم بريطانيا أنها واقعة في منطقة حمايتها، وتوترت العلاقات بين حكومة اليمن وبين السلطات في عدن، وقامت الطائرات البريطانية بعدوان على المزارعين والسكان في قرى الحدود، مما اضطر الإمام إلى سحب الحاميات اليمنية من بعض مناطق الحدود، آملًا بالوصول إلى نتائج إيجابية عن طريق المفاوضات، وهذا ما كان يريده الانكليز.

الفصل الرابع

العرب وتحدي الاستعمار والصهيـونية والتجـزئة (١٩٢٠ - ١٩٦١)

أولاً: القورائية والمطامع الاستعمارية في أواخر الطورائية والمطامع الاستعمارية في أواخر العصر العشماني المشاني (١٩٠٩ - ١٩١٨) يتضح بما سبق بيانه، أن التفاهم على اقتسام الولايات العثمانية في افريقيا العربية واحتلالها، قد سبق التفاهم على اقتسام الولايات العثمانية في آسيا العربية. وقد تم ذلك على أساس اقتسام السيطرة والنفوذ والمصالح بين الدول الاوروبية عن طريق المساومات والتعويضات المتقابلة. وقد تتبعنا بشيء من التفصيل كيف جرى احتلال الولايات العثمانية في شمال افريقيا، ومناطق السيادة العثمانية في منطقة الخليج العربي وشرق الجزيرة والجنوب العربي. بقي علينا أن نتتبع ارتباط الهيمنة الاستعارية بالتجزئة العربية في أقطار المشرق العربي التي كانت تخضع للحكم العثماني العربية في أقطار المشرق العربي التي كانت تخضع للحكم العثماني

المباشر، أي بىلاد الشام والعراق، بعبد تمهيد موجز لطبيعة العلاقات العربية - العثمانية في العصر العثماني الشاني (١٨٠٠ -١٩١٨) الذي يعرف بعصر النهضة العربيـة، وفي تجاوز المفكـرون العمرب مرحلة المركود والمحافظة التي عماشها المجتمع العربي في العصر العشماني الأول، إلى مرحلة الحركة ووعي الـذَات القوميـة العربية الموحدة في تاريخها العريق وحضارتها الزاهرة وسلطانها القوي، والمتميزة عن اللذات القومية التركية، وبخاصة بعد ظهور النزعة الـطورانية، ومسعـاها لصهـر العرب في بوتقة تركية عنصرية. في هذه المرحلة، واجه المجتمع العربي الدولة العثمانية نفسها التي أخذت بالتنظيم والاصلاح على النمط الأوروبي المركزي، لوقف تلهور الدولة والإبقاء على ممالكها ضد أطماع الاستعمار الاوروبي. وتميزت أواخر هذه المرحلة بتوسع شقة الخلاف بين العرب والترك، لأنها هدفت إلى ربط الولايات بالعاصمة ربطاً قـوياً، وإلى اخضـاع الجهاعـات والهيئات اخضاعاً تاماً، على وجه لم يألفه العرب من قبل. وسلك الحكم العثماني المركزي سياسة جديدة اتسمت بالتحدي العنيف، فأيقظ المجتمع العربي من واقعه التقليدي الساكن، وأخرجه من ركوده وخموله، مذكراً أن له وجوداً تاريخياً وحضارياً مشتركاً يجمع العرب كافة، ويحفزهم إلى التحرّر من الهيمنة الأجنبية، عشمانية كانت أم أوروبية، ولاسيها بعد أن مال الترك إلى تطبيق الأنظمة المركزية، وفرضوا اللغة التركية على العرب. وبعد الإطاحة بـالسلطان عبد الحميد الثاني وسياسته العربية والاسلامية، نشطت عند الـترك

نزعة عصبية طورانية ترمي إلى صبغ الدولة العثهانية بصبغة تركية، وتتنكر للإسلام الجامع بين العرب والترك، وضيق الطورانيون دائرة ولائهم وحصروها في الترك، وتنكروا للعرب، بل وكبتوا انطلاقهم، وهددوا شخصيتهم وثقافتهم. وكان لا بد للقومية العربية أن ترد على هذا التحدي، وترى في الخلافة العثهانية ما خدّر فيها الروح القومية، وما أرضاها بالإخاء العربي ـ العثهاني ضمن رابطة الجامعة العثهانية الاسلامية.

ورفض المستنيرون العرب التسلط العشماني المقنّع بسبرقع الحلافة، واللذي كان يفرض على العرب، دون مبرر حقيقي، تصادماً بين الايمان الديني الأصيل، وبين ارادة الحياة التي ترفض الاستداد.

ولم تلبث السياسة الطورانية الجديدة ان اضطرت الحركة العربية أن تتجه اتجاهاً مستقلاً ابتداء من عام ١٩١١، وحتى الحرب العالمية الأولى. وقد عبّر هذا الاتجاه عن نفسه بالدعوة إلى إقامة نظام لامركزي في الولايات العربية، واستعمال اللغة العربية فيها، وعدم التفريط بالحقوق العربية التي تتهددها سياسة التتريك في الداخل، ومطامع الاستعمار في الخارج. واتخذت الحركة العربية في هذا الطور شكل الجمعيات السرية والعلنية، مراعاة الطروف الارهاق والتضييق المحيطة بالحركة الوطنية. واتفقت الجمعيات العربية في الدعوة إلى خلق كيان عربي متميز داخل اطار الحدولة العربية في الدعوة إلى مرحلة الثورة والنضال من الحدولة العشانية، ثم تجاوز ذلك إلى مرحلة الثورة والنضال من أجل الاستقلال.

وعد الترك الاتحاديون بتنفيذ معظم المطالب العربية التي دارت حول مشاركة العرب في حكم بلادهم ضمن النظام اللامركزي، واستعمال العربية لغة رسمية، ولكن الترك عملياً لم يقوموا بأية خطوة لتحقيق ذلك. فاستنكر العرب تسويف الترك ومراوغتهم، ولكنهم لم يكونوا يملكون سوى الاحتجاج، خشية أن يؤدي انقلابهم على السترك إلى تطرق الاحتسلال الاجنبي إلى بلادهم، كما حدث لليبيا عام ١٩١١ وللمغرب عام ١٩١٢.

ولكن بعد انحياز الدولة العثمانية إلى دول الوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وتفاقم مظالم الاتحاديين وامعانهم في سياسة التتريك، وإعدام الشهداء العرب في دمشق وبيروت، قطعت الحركة العربية مرحلة جديدة، فأصبحت جامعة قومية سياسية تدعو لتكوين دولة عربية موحدة.

وظهرت طلائع العروبة من جديد في دروب التاريخ والنضال بحركة الثورة العربية عام ١٩١٦، وسارعت بريطانيا إلى الاتفاق مع العرب الذين كان يمثلهم أمير مكة الشريف الحسين بن علي، للثورة على الترك، مقابل الوعد بإنشاء دولة عربية موحدة، تمتد بين البحر المتوسط غرباً، والخليج العربي شرقاً، وبين جبال طوروس شمالاً وإقليم عدن جنوباً. واتجهت جحافل الشورة العربية إلى الشهال، وساهمت بقدر كبير في تحرير بلاد الشام من الجيوش العثمانية إلى جانب الجيش البريطاني. وكانت ثورة عربية المسترك فيها السوري والعراقي والحجازي والمصري، وعاشت

فكرة الوحدة العربية أيام الحرب العالمية الأولى، على أمل أن يحقق الحلفاء وعودهم للعرب. ولكن سرعان ما فارقهم هذا الأمل، لأن بريطانيا كانت تفاوض فرنسا على اتفاقية سايكس بيكو السرية (١٩١٦) لتجزئة المشرق العربي واحتلاله، في الوقت الذي كانت فيه تفاوض الشريف حسيناً. اضافة إلى اتفاقها مع الصهيونية على اصدار وعد بلفور (١٩١٧).

وقضت المساومات الدولية في سان ريمو (١٩٢٠) على هدف العرب المرتقب في الاستقلال والوحدة، فقسمت بلاد الشام إلى أربعة أقسام: سوريا ولبنان، وقد وضعتا تحت الانتداب (الوصاية) الفرنسي، وشرقي الأردن وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور في فلسطين، وهكذا لم تكتف قوى الاستعار بتحطيم الوحدة السياسية التي نعم بها العرب على أرض وطنهم الأكبر أثناء الحكم العثماني وما قبله، وإنما تامرت أيضاً على ما بقي موحداً من أقطار الهلال الخصيب، وبذلك تكاملت عملية الغدر والتجزئة التي فرضها الاستعار على الوطن العرب، فقسمته إلى ٢٥ وحدة سياسية ترزح تحت حكم الفرنسين والبريطانين والايطالين والاسبان.

تشمل هذه الحقبة الزمنية أربعة عقود تقريباً، تطورت فيها القومية العربية عموماً، تطوراً إيجابياً على طريق التحرر من الاستعار الأجنبي، ووعي مضار التجزئة المفروضة على الأقطار العربية. وبرزت إلى جانب التيار القومي العربي، تيارات فكرية

وهـويـات منـافسـة محليـة واقليميـة ودينيـة، في عـدد من الأقـطار العربية. وبذلت الدول الاستعارية كل ما في وسعها لتثبت وجودها في أقطار العرب، واستهاتت في مكافحة الهوية القومية العربية ومحاربة أنصارها وسد سبلها، عن طريق تغذيـة النزاعـات الطائفية والانفصالية والمحلية، وتأكيد كياناتها المصطنعة ضمن الحدود التي رسمتها. كما سعت إلى ربط جماعة من المنتفعين بسياستها، وبخاصة بين فئة من الاقطاعيين والرأسماليين والموظفين، وحاولت توثيق صلتهم بالأوضاع القطرية التي أوجدتها، وانتهكت المواثيق الـدوليـة، فـأطلقت لنفسهـا حريـة التصرف في الحوزة الأرضية لبعض الأقطار العربية، كما فعلت فرنسا في الجزائر، التي حاولت إدماجها بالـوطن الفرنسي، أو في سوريا حيث تآمرت مع تركيا على اقتطاع لواء الاسكنـدرونة منهـا عام ١٩٣٩، أو كما تصرفت انكلترا في فلسطين حيس تواطأت على توطين الصهيونية فيها، بعد أن فتحت أبوابها للهجرة اليهودية. وبذلك استهلت مأساة فلسطين التي ما زالت طراوتها ندية في عيون كل أبناء الأمة العربية.

وفي هذه الحقبة، تابعت الأقطار العربية كفاحها ضد الاحتلال الأجنبي، فاندلعت الثورات ضد هذا الاحتلال بغية التخلص من سيطرته وتسلطه. ورغم الطابع المحلي لهذه الثورات، وعدم ارتباط بعضها ببعض، فإنها في الواقع كانت تمثل ثورة موحدة ضد الاستعار بشتى صوره وأشكاله، وتتردد

أصداؤها بالتعاطف والتضامن في مختلف أنحاء الوطن العربي مشرقاً ومغرباً، ويشارك فيها مختلف المواطنين، من عهال وفلاحين وبرجوازيين، كها كان الحال في ثورة مصر (١٩١٩) والثورات السورية (١٩١٩ - ١٩٢١) والثورات الفلسطينية (١٩٢١ - ١٩٣١) والثورة عمر المختار في ليبيا (١٩٢٣ - ١٩٢١) وثورة الريف في المغرب الأقصى (١٩٢٠ - ١٩٢١) اضافة إلى الأحداث الحاسمة في تونس والمغرب وثورة الجزائر (١٩٥٤ - ١٩٦٢).

أما الحدود بين أقطار الموطن العربي مشرقاً ومغرباً، أو بينها وبين البلدان المجاورة فلم يضعها أو يشارك فيها عربي، إذ إن الاستعار هو الذي رسمها بشكلها النهائي، باستثناء خط الحدود الفاصل بين العربية السعودية، والمملكة المتوكلية اليمنية، الذي وضع بفضل وساطة عربية بحتة عام ١٩٣٤.

لقد أقامت المطامع الاستعمارية حدوداً فاصلة بين الأقطار العربية، تارة باسم المحافظة على الحدود والأوضاع القائمة، وتارة باسم حماية الاستقلال والسيادة لدول المنطقة. وقد وجدت النزعة القطرية والهوية الاقليمية في عمل الاستعمار اطارها المريح، حتى ولو كانت هذه الحدود تحول بين تواصل الاشقاء وتقوم على بضع مئات من الكيلومترات، وعدد من المراكز والقرى، يقل سكانها عن بضعة آلاف. وفيها يلي نسوق (مثلاً) واحداً على تجزئة بلاد الشام.

ثانياً: تجزئة بلاد الشام (سورية) وظهور الدول فيهــا ورسم حدودها (١٩٢٠)

عندما جلا الأتراك في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت بلاد الشام مقسمة إدارياً إلى ثلاث ولايات كبيرة وثلاث متصرفيات صغيرة، تتبع الاستانة مباشرة.

والولايات كانت:

 ١ - ولاية سورية: وتتبعها متصرفيات الشام الشريف وحماة وحوران والكرك.

٢ ـ ولاية حلب: وتتبعها متصرفيات حلب وأورفه ومرعش،
 وتقع ضمن هذه الولاية كلس وبيلان وعنتاب والاسكندرونة
 وانطاكية، وهي اليوم تتبع تركيا.

٣ ـ ولاية بيروت: وتشمل متصرفيات بيروت وعكا، وطرابلس والـلاذقية ونـابلس، أي أنها كانت تشمـل شهال فلسـطين، وجميع بلاد العلويين، وتقع بينهها متصرفية جبل لبنان.

والمتصرفيات هي:

١ ـ متصرفية القدس الشريف وتشمل القدس، يافا، غزة، الخليل.

۲ متصرفیة دیر الـزور: وتشمل دیـر الـزور، رأس العـین،
 عشارة، البوكهال، عربان.

٣ ـ متصرفية جبل لبنان: وتشمل قصبة دير القمر، وأقضية

الشوف، المتن، كسروان، البترون، جزين، زحلة، الكورة.

وهذه التقسيات الادارية لم تكن تعوق الوحدة السياسية التي كانت قائمة بالفعل من كيليكيا حتى مصر والحجاز، ولكن الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) مزقوا هذه الموحدة بعد الحرب العالمية الأولى وأمعنوا في تجزئة البلاد إلى دول ودويلات، وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة، والفصل بين سكانها، وتمزيق مصالحهم. وقد أشرنا إلى أن التجزئة التي نكبت بها بلاد الشام كانت جزءاً من اتفاقية سايكس بيكو السرية (أيار/مايو ١٩١٦) بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لاقتسام الشرق الأدنى، وتصريح الوزير البريطاني بلفور (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧) بخلق وطن قومي لليهود في فلسطين، وركزت روسيا مطالبها حول المضائق التركية، وحول شرق الأناضول، كما اتفقت فرنسا وانكلترا على ترك الحجاز وسائر أقسام الجزيرة العربية خارج مشروع الاقتسام. واتفاقية سايكس بيكو نصّت على تقسيم بلاد الشام والعراق إلى خمس مناطق:

١ - المنطقة السمراء: وتشمل فلسطين مع مدينة القدس،
 وتدار دولياً.

 ٢ ـ المنطقة الحمراء: وتضم جنوب العراق مع بغداد والبصرة وتحكمها انكلترا مباشرة.

٣ ـ المنطقة الزرقاء: وتمتد على قسم من جنوب تركيا، وعلى الساحل السوري (كيليكيا، لواء الاسكندرونة، بلاد العلويين، لبنان) وتحكمها فرنسا مباشرة.

٤ - منطقة (أ): تضم سورية الداخلية وشال العراق مع الموصل وكركوك، وتوضع تحت اشراف فرنسا.

٥ - منطقة (ب): وتضم الأردن وبادية الشام والعراق الأوسط، وتشرف عليها انكلترا. وتعلن الدول الموقعة على هذه الاتفاقية عن استعدادها للإعتراف بدولة عربية مستقلة أو مجموعة دول عربية متحدة في المنطقتين (أ) و (ب)، وتتعهد بأن ترسل لها خبراء ومستشارين بناء على طلبها.

ولا حاجة إلى القول إن معنى هذه الاتفاقية هـو سلب العرب ثمرات ثـورتهم عـلى الـترك، ونقض العهـود المقـطوعـة للشريف حسين أمير مكة المكرمة، وهو يأتي في التشريفات العثمانية في صف واحد مع الصدر الأعظم في الآستانة والخديوي في مصر.

وتُوّجت الحركة العربية بدخول فيصل بن الحسين دمشق على رأس جيوش الثورة العربية التي واصلت النزحف إلى أن احتلت حلب أيضاً، وقد أعلن قيام حكومة عربية موقتة باسم الملك حسين، واتضح للحلفاء أنه يتعذر تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو، بسبب تضارب مصالح فرنسا وبريطانيا، واختلافها على اقتسام الحصص، وأنه لا بد من تعديل الاتفاقية، ولكن مبدأ التقسيم والتجزئة ظل سائداً. وبدأت نيات الحلفاء تظهر حين نزلت الجيوش الفرنسية على امتداد الساحل السوري، بعد أن أنزلت العلم العربي من مدن الساحل، الأمر الذي ولد هياجاً في صفوف الجند العربي بدمشق، في كان من دولتي الحلفاء إلا أن نشرتا

تصريحـاً جديـداً (٧ تشرين الثاني/نـوفمبر ١٩١٨) أكــدتا فيــه أن إقامة حكومات وطنية سيتم وفقاً لإرادة الأهلين الحرة. وسافر فيصل مرتمين إلى أوروبا للدفاع عن الحقوق العربية أمام مؤتمر السلام في باريس، وهناك فوجيء بمناورات فرنسا وبريطانيا والصهيـونية. وأخيـراً ظفر بمبـدأ الاستفتاء للوقـوف عـلى رغبـات السكان في تقرير مصيرهم. وقدمت لجنة كوين الامريكيــة، وورد في تقريرها أن العرب يطلبون الاستقىلال ويترفضون المزاعم الصهيونية في فلسطين، ويطلبون المساعدة الفنية عنـد الحاجـة من الولايات المتحدة، وإذا رفضت فانكلترا، أما فرنســا فغير مـرغوب فيها، ويختارون فيصلًا ملكاً، ويـرفضون تجـزئـة سـوريـة بسلخ فلسطين ولبنان عنها، ويطلبون الاستقلال التـام للعراق، دون أنّ يكون بينه وبين سورية حواجز جمركية. ولكن تقرير اللجنة أهمل، مع مبادىء ويلسون في حق تقرير المصير، فاجتمع المؤتمــر السورى واعلن قـراره في ٨ آذار/مارس ١٩٢٠ بـاعلان استقـلال سوريــة بحدودها الطبيعية استقـالاًلا تامـاً، ورفض مطالب الصهيـونية في فلسطين، ونادى المؤتمر بفيصل ملكاً على سورية، وطالب باستقلال العراق، على أن يكون بين القطرين اتحاد سياسي واقتصادي. ولم يلبث أن اجتمع مؤتمر من رجالات العراق، وأعلن قرار مؤتمرهم عقب تلاوة قرار المؤتمر السورى، بإعلان استقلال العراق التـأم وملكية عبـدالله بن الحسين عليـه، وباتحـاد سياسي واقتصادي مع سوريـة. وإزاء تحلُّل الحلفاء من وعـودهم، تخلى العرب مؤقتاً عن هدف الـدولة العـربية المـوحدة، مـراعـاة للظروف الدولية، ولكن الأمل في الوحدة لم يغادر أذهانهم، فقرروا أن تكون اعلام (الدول) العربية الجديدة موحدة في أشكالها وألوانها، بحيث بقي علم الثورة دون نجوم علماً لمملكة الحجساز، وأضيفت نجمة إلى علم سورية ونجمتان إلى علم العراق. وفي غضون ذلك، توصلت حكومتا فرنسا وبريطانيا إلى المصادقة على اقتسام المنطقة في مؤتمر سان ريمو (٢٥ نيسان/ابريل المحددة على اقتسام المنطقة في مؤتمر سان ريمو (٢٥ نيسان/ابريل الانتداب على سورية ولبنان لفرنسا، ومنح الانتداب على العراق وشرق الأردن وفلسطين لانكلترا بشرط تنفيذ وعد بلفور في فلسطين. ولم تلبث البلاد السورية أن شهدت سلسلة من حوادث الصدام غير المتكافىء، انتهت بخنق الحكومة العربية في دمشق، وخروج فيصل من سورية (تموز/يوليو

وهكذا تحولت الولايات العثمانية في المشرق العربي إلى بلدان عربية ترزح تحت السيطرة الأجنبية، دون مراعاة لمطالب السكان ومصالح البلاد، وانفصال شرقي الأردن عن سورية خير شاهد على ذلك: لقد تكونت دولة شرقي الأردن وفقاً لاتفاق بين بريطانيا وفرنسا، وكانت المنطقة في العهد العثماني متصرفية تابعة لولاية سورية، وظلت متصرفية في عهد الحكومة العربية السورية أيضاً (١٩١٨ - ١٩٢٠)، ولكن على أثر اتفاق الدولتين على تحديد مناطق نفوذها بخط العرض الذي يمر من جنوب حوران، فإن فرنسا لم تحتل ما يقع جنوب الخط المذكور، وتركته لانكلترا التي لم

ترغب في احتلال المنطقة مباشرة، أو إلحاقها بفلسطين التي التزمت فيها بوعد بلفور، ولذا جعلتها امارة خاضعة للانتداب البريطاني، في حين كانت فلسطين تقع إلى الغرب من نهر الأردن.

كذلك تقررت الحدود الفاصلة بين دول بـلاد الشام بمـوجب مساومات الدول الأجنبية ومـطامعها، وإلحـاق الموصـل بالعـراق، ودير الزور بسورية شاهد على ذلك. فالموصل كانت داخلة في المنطقة (أ) الفرنسية بحسب اتفاقية سايكس ـ بيكو، ولكن بعد استيلاء انكلترا عليها وطمعها بنفطها، طلبت من فرنسا تعديل الاتفاقية بحجة تبدل الوضع الـدولي بعد خروج روسيا من صف الحلفاء. وأفضت المساومات الطويلة إلى تنازل فرنسا عن المطالبة بالموصل، نظير تنازل انكلترا عن المطالبة بإنشاء دولة مستقلة في سورية الداخلية، وموافقتها على حصة لفرنسا من نفط الموصل. والأمر نفسه ينطبق على دير الزور التي اشتملت عليها المنطقة (ب) البريطانية بحسب سايكس ـ بيكو، حيث أنشأت فيها إدارة عسكرية تابعة لبغداد. وبعد ثورة عشائر دير الـزور على الانكليـز ومحاصرتهم فيها، تركت انكلترا المنطقة لجيوش الشورة العربية، بعد ضمان انتقال الحامية الانكليزية إلى بغداد، وعلى ذلك صارت دير الزور تابعة لسورية، والموصل تابعة للعراق.

أما الحدود بين سورية ولبنان، فقـد رسمت في نطاق سياسة التجـزئة التي طبقتها فرنسا في بلاد الشـام الشماليـة، واستهلتهـا بتوسيع لبنان على حساب سوريـة منذ مـطلع الاحتلال. ذلـك أن

متصرفية جبل لبنان التي رسمت حدودها بموجب النظام الأساسي عام ١٨٦١، قد أضيفت إليها أقضية أربعة كانت تابعة لولاية سورية، وهي بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا، وألحقت بها متصرفيات طرابلس وبيروت وصيدا، كما أضيف إليها قسم من قضاء حصن الأكراد، وقسم من قضاء عكار. وبذلك رفعت فرنسا رقعة لبنان وسكانه إلى الضعف لتؤلف (دولة لبنان الكبير) التي ظل يديرها حاكم فرنسي حتى عام ١٩٣٦، حين وضع دستور لها، وصارت تعرف بالجمهورية اللبنانية، وتم ذلك الاقتطاع قسراً، وعلى كره من أهالي هذه المناطق الذين كانت غالبيتهم لا ترغب في الانفصال عن سورية. وقد اعترفت البلدان العربية ـ ومنها سورية ـ بحدود لبنان الحالية بموجب بروتوكول الاسكندرية (٧ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٤).

سورية

التفت الاحتلال الفرنسي إلى تقطيع أوصال سورية الداخلية نفسها، فقسمها إلى أربع دويلات، منفصل بعضها عن بعض تماماً وهي: دولة دمشق، ودولة العلويين (اللاذقية) ودولة جبل المدروز (السويداء)، ودولة حلب، وربط بها لواء الاسكندرونة بحيث أصبح يتمتع بإدارة خاصة. وتم كذلك عزل سورية عن سواحلها بسور قوامه دولة لبنان الكبير، ودولة العلويين، ولواء الاسكندرونة، يحكم كلاً منها موظف فرنسي يتمتع بصلاحيات

مطلقة. وبعد سنتين، ورغبة في تخفيف حدة السخط الشعبي، أقيم الاتحاد السوري بين دول دمشق وحلب والعلويين، ثم ألغي الاتحاد وقصر على دولتي دمشق وحلب باسم دولة سورية، وحل ارتباط لواء الاسكندرونة بدولة حلب السابقة، فخرج عن النطاق السوري منذ عام ١٩٢٤.

ويذكر أن فرنسا أرادت أن تثبت النزعة الكيانية في (دولة حلب) بقرار يصدر عن مجلس تمثيلي منتخب، ظناً منها بأن المجلس المذكور لا بد أن يتمسك باستقلال دولة حلب، فخاب أمل فرنسا حين التأم شمل المجلس وقرر الاندماج مع دولة دمشق، وعليه فلم تدم (دولة حلب) إلا نحو خس سنوات. وبعد هذه التجربة المريرة، عدلت فرنسا عن اجراء انتخابات لتثبيت كيان الدويلات التي أوجدتها، وأبقيت دولتي السويداء واللاذقية خارج نطاق الجمهورية السورية مدة ربع قرن تقريباً.

وفي أعقباب الشورة السبورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧) عقدت انتخابات عام ١٩٢٨ ووضع لسورية دستور جهوري، أضاف إليه المفوض السامي مادة أبطلت مفعوله، فنشبت اضطرابات دامية وأسفرت انتخابات ١٩٣٢ عن فوز الوطنيين، وبرزت الأزمة حين قدم المفوض السامي مشروع معاهدة صداقة وتحالف إلى المجلس النيابي، فقوبلت بالرفض، وحل المجلس، وأصدر الوطنيون ميثاقاً قومياً يتضمن المطلب التقليدي: الوحدة السورية والاستقلال، ومقاومة الوطن القومي اليهودي والعمل

على اتحاد الأقطار العربية. وبعد اضراب طويل وصدامات عنيفة بين الـوطنيـين وقـوات الاحتـلال، عقـدت في بـاريس معـاهـدة ١٩٣٦، التي لم تتضمن الاستقــلال التــام، ولكنهـــا نصت عـــلى انضهام دولتي العلويين وجبل الدروز إلى سـورية بشرط أن تتمتعــا بنظام اداري ومالي خاص، غير أن عـدم موافقـة البرلمـان الفرنسي على المعاهدة المذكورة حال دون تنفيذ ذلك. وتعهدت سورية باحترام استقلال لبنان والعدول عن مشروع اتحاد سورية ولبنــان. وقبيل الحرب العمالمية الثانية سعى الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) لاجتذاب تركيا ضد دول المحور (المانيا وايطاليــا) حتى انهم قدمــوا لها رشوة لواء الاسكندرونـة، ووافقت تركيـا ووقعت اتفاقيـة بهذا الشأن، ولكنها أدخلت عليها مادة لا تلزمها المشاركة في حرب ضد روسيا. واتخذت تركيا هذه المادة ذريعة للماطلة والتملص من دخول الحرب، ونجحت في ذلك، وضمت اللواء إليها في صيف عام ۱۹۳۹.

وفي عام ١٩٤١ أعلن ممثل فرنسا الحرة استقلال سوريا ولبنان، وفي عام ١٩٤٥، بعد حوادث أيار/مايو الدامية، توحدت سورية وانضمت إليها نهائياً حكومتا جبل الدروز والعلويين. وفي عام ١٩٤٦ جلت الجيوش الأجنبية عن سورية ولبنان، وحدثت أربعة انقلابات عسكرية في سورية بين (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤). وفي أواخر عام ١٩٥٧ وافق المجلس النيابي السوري ومجلس الأمة المصري على توحيد سورية ومصر في دولة واحدة، هي الجمهورية

العربية المتحدة، وتم استفتاء الشعب على الوحدة وعلى شخص رئيسها جمال عبدالناصر يوم ٢٢ شباط/فبراير ١٩٥٨. وبعد أن تكتلت القوى المعادية للوحدة في الداخل مع الاستعبار، حدث انفصال سورية عن مصر أواخر ايلول/سبتمبر، ثم قامت ثورة ٨ آذار/مارس ١٩٦٣ ووقعت ميثاق الوحدة الثلاثية بين سورية والعسراق ومصر، ولكن أزمة الثقة بين القيادات السياسية تصاعدت وتعقدت، ولم تجد بنود الميثاق سبيلها إلى التحقيق.

أما حدود سورية عن الدول المجاورة، فقد تمّ رسمها مــا بين ١٩٢٠ و١٩٤٠ فجعلها فيها يلي:

الحدود السورية - التركية: كان من الطبيعي أن تكون حدود سورية الشهالية متهاشية مع ذرى جبال طوروس، ولكن الاتفاقيات التي ابرمتها فرنسا شاءت خلاف ذلك، وظلت الحدود بعد عام ١٩٢٠ تعدل المرة تلو المرة حتى استقرت نهائياً عام ١٩٤٠. وكانت دائهاً لمصلحة تركيا. فمثلاً حين عين خط الحدود بين البلدين باتفاقية انقرة (١٩٢١) وثبت في معاهدة لوزان (١٩٢٣)، تراجعت حدود سورية مقدار أربعين إلى خمسين كيلومتراً نحو الجنوب داخل الأراضي السورية، وتعادل المنطقة التي سلخت من سورية مساحة فلسطين، وضعف مساحة لبنان. ومع ذلك عارض الأتراك تثبيت الحدود بمختلف الحجج، فأذعن ومع ذلك عارض الأتراك تثبيت الحدود بمختلف الحجج، فأذعن مواضع، وخمسة كيلومترات في مواضع أخرى (١٩٢٩).

وسيصبح الأمر أشد فداحة حين تعدل الحدود السورية عام ١٩٣٨ بعد ضم لواء الاسكندرونة إلى تركيا خلافاً للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم التي تنص على وجوب مراعاة دولة الانتداب تمامية أراضي الوديعة المقدسة التي وكل أمرها إليها.

- الحدود السورية - العراقية: تؤلف الحدود السورية الشرقية خطوطاً مستقيمة اتفاقية تجتاز البادية، ولم تستطع لجنة تعيين الحدود الموافقة على أعمال التحديد إلاّ عام ١٩٣٣.

الحدود السورية ـ الأردنية: وخط الحدود هنا لم يستقر نهائياً
 إلا عام ١٩٣٣، بعد أن وقعت فرنسا وانكلترا معاهدة صداقة
 وحسن جوار نيابة عن سوريا وشرقي الأردن.

- الحدود السورية - الفلسطينية: بينها تقرر عام ١٩٢٠ أن تنتهي حدود سورية عند مدينة سمخ، جاءت اتفاقية ١٩٢٣ فأرجعت خط الحدود بضعة كيلومترات نحو الشرق، بحيث أدخلت منطقة الحمة الشهيرة بمياهها المعدنية في حدود فلسطين. ويلاحظ أن هم بريطانيا كان تأمين الموارد المائية والأراضي الزراعية لليهود الذين اعتزمت انشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وأثناء الحرب العربية - الاسرائيلية عام ١٩٤٨، احتل الجيش السوري قسماً من سهل الحولة وأصبحت منطقة محايدة عقب المدنة (١٩٤٩)، ثم احتلت سورية نهائياً منطقة الحمة، ثم فقدتها مع هضبة الجولان في حرب عام ١٩٦٧.

- الحدود السورية - اللبنانية: عينت الحدود نهائياً في آخر عام ١٩٢٥، وبذلك أصبحت الدولة اللبنانية تضم سلسلة جبال لبنان الغربية، وجميع سهل البقاع، والسفح الغربي من جبال لبنان الشرقية.

لبنان

بدأ كيان لبنان السياسي في الظهور عام ١٩٢٠، حين عمل الاحتلال الفرنسي على توسيع رقعته ليضم ما كان يعرف في العهد العثماني بمتصرفية جبل لبنان، ومركز بيروت، وأقضية صيدا، وصور ومرجعيون التابعة للمركز المذكور، ومتصرفية طرابلس الشام التي كانت تابعة لولاية بيروت، وأقضية أربعة هي بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا كانت تابعة لولاية سورية.

وقد شارك الزعماء اللبنانيون، من مسيحيين ومسلمين في المؤتمر السوري الذي نادى باستقلال سورية ووحدتها، بما فيها لبنان وفلسطين، وبفيصل بن الحسين ملكاً عليها. ولذا طالبت الاقضية الأربعة التي أدمجت في لبنان بالإنضمام الى سورية. ولكن الفرنسيين سارعوا الى احتلال دمشق والإطاحة بفيصل، كما ذكرنا من قبل، واعلان قيام (دولة لبنان الكبير). وعلى الرغم من ان سلطات الاحتلال الفرنسي، حاولت الدس بين الزعماء والوقيعة بين الطوائف، غير ان اللبنانيين الموالين للوحدة مع سورية، وبينهم العديد من الزعماء الوطنيين، تمسكوا بمطلب الوحدة

السورية وتمردوا على فصلهم عنها، وبذلوا ما بوسعهم لمعاونة اخوانهم الثوار في سورية، ولا سيها الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧). وعملت فرنسا على ترسيخ الهوية اللبنانية المحلية، بأن منحت اللبنانيين حق الإشتراك بوضع الدستور، ثم بإعلان الجمهورية في أيــار /مايــو ١٩٢٦. ومع أن منصب رئــاسة الجمهورية شغله لبنانيون، غير أن الحكم الفعلي كان بيد المفـوض السامى ومستشاريه الفرنسيين الموزعين على جميع ادارات الدولـة. وفي الحرب العالمية الثانية، انتصر البريطانيون والفرنسيون الديغوليون على الفرنسيين الموالين لحكومة فيشي (١٩٤١) واصبحت البلاد تحت حكمهم، وتحرك الوطنيون في سورية ولبنان للمطالبة بتنفيذ وعود الاستقلال المبذولة لهم بضهانة بريطانيا. وفي مطلع عام ١٩٤٣ طلبت الحكومة اللبنانية من المفوضية الفرنسية تعديل الدستور بما ينسجم مع الاستقىلال الموعود. ولاحت بوادر الأزمة، حين أذاع الجنرال ديغول بياناً أعلن فيه قبوله بالمسؤوليات التي كانت لفرنسًا، ويعني بها مسؤوليات الإنتداب على سورية ولبَّنان. وكانت معركة الانتخابات التي جـرت في آب/ اغسطس معركة بين جبهة الوطنيين المدستورية برئاسة بشارة الخوري، ورياض الصلح، مقابل جبهة اميل اده التي يؤيدها الفرنسيون، لانها اتخذت من الطائفية شعاراً تلوح بـه، وتتهم الفثة الأولى بالانحياز الى السياسة (العربية الاسلامية)، وبالتفريط في حقوق لبنان واستقلاله، ودعت أنصارها _ ومعظمهم من الموارنة _ الى المحافظة على كيان لبنان وعلى هوّيته المسيحية.

وكانت نتيجة الإنتخابات نصراً للفئة الأولى، وتشكلت الوزارة برئاسة رياض الصلح، فألقى بيانه التاريخي باسم حكومته في المجلس النيابي (تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٤٣). ومنح النواب ثقتهم بالإجماع للحكومة على وعد التمسك بما جاء في بيانها، وتسلم صلاحيات دولة الانتداب كافة. وقد أعلن الصلح أن «... موقعه (لبنان) الجغرافي ولغة قومه وثقافته وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقاته بالدول العربية الشقيقة في طليعة اهتهامه، وستقبل المحكومة على إقامة هذه العلاقات على أسس متينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده الحاضرة. فلبنان ذو وجه عربي يريدون للبنان إلا ما يريده أبناؤه الاباة الوطنيون، نحن لا نريده للإستعار مستقراً، وهم لا يريدونه للاستعار اليهم عمراً. فنحن وهم اذن نريده وطنا عزيزاً مستقلاً كرعاً».

وتسلّمت وزارة الصلح جميع الصلاحيات التي كانت تتولاها دولة الانتداب، وتشاورت مع الحكومة السورية حول السلطات والمصالح التي يتمسك بها الفرنسيون، وقدمتا مذكرة الى المفوضية الفرنسية وطلبتا ان تتحول هذه المفوضية الى بعثة دبلوماسية. فاستمهل الفرنسيون الحكومتين عشرة ايام ريثها يستشيرون اللجنة الفرنسية في الجزائر، لعلها تساوم على تسليم المصالح المشتركة والصلاحيات الاخرى، بعقد معاهدة تضمن لفرنسا البقاء في البلدين. وأعلنت لجنة الجزائر انها لا تعترف باي تعديل في الدستور اللبناني من جانب الحكومة والبرلمان اللبنانيين وحدهما،

دون موافقة ممثل فرنسا. ولكن الحكومة اللبنانية تجاهلت ذلك، ودعت الـبرلمان لـلإنعقـاد. وفي تشرين الثـاني /نـوفمـبر ١٩٤٣، صودق على مشروع تعديل الدستور، وتناول جميع المواد التي تقيد البلاد بالإنتداب. واتسمت ردة فعل الفرنسيين بالرعونة والحمق، فاعتقلوا رثيس الجمهـوريــة، ورئيس الـوزراء، ورئيس المجلس النيابي، وبعض الوزراء والنواب، وأقاموا حكومة برئاسة اميل اده. وما أن وصلت انباء الإعتقالات وحوادث الصدام التي وقعت بين اللبنانيين والفرنسيين الى البلدان العربية، حتى انفجرت العواطف القومية انتصاراً للبنان، وقيامت في عواصمها مظاہرات حاشدۃ تندد بفعال الفرنسيين، كما بادر ملوك ورؤساء العرب للإحتجاج على انتهاك حرمة الحكومة اللبنانية المستقلة ودستور الشعب اللبناني الحر. وازاء موجة الإستنكار العربي العام، وقفت بريطانيا والولايات المتحدة موقف المتبرم اللائم. فأعاد الفرنسيون الزعماء اللبنانيين الى مراكزهم، واعترفوا بالوضع اللبناني الجديد، ثم سلموا مصالح البلاد الي اهلها، واتفق على أن يتم الجلاء في كـانــون الاول /ديسمــبر ١٩٤٦، وتحقق ذلـك بالفعل.

الاردن

تكونّت من (متصرفية الكرك) التي كانت تتبع ولاية سورية في العهد العثماني. أما الضفة الغربية التي الحقت بها بعد نكبة

فلسطين، فهي أجزاء صغيرة من متصرفيـة القــدس، ومتصرفيـة نابلس التي كانت تـابعة لـولاية بـيروت. وقد وافق مجلس عصبـة الأمم في ايلول /سبتمبر ١٩٢٢ على الحاق شرقى الاردن بسلطة الإنتداب في فلسطين، مع استثنائها من مقتضيات وعد بلفور. وبذلك أوجدت بريطانيا دولة تؤلف حلقة في مواصلاتها بين البحر المتموسط والخليج العربي. وتصورت انها أوفت بـوعودهـا للعرب بارضائها الأمير عبدالله الساخط عليها حرمانها اياه من عرش العراق. وفي ايار /مايو ١٩٢٣ اعترف هربـرت صموئيـل المندوب السامي في فلسطين ـ بناء على إيعاز حكومته ـ بوجـود دولة شرقي الاردن المستقلة برئاسة الامير عبـدالله بن الحسين، عـلى أن تقوم فيها حكومة دستورية ترتبط بمعاهدة مع الحكومـة البربـطانية. ولم تعقد هذه المعاهدة إلا في شباط/فبراير ١٩٢٨، ونصت على أن السلطتين التشريعية والإدّاريـة تكونـان بيد الامـير وحكومتـه، كما ربطت قوانين البلاد وانظمتها بتعهدات الانتداب. ثم صاغت السلطة البريطانية دستوراً وافق عليه الامير في العمام نفسه، ولكن الوطنيين عارضوا المعاهدة ورفضوا الدستور لأنهها لا يحققان أماني البلاد واستقلالها، وتداعوا إلى عقد مؤتمر في تموز /يـوليو ١٩٢٨، وضعوا فيه ميشاقاً وطنياً دعوا الشعب الى التمسك بـ والسعى للاستقلال وشجب الإنتداب. ولكن غضبة الوطنيين لم تلق سوى القمع. وفي اتفاق ابـرم عـام ١٩٣٤، اعـطي الامـير حق تعيـين ممثلين قنصليين له في الخارج، ولكن بقيت بيد المندوب البريطاني امتيازات التشريع والشؤون المالية وحماية الأقليات والأجانب. وفي

عام ١٩٣٩ وافقت بريطانيا عـلى تحويـل المجلس التنفيذي الأردني الى مجلس وزراء. وبعد الحرب العالمية الثانية التي شاركت فيها قوات الفيلق العربي الاردني، عقدت معاهدة بين بريطانيا وشرقى الاردن، (١٩٤٦) اعترفت باستقالال البلاد. وبعد شهر اجتمع المجلس التشريعي واعلن استقلال المملكة الاردنية الهاشمية وبويع الامير عبدالله ملكاً عليها. وفي عام ١٩٤٨ ابرمت معاهدة تحالف جديدة بين شرقى الاردن وبريطانيا، نصت على تعاون البلدين في حالة الحرب، وعلى وجود وحدات من سلاح الطيران، كها نصت على أن تبقى قيادة الجيش الاردني في أمرة ضباط بريطانيين، وأن تكفل بريطانيا الانفاق عليه وتسليحه. وبعـد الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨، اقترحت جمامعة المدول العربية انشاء حكومة عموم فلسطين في المناطق الفلسطينية التي احتلتها الجيوش العربية، ولكن الملك عبدالله رفض الاقتراح، وأصر على دمج الضفة الغربية في نيسان/ابريـل ١٩٥٠ رغم المعارضة العربية. ولقى الملك حتفه في تموز/يـوليو ١٩٥١ وهـو يؤدي صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.

ومعلوم أن الملك عبدالله كان يؤيد مشروع سورية الكبرى، ففي مذكرة أرسلها الى حكومة لندن في شباط/فبراير ١٩٣٦، طلب الأمير الاتحاد مع سورية كخطوة أولى في سبيل الاتحاد العربي، وذلك قبل ان يخرج بمشروعه الذي سيعرف باسم (سورية الكبرى) في مطلع الحرب العالمية الثانية، والذي ظل يتابعه حتى وفاته.

فلسطين

كانت أراضي فلسطين الحالية في نهاية العهد العثماني (١٩١٨) تتألف من ثلاث متصرفيات، منها متصرفيتا عكا ونابلس التابعتان لولاية بيروت، ومتصرفية القدس الشريف، وتضم أقضية هي يافا وغزة وبئر السبع والخليل، وتتبع الاستانة مباشرة.

وفي اثناء الحرب العالمية الأولى، استولت (الحملة المصرية) بقيادة اللنبي على فلسطين، فاحتلت غزة في ٧ تشرين الثماني/نوفمُمر ١٩١٧، واحتلت القدس في ٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧. وحين تقـرر في سان ريمــو وضع فلسـطين تحت الانتداب البريطاني، حلت حكومة مدنية محل الادارة العسكرية، وتضمنت مقدمة صك الانتداب نص وعد بلفور. ونصت المادة سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي، وفقاً لما جاء بيانه في مقدمة هذا الصك». وبموجبه اصبح للأقلية اليهودية سلطان عـلى أكثر من ٩٣ بـالمائــة من السكان العــرب الذين لم يــذكـر حتى اسمهم الصريح، وإنما أشير اليهم بعبـارة (الجــماعـات غــير اليهودية). ولذا بقيت المعارضة العربية للإنتداب عنيدة لا تلين طوال مدة الإنتداب، وأضطر العرب بعد أن أخفقت نـداءاتهم ومظاهراتهم ومطالباتهم في حمل حكومة الإنتداب على احترام حقوقهم، إلى استخدام العنف، ولا سيها ما بين ١٩٣٦ _ ١٩٣٩ حين نشبت الثورة العربية الكبرى، بعد ان سبقها إضراب طويـل دام ستة أشهر. وفي حين فتحت بريطانيا أبواب فلسطين امام الهجرة اليهودية، وشجعت انتقال الأراضي لليهود، رفضت تطبيق الاجراءات الدستورية، وإنشاء حكومة ديمقراطية تكون الغالبية فيها للعرب وفقاً لتفوقهم العددي، وذلك خشية وقف عملية تهويد فلسطين وبناء البوطن القومي فيها. وبدلاً من ذلك، اقترحت حكومة الانتداب إقامة مجلس تشريعي في البلاد، يتألف من العرب واليهود، ولكن العرب رفضوا ذلك، لأن الاعضاء العشرة المنتخبين من العرب يمكن ان يتفوق عليهم بالتصويت الاعضاء العشرة الرسميون، والعضوان الصهيونيان المنتخبان. كها لأن تعيين اعضائها كان بيد المندوب السامي. وفضلاً عن ان قبول ذلك معناه الاعتراف بشرعية وعد بلفور والانتداب، والعرب لم يعترفوا بهها قط.

وكانت الحكومة البريطانية توفد (لجان التحقيق) في أعقاب الاضطرابات، وكانت تقاريرها متشابهة: رغبة العرب في الاستقلال، وكرههم وتخوفهم من أن تأسيس الوطن القومي اليهودي يؤدي الى حرمانهم من وطنهم. وبعد ان تزايد حجم المجرة اليهودية، نتيجة تآمر الحكم النازي في المانيا مع الحركة الصهيونية في معاهدة (الهاڤارا) أي مرور اليهود الالمان وتهجيرهم الى فلسطين، حتى بلغ درجة (الغزو)، وبعد ان هاجر عام ١٩٣٥ وحده ٢٦ ألفاً من اليهود، عدا الالآف التي دخلت فلسطين

بتغافل عن أعين السلطة، ثارت نفوس العرب، وقـد يئسوا من ١٩٣٦، واتخذت طابع الشمول العـربي، لاشتراك كشير من ابناء البلدان العربية في معاركها. وقدمت اللجنة الملكية (بيل) للتحقيق، واقترحت لحل مشكلة فلسطين، أن تقسم البلاد الى ثلاثة اقسام: قسم عربي يضم الى دولة شرقي الأردن، وقسم يؤلف دولة يهودية، وقسم ثالث يبقى تحت الانتداب، ويشمل القـدس وبيت لحم. . فاستنكـر العرب التقسيم، وتـابعوا الشورة حتى اضطروا الحكومة البريطانية الى العـدول عنه. وانعقـد مؤتمر الماثدة المستديرة في لندن (مطلع ١٩٣٩)، ودعى اليـه ممثلو العرب واليهود، وممثلون عن البلدان العربية المعنية، وأسفر عن مقترحات بريطانية لم يرض بها الطرفان، غير أنها نشرت في كتاب أبيض، في وقت بدت فيه نذر الحرب العالمية الثانية بكل وضوح. واقترح الكتاب الأبيض (ايار /مايو ١٩٣٩) إقامة دولـة فلسطينيـة مستقلّة ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة في نهاية عشر سنوات، وتحدد الهجرة اليهودية بـ٧٥ الفا موزعين على خمس سنوات، بعدها تصبح خاضعة لموافقة العرب. وانقسم العرب بين من ابدى استعداده لقبول هذه السياسة مع شكه في إخلاص الحكومة البريطانية، وبين من رفضها لأنها لا تلبي تماماً أماني العرب الفلسطينيين. اما رد الفعل الصهيوني فكان الرفض التمام والتنديـد بهذه السياسة. وفي أيـار /مـايــو ١٩٤٢، انعقــد مؤتمــر بيلتمـور الصهيــوني في نيويورك، وأصدر بياناً رفض فيه الكتاب الأبيض، وطالب بتحويل فلسطين الى كومنولث يهودي، وعلى أساس هذا البرنامج طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية في أيار/مايو ١٩٤٥ اعتبار فلسطين (دون تجزئة أو نقصان) دولة يهودية، وتخويل الوكالة اليهودية حق الإشراف على الهجرة اليهودية، علماً بأن اليهود كانوا يشكلون وقتذاك ٣١ بالماثة فقط من مجموع السكان، ويمتلكون نحو ٥,٥ بالمائة من اراضي فلسطين.

وأعلن بيفن وزيس الخارجية البريـطانيـة، في منتصف تشرين الثانى /نوفمس ١٩٤٥ بياناً أكد فيه اتفاق بريطانيا والولايات المتحدة على الإشتراك في حل المشكلة الفلسطينية، ووصلت الى فلسطين لجنة انكلو ـ امريكية لـدراسة المـوقف عن كثب، ورحب اليهود بتوصيات اللجنة المحابية لهم، بينها استنكرها العرب. وأحيلت القضية الى الأمم المتحدة، فتقرر إرسال لجنة دولية، أوصت في تشرين الثـاني/نوفمـبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وإنشـاء دولة يهودية في افضل اقسامها، ودولة عربية في القسم الباقى منها، ضاربة عرض الحائط بحقوق عرب فلسطين الشرعية. واتفقت البلدان العربية على ان تدخل جيوشها فلسطين بعد انسحاب القوات البريطانية منها لحماية عرب فلسطين والمحافظة على حقوقهم من عدوان العصابات الإرهابية اليهودية. وتمكنت (اسرائيـل) التي أعلن قيامهـا في ١٥ أيار /مـايو ١٩٤٨، من ربط العمل العسكري بالعمل غير العسكري، وفي الوقت نفسه أحكمت العمل العسكري ذاته لتأمين عناصر النجاح المادية في ميدان المعركة. ومعلوم ان أهم العمليات الحربية الاسرائيلية جرت منذ منتصف تشرين الاول/اكتوبر، وانتهت بتوقيع البلدان العربية اتفاقيات الهدنة مع اسرائيل. لقد زعمت (اسرائيل) أن حقها في ما احتلته من فلسطين يستند الى حق الفتح، والبحث العلمي يؤكد أن العرب لم يخوضوا حرباً جديرة بالإسم، ويستشهد بوثائق الأمم المتحدة ليبرهن أن أهم ما احتلته تم اثناء الهدنة التي فرضت على العرب. وبعد الهدنة اصبحت الدولة اليهودية تسيطر على ٤٠, ٧٧ بالمائة من فلسطين بدلاً من ٤٧, ٥٦ المنائة المخصصة لها بموجب مشروع التقسيم. وكان مجموع ما امتلكته من الأراضي في المنطقة التي استولت عليها لا يزيد على المتلكته من الأراضي في المنطقة التي استولت عليها لا يزيد على المتلكته من الأراضي في المنطقة التي استولت عليها لا يزيد على (٥٠٠٤٠) فدادين.

العراق

كان العراق في العهـ العثماني يضم ولايـات الموصـل وبغداد والبصرة، إلا أن بعض أقسام الولايات الأخيرة بقي خـارج حدود العراق مثل قضاء الكويت ومتصرفية نجد.

وبعد أن عاين العراقيون في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أسلوب الادارة العسكرية البريطانية القائم على القمع والارهاب والبطش، أدركوا ان بريطانيا راغبة في ابقاء العراق تحت السيطرة الامبراطورية المباشرة. ولذا طالبوا بمنح العراق الحقوق السياسية

الكاملة أسوة بالدولة العربية في دمشق، التي كانت تعلن دائماً تأييدها المطلق لاستقلال العراق، وللاتحاد معه على اساس فيدرالي. وكان لا بد ان تنشب الثورة العراقية بعد اعلان مقررات سان ريمو (نيسان /ابريل ١٩٢٠) بتوزيع الانتدابـات على اقـطار الهلال الخصيب بين بريطانيا وفرنسا. واستمرت الشورة خمسة اشهر، ولم تتوقف الا بعد أن تعهد الإنكليز بانشاء دولة عربية في العراق برئاسة شريف عربي يختاره الشعب. وبعد أن أطاح الفرنسيون بالدولة العربية في الشام، وأزاحوا الملك فيصل عن حكمها، تقرر مفاتحته بملكية العراق. وفي آب /اغسطس نصّب على عرش العراق بعد استفتاء شعبي. وحين طلب العراق الاستقلال التام، أجابت بريطانيا بمعــاهدَّه لا تختلف في جــوهــــا عن الانتداب (١٩٢٢). وهددت بريطانيـا وأنذرت بـأن المعاهـدة يجب المصادقة عليها، وإلا فأنها ستعيد الحكم المباشر الى العراق. واستغلت مسألة الموصل التي كانت موضع مطالبة ملحة من تركيا، ووافق المجلس النيابي مكرهاً على المعـاهدة (١٩٢٦) شرط أن تحافظ بريطانيا على حقوق العراق في ولاية الموصل بأكملها. وترسخ النفوذ البريطاني بفضل هذه المعاهدة، والمعاهدة التي تلتها عام ١٩٢٧، ولا سيها معاهدة ١٩٣٠ التي أكدت على استقلال العراق وتحالفه مع بريطانيا، وحددت مدتها بخمس وعشرين سنة، وسمحت بدخول العراق عصبة الأمم عـام ١٩٣٢. ولم يلبث الملك فيصـل أن اعتلت صحته وتــوفي عــام ١٩٣٢ في بــرن بسويسرا، فخلفه ابنـه الملك غازي الـذي شهـد عهـده انقـلابــاً

عسكرياً بقيادة بكر صدقى (تشرين الأول /اكتوبـر ١٩٣٦) ورضى غازي عن الانقلاب لأن قائده كان يكره الاستعمار ويمقت الانكليز. ولكن أخذ على حكومة الإنقلاب تقرّبها من تركيا بعقـ د ميثاق سعد آبـاد معها ومـع إيران وافغـانستان (١٩٣٧)، بحجـة تأمين سلامة هذه الدول، والوقوف في وجه التهديد الفاشي وقتـذاك. وبرغم انهيـار الميئاق وقلة جـدواه، فقد سجـل انحراف التوجه العراقي الرسمي عن الأهداف القومية العربية. وبعـد القضاء على بكر صدقى ومعاونيه، تسلم قيادة الجيش نفر من الضباط ذوي النزعـة العربيـة الذين يـرغبون في أن يكـون الجيش جيشاً عربياً يخدم القضايا القومية، لا جيشاً عراقياً تهيمن عليه البعثة العسكرية البريطانية. وفي نيسان /ابريل ١٩٣٩ لقى الملك غازی حتفه فی حادث سیارة قرب بغداد، فانتشرت شائعات بأن للانكليز يدا في تدبير الحادث، كان عاقبتها مقتل القنصل الانكليزي في الموصل.

والحق ان العراق بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٩ كان موثل الفكرة العربية وأمل روادها، وبناء الدولة في هذه الفترة كان في معظمه بناء قومياً عربياً. لقد برزت النزعة الاتحادية العربية في العراق في كل مجال، تؤيدها جهود العراقيين ومناشط احزابهم وأنديتهم، إضافة الى جهود الملك والحكومة، ويحفزها شعور بالسخط على الانكليز الذين عملوا على تجزئة الوطن العربي وتقسيمه الى اقطار منفصلة، وتحكموا في خيراتها وأبنائها، وسلموا فلسطين للاستعهار

الصهيوني الاستيطاني. فلا عجب إذا كانت ثورة رشيد عالى الكيلاني في مطلع ايار /مايو ١٩٤١ نتيجة منطقية لغضب العراقيين من فعال بريطانيا منذ أمد طويل. ولكن بريطانيا استغلت الشورة بعد اخمادها، لاحكام سيطرتها على العراق بـاكمله، وتصفية الضبـاط القـوميـين، وعــزل العــراق عن التيــار التحرري العربي. وفي مطلع عام ١٩٤٨، أبـرمت بريـطانيا مــع العبراق معاهمة بورتسموث، فرفضها الشعب، وبمذلك ظلت معاهدة ١٩٣٠ سارية المفعـول حتى الغيت عام ١٩٥٥ حـين أبرم ميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط (حلف بغداد) بسين تركيسا والعراق، وانضمت اليه باكستان وايران وبريطانيا، وباركته الولايات المتحدة لأنه يقاوم القومية العربية وتيارها المتحرر المتمثـل في سورية ومصر، ويعمل على التمكين لاسرائيل والاستعمار في المنطقة العربية. ولم تلبث ان قامت ثـورة تمـوز/يـوليـو ١٩٥٨ فأطاحت بالملكية وأخرجت العراق من حلف بغداد. وتولى رئـاسة الجمهورية العميد عبدالكريم قاسم، فانقسم رجال الثورة في عهده، وانحرف العراق عن نهجه القومي لحساب التيار الشعوبي، مما أدى الى الإطاحة بقاسم، واستلام عبدالسلام عارف الحكم على إثر ثورة شباط/فبراير ١٩٦٣. واستطاع عارف ان يـوحـد الشعب العراقي باتجاه مبادئه ومصالحه، الى ان وافته المنيـة في حادث سقوط طائرتـه (١٩٦٦)، وبعد ان تـولى أخوه عبـدالرحمن الحكم لخمسة عشر شهراً، استلم حزب البعث العربي الاشتراكي

زمام السلطة، وانتخب أحمد حسن البكر رئيساً للجمهـوريـة في تموز/يوليو ١٩٦٧.

المملكة العربية السعودية

كانت متصرفية نجد التي نشأ فيها آل سعود، تابعة (اسمياً) لولاية البصرة، وتضم قضاءي القطر والقطيف. وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت الرقعة الارضية للمملكة العربية السعودية الحالية مقسمة الى أربع وحدات سياسية، وهي إمارة آل الرشيد في جبل شمر شالي نجد، ويحكمها ابن الرشيد في حائل، وسلطنة آل سعود في نجد والحسا والجبيل وتوابعها، ويرشها عبدالعزيز آل سعود في الرياض، والمملكة العربية الهاشمية في الحجاز، ويحكمها الملك حسين بن علي في مكة، وإمارة الادارسة في عسير، ويحكمها السيد محمد الأدريسي. وكان التنازع والخلاف يسيطران على العلاقات بين هذه الوحدات الأربع. واستطاع عبدالعزيز آل سعود خلال عشر سنوات أن يقوم بحركات عسكرية أدت الى السيطرة على هذه الوحدات السياسية وضمها عسكرية أدت الى السيطرة على هذه الوحدات السياسية وضمها تحت رايته.

قام اول نزاع بين عبدالعزيز والحسين حول تحديد الحدود بين الحجاز ونجد، وهزمت قوات الحسين التي قادها نجله عبدالله امام القوات السعودية في تربة (١٩١٩). ثم توجه عبدالعزيز للقضاء على امارة آل الرشيد، ونجح في ذلك عام ١٩٢١، ووحد

بذلك جميع أقسام نجد. وفي الوقت الذي تدهـورت فيه عــلاقات الحسين مع بريطانيا، نتيجةنكولها عن وعودها للعرب، واقتسامهــا اقطار الهلال الخصيب مع فرنسا، ولذا فقـد مسانـدة بريـطانيا في الجولة الحاسمة مع عبدالعزيز عام ١٩٢٤ و١٩٢٥. ذلك ان عبدالعزيز اغتاظ لأنَّ الحسين أعلن نفسه (خليفة على المسلمين) في ربيع ١٩٢٤، بعد الغاء اتاتورك منصب الخلافة، واتخذ من ذلك ذريعة لإزاحة الحسين عن المسرح السياسي للجزيرة العربية، فعبرت قواته حدود الحجاز واستولت على الطائف ثم على مكة، وتنازل الحسين عن الملك لنجله على الذي انسحب الى جـدة، ولم يلبث أن غادرها الى بغداد حيث عاش في كنف اخيه الملك فيصل. واصبح لقب عبدالعزيز في مطلع عام ١٩٢٦ (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها). ولم يلبث أن مدّ حمايته على إمارة الأدارسة في عسير بعد ان استنجد الأدريسي به لحمايته من الامام يحيى حميد الدين في اليمن، الذي احتل الحديدة وهدد منطقة عسير عام ١٩٣٠. وفي عـام ١٩٣٢ أعلن عن توحيـد نجد وملحقاتها والحجاز وعسير في مملكة واحدة اطلق عليها المملكة العربية السعودية. وكان من الطبيعي ان لا ينظر الامام يحيى بارتياح الى تـوسع الحكم السعـودي في عسير المتـاخمة لليمن، وان تحدث خلافات شديدة بين الملكين حول تحديد حدود بلديها أدت عام ١٩٣٤ الى نشوب نزاعات لفرة قصيرة بينها، وانتهت بعقد معاهدة الطائف. ولم يحدث بين البلدين ما يستحق الذكر بعد هذا التاريخ، حتى قيام الثورة اليمنية ضد الامامة عام ١٩٦٢.

وأكدت معاهدة الطائف رابطة (الأخوة العربية والصداقة الاسلامية)، واعترف كل من العاهلين باستقىلال مملكة الآخر، ولكنهما صرحا بأن شعبيهما يؤلفان أمة واحدة بفضل الجنس العربي والدين الاسلامي (المادة ١٦) كها أن المادة (٢٠) تنص على أن كلاً من الفريقين المتعـاقـدين، يمكن ان يخـوّل ممثليـه في الخــارج حق تنسيق جهودهم للوصول الى سياسة موحدة لمصلحة (أمتهم الواحدة). وقد اعتبرت معاهدة الطائف نموذجـــاً احتذاه العــاهل السعودي في نيسان/ابريل ١٩٣٦ لابسرام (معاهدة الاخاء والتحالف العربي) مع العراق. بناء على «الروابط الاسلاميـة والوحـدة القومية التي تجمعهما»، وترك الباب مفتوحاً امام البلدان العربية الأخرى الراغبة في الإنضمام الى هـذه المعاهـدة، وبخاصـة اليمن التي انضمت اليها بالفعل في نيسان /ابريـل ١٩٣٧. وسارع عبدالعزيز لتلبية دعوة سصر وتوقيع معاهدة سعودية ــ مصرية تعيــد العلاقات الودية بين البلدين التي انقطعت بعد حادثة المحمل عام ١٩٢٦. ولا شــك في أن تحسّن روابط الاخــوة العــربيــة بــين السعودية والعراق واليمن، قد دفع التضامن العـربي خطوة كبـيرة الى الامام، وبدد جانبا من غيوم الشك والريبة التي كانت تسمم جو العلاقات بين الحكام العرب، كما خففت من حدة الخصومة بين الهاشميين والسعوديين، وحلَّ مشكلة الحدود بين العراق والسعودية. والفضل في ذلك يرجع الى كياسة عبدالعزيز السياسية، وإلى الوطنية الواعية للملك فيصل الذي مـ يده الى عبد العزيز قائلًا: «كلنا في خدمة الأمة العربية». ويلذكر ان المملكة العربية السعودية كانت إحمدى المدول السبع التي تألفت منهـا جامعـة الدول العـربيـة عـام ١٩٤٥. ولم يلبث النفط اللذي اكتشف في الشلاثينات، ان تفجر بكميات تجارية بعد الحرب العالمية الثانية، وتعاونت السعودية مع شركـات أمريكية لاستخراجه ونقله وتسويقه، بعـد تـوثيق العـلاقـات السعودية ـ الامريكية في عهـد الرئيس روزفلت، الـذي عـاهـد عبدالعزيز بانه لن يجري تغيير أوضاع فلسطين إلا بمشورة العرب واليهود. ولكن ترومان الذي خلف روزفلت نكث بهـذا التعهد، ودعا الى إدخال مائة الف يهـودي الى فلسطين (١٩٤٦)، فـاحتج عبدالعزيز بشدة ضد هذا التحيّز الفاضح للصهيونية والمناقي للتعهدات الامريكية السابقة. وشاركت السعودية في الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ١٩٤٨ بارسال كتيبة حاربت مـم الجيش المصري. وتوفي الملك عبدالعزيز عـام ١٩٥٣، وخلفه ابنــه الاكبر سعود، وقد شهد عهده معركة الاحلاف الغربية (١٩٥٥) التي ناوءتها السعودية، ووحدت جهودها مع مصر وسورية والاردن، ثم وقفت ضـد العـدوان الثـلاثي عـلى مصر (١٩٥٦). وفي عـام ١٩٦٥ نصّب الملك فيصل مكان أخيه سعود الـذي عاش في مصر للعلاج، وتوفي فيها عام ١٩٦٨. ونهض فيصل بالبلاد نهضة شاملة، ورسّخ سياسة التضامن الاسلامي، وأرسل قوات للدفاع عن الأردن في حرب حزيران/يونيـو ١٩٦٧، ولكن سرعة انتهـاء الحرب لم تمكّن تلك القوات من المشاركة فيها. وفي مؤتمر الخرطوم الـذي انعقد لتعـزيز صمـود أقطار المـواجهة العـربيـة، ولتحسـين العلاقات بين مصر والسعودية، بعد حل المشكلة اليمنية، كان حضور السعودية حضوراً فعالاً مؤثراً ساهم في إنجاح المؤتمر.

اليمن

كانت ولاية اليمن هي الوحدة السياسية الخامسة التي خضعت للسيادة العثمانية (الإسمية)، وكانت تضم ألوية صنعاء والحديدة وعسير وتعز. وقـد خرجت اليمن مستقلة بعـد الحرب العالمية الأولى، ويـرجع الفضـل الى الامام يحيى حميـد الـدين في ظهور اليمن الحديثة، وحمايتها من أطهاع الدول الاستعماريـة، ولا سيم انكلترا التي كانت تجاور اليمن في عدن والمحميات. وكان الامام يرى أن عدن والمحميات تقع ضمن دائرة نفوذ وأملاك أجداده. وقد ارتبط الامام مع ايطاليا بمعاهدة صداقة وتجارة (١٩٢٦) إذ وجد ما يـوازن ضغوط انكلترا عليـه، كي يتنازل عن حقوقه ومطالبه في الجنوب اليمني المحتل، في فـترة تجددت فيهــا الاشتباكات بينـه وبين الـبريطانيـين عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨. وقـد استغلت انكلترا مصاعب الامام مع السعوديين في الشمال، ومع قبائل حاشد وبكيل الزيدية المتعصبة، لدفعه نحو التفاوض، وتوقيع معاهدة صداقة وتعاون (شباط/فبراير ١٩٣٤)، اعترفت فيها انكلترا باستقلال اليمن المطلق، ونصت على أن يؤجل البت في مسألة الحدود الجنوبية اليمنية، إلى أن تجرى مفاوضات بشأنها قبل انتهاء مدة المعاهدة، وهي ٤٠ سنة. وظلت اليمن موصدة في وجه الأجانب، وقد اتَّرت سياسة الامام هـذه عـلى اليمن لأنها عزلتها عن تيار الحضارة العالمية الحديثة، وقـد حكم الامام يحيى اليمن مدة تقارب النصف قرن (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨)، حرص خلالها على هذه السياسة، خوفاً من سيطرة الدول الكبرى، ولكنه ارتبط بمعاهدة البطائف مع السعودية (١٩٣٤)، وانضم الى معاهدة الصداقة الاسلامية والاخاء العربي (١٩٣٦). وظل الاعتبار الاسلامي يطغى على الاعتبار القومي العربي، كما كان بالنسبة للسعودية. كذلك كانت اليمن من مؤسسي جامعة الدول العربية (١٩٤٥)، ولم تخرج عن عزلتها الا في عهد الامام أحمد، اللذي تولى الحكم بعد مقتل أبيه الامام يحيى في انقلاب فاشل (١٩٤٨)، فسمحت للخبراء الاجانب بالدخول الى البلاد، وزاد تعاونها مع البلدان العربية الشقيقة، وأبرمت في جدة (ربيع ١٩٥٦) أتفاقية ثـ لاثيـة للدفاع المشـترك بـين اليمن ومصر والسعودية، ثم عقدت عام ١٩٥٨ ميثاق اتحاد الدول العربية مع الجمهورية العربية المتحدة. ولم يلبث ان تولى الامام البدر حكم اليمن بعد وفاة ابيـه أحمد. ولكن الجيش اليمني قــام بثورة بقيــادة عبدالله السلال، أطاحت بحكم الإمامة، وطلبت معونة الجمهورية العربية المتحدة (مصر) لحماية النظام الجمهوري ضد النظام الملكى الذي تزعمه البدر. واستمرت الحرب الأهلية بين النظامين خمس سنوات حتى عام ١٩٦٧. وابـدى الجمهـوريـون اليمنيون بعض التقارب مع السعودية التي كانت تساند الملكيين، وانتهى الأمر بتعايش الطرفين في اليمن والحفاظ على النظام

الجمهوري مع إشراك بعض الملكيين في حكومة الجمهوريمة الجمهوريمة

مصر والسودان

لم تتغير حدود مصر عما كانت عليه في العهد العثماني، كذلك الحال بالنسبة للتشكيل السياسي الذي عرف باسم (السودان المصري ـ الانكليزي) وقد استغلت بريطانيـا قيام الحـرب العالميـة الأولى لتشديد قبضتها على مصر، وأعلنت أن السيادة الشرعية (الإسمية) للدولة العثمانية قد زالت بعد ان دخلت الدولة الحرب ضد الحلفاء، وإن مصر قد وضعت تحت الحماية البريطانية. واحتمل المصريون كثيرا من أعباء الحرب وآلامها، إذ رأوا انفسهم غرباء في بلدهم الذي تحوّل الى معسكر هائـل يتزاحم فيــه أخلاطً الجند، وتشنّ منه الغارة على دولة الخلافة العثمانية برا وبحراً، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء، وشهدت مصر نهضة وطنية تزعمها سعد زغلول الذي حصل على تأييد جماهيرى قوى تمكن بفضله من فرض تغيير جـذري في حالـة مصر السياسيـة. وقابـل سعد المندوب السامي البريطاني في القاهرة، عل رأس وفيد من الزعماء المصريين، وطلبوا السماح لهم بالسفر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح، ولكن طلبهم رفض، وحينئذ تألف حزب (الموفد) بـزعامـة سعد زغلول، وأرسـل لمعتمدي الـدول احتجـاجـا عـلي تصرفات بريطانيا في مصر، فاعتقلت السلطة سعدا وصحبه، ونفتهم الى جزيرة مالطة، واثـر ذلك التهبت الثـورة في الأرياف والمدن، وعمت الاضطرابات، واصطدم الوطنيون بالإنكليز. وأمر المندوب السامي الجديد (اللنبي) بالإفراج عن زغلول ورفاقه والسماح لهم بالسفسر الى باريس، ولكن مؤتمر الصلح خيّب آمالهم، وأقرِّ الحماية البريطانية على مصر، ولجأ المندوب السامي الى اعتقال سعد والوطنيين، للتهوين من شأن المعارضة الشعبيـة، والتقليل من احتمال نشوب اضطرابات جديدة. ولكن هذا التدبير أثار البلاد واصبحت في حالة غليان، تزايد بنقل الزعماء الي جزيرة سيلان ومنها الى جزر سيشل في أواخر عام ١٩٢١. وتحقق اللنبي انه لن يظفر بتعاون الساسة المصريين إلا بالغاء الحماية، فسلمت حكومته بـوجهة نـظره، وأعلنت تصريح ٢٨ شبـاط /فبرايـر عام ١٩٢٢ المتضمن الغاء الحماية واعتراف بريطانيا بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، على أن تحتفظ لمطلق رأيها بأمور أربعة هي : تأمين مواصلات الامبراطورية في مصر، الدفاع عن مصر، حماية الاجانب والاقليات، والحفاظ على مركز بريطانيا في السودان. ومضت سنة كاملة قبل اعلان المدستور، لأن المندوب السامي طلب حذف النصوص الخاصة بالسودان، وفي آذار/مارس ١٩٢٣ أعلن السلطان احمد فؤاد ان مصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة، وتنــآزل عن حقه في لقب ملك مصر والســودان. وفي تموز/بــوليــو ١٩٢٣ تنازلت تركيا في معاهدة لوزان عن كل حقوقها في مصر والسودان. وعماد زغلول ورفاقه من المنفى حيث هماجم حـزب الوفد الدستور بشدة أكسبته اكثرية ساحقة في الانتخابات (١٩٢٤) فدعى لتشكيل الوزارة. وأصر سعد على مفاوضة حكومة لندن على استقلال مصر التام وسحب القـوات البريـطانية منها، فانقطعت المفاوضات، ثم استمرت طويلًا حتى انتهت في آب /أغسطس ١٩٣٦ بابرام معاهدة صداقة وتحالف بسين البلدين، عقدها مصطفى النحاس خليفة سعد الذي كان قد توفى عام ١٩٢٧. وقد حددت المعاهدة مركز بريطانيا في مصر عملي أساس إنهاء الاحتلال، على ان تحتفظ بريطانيا بقاعدة عسكرية في منطقة قناة السويس، وعلى أن تعود القوات المصرية الى السودان، مع الاعتراف بأن الهدف من الحكم الثنائي هو رفاه السودانيين. وفي عـام ١٩٣٧ ألغيت الامتيازات الأجنبية، وبذلـك أزيـح عن كاهل مصر عبء الاشراف الدولي الذي طالما أبهطها. وبعد أن تولى الملك فاروق سلطاته الدستورية في صيف عــام ١٩٣٧، عاد الصراع الى الظهور بين القصر وحزب الـوفد، وانشق عن حـزب الوفد (الهيئة السعدية)، وعشية الحرب العالمية الثانية، ألفت وزارة على ماهر من السعديين والمستقلين.

وعلى الرغم من التضحيات الجسام التي بذلتها مصر من اجل نصرة الحلفاء، فان الإنكليز تشبثوا باحتلال منطقة القناة، ولذا لجسات مصر في صيف ١٩٤٨ الى مجلس الأمن وطلبت جلاء القوات البريطانية عن أرض وادي النيل، وانهاء النظام الإداري القائم في السودان، ولكن مجلس الامن الخاضع لسيطرة الدول الكبرى، أوصى باستمرار المفاوضات المباشرة بين الطرفين المتنازعين. وفي تشرين الاول /اكتوبر ١٩٥١، أقدمت مصر على

الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي الحكم الثنائي في السودان. وقابل الشعب ذلك بالبهجة والحماسة، وتخلى العمال المصريون عن أعمالهم في المعسكرات البريطانية في القناة، وشن شباب الجامعات حرب عصابات ضد القوات البريطانية هناك. واستجاب الجيش المصرى لمطالب الشعب، فأعلن في ٢٣ تمـوز/يوليـو ١٩٥٢ الثورة على الاستعمار الرابض فوق وادي النيل وعلى فساد الحكم الملكى ورجال الاحزاب، وألغيت الملكية وقامت الجمهورية (حزيران/يونيو ١٩٥٣). ورأى قادة الثورة ان يقطعوا الطريق على دسائس الانكليز، فاعلنوا انهم يـوافقون عـلى أن يتولى السـودان حق تقرير مصيره تحت اشراف دولي، وان عليمه ان يختسار الاستقلال التام او الاتحاد مع مصر. فاضطر الانكليز في شباط/فبرايـر ١٩٥٣ ان يوقعـوا مع مصر الشورة اتفاقيـة خاصـة بمستقبل السودان، نصت على وحدة القطر السوداني وحقه في تقرير مصيره.

وفي أواخر عام ١٩٥٣ فاز الحنرب السوطني الاتحادي في السودان بأكثرية المقاعد، وفي تشرين الشاني/نوفمبر ١٩٥٥ تم انسحاب الجيشين المصري والانكليزي من السودان، وقرر البرلمان السوداني في كانون الاول/ديسمبر اعلان الاستقلال، واعترفت مصر ثم بريطانيا على الفور باستقلال جمهورية السودان التي انضمت الى جامعة الدول العربية في مطلع ١٩٥٦.

وتـوصلت مصر الى اتفاق مع بـريـطانيـا في تشريـن

الاول/اكتوبر ١٩٥٤ على جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ توقيع الاتفاق. واغتنمت مصر فرصةالعدوان الثلاثي عليها في نهاية تشرين الاول / اكتوبر ١٩٥٦ لتعلن سقوط الاتفاق المذكور، والتحرر من الزاماته.

وفي السودان قام اللواء ابراهيم عبود بانقلاب عام ١٩٥٨، فحل مجلس القيادة، وحكم البلاد حكماً عسكرياً شدد المقاومة ضده، فشارت البلاد واعلنت سقوطه (تشرين الاول/اكتوبر ١٩٦٤) وتشكلت حكومة ائتلافية عادت بالسودان الى الحياة الديمقراطية. وفي عام ١٩٦٩ قام اللواء جعفر النميري بثورة تولى الحكم على اثرها كرئيس للجمهورية، ولم يلبث أن اطيح به في حزيران/يونيو ١٩٨٥.

عُيان

 يؤخذ رأيه في منحه، بيد أن المشكلة اختفت بعد ان توقفت الشركة عن التنقيب مع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وتزايد النفوذ البريطاني في عهان منذ الحرب العالمية الاولى، وضمت حكومة السلطان تيمسور بن سلطان (١٩١٣ ـ ١٩٣٢) عدد كبيراً من المستشارين البريطانيين المذين تركزت السلطة في ايديهم. وتنازل تيمور عن الحكم لابنه سعيد عام ١٩٣٧، وقد تم عام ١٩٣٩ عقد معاهدة صداقة وتجارة وملاحة مع بريطانيا الغت معاهدة ا١٨٩١ التي نصّت على عدم التنازل عن اراضي السلطنة دون موافقة بريطانيا، ولكن المعاهدة الجديدة تضمنت عدة قيود انتقصت من سيادة عهان، مثل منح القناصل البريطانيين سلطات قضائية بالنسبة للاجانب، وتمتع بريطانيا بحقوق الدولة الاكثر رعاية في المسائل التجارية. . . ولكن خُففت هذه القيود في اتفاقية ١٩٥١ التي جُددت بعد ١٠ سنوات، ولم يعد يفصل عهان عن الاستقلال سوى ان تطلب حكومتها الاعتراف بها.

وتمخض الصراع الذي أشتد في الفترة (١٩٥٤ - ١٩٥٩) بين الإمامة والسلطنة، عن انهيار الامامة وتثبيت سيطرة السلطان على المناطق الداخلية، بفعل الاجراءات الوحشية المدمرة التي استخدمتها بريطانيا في مساعدتها البرية والجوية للسلطان، بعد أن تحقق لديها أن فقدان السلطان لعيان الداخل معناه فقدان بريطانيا لها. وما دامت المصالح البريطانية الاستراتيجية والنفطية تقتضي توحيد عهان ومسقط تحت سيطرتها، فليكن شعارها: التوحيد لا التجزئة.

وحين أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من الخليج العربي عام ١٩٦٨، شعر السلطان سعيد بن تيمور بالقلق، وفكَّـر بالارتباط مع اتحاد الامارات العربية، ولكن نزعة المحافظة والعزلة تغلبت عليه. بيد أن مواجهة تهـديد جبهـة تحريـر ظفار اليســارية المدعومة من الصين الشعبية آنذاك، اقتضت نصب حاكم متنور، وفي صيف ١٩٧٠ اضطر سعيد بن تيمـور الى التنـازل عن حكم السلطنة لابنه قابوس بن سعيد، بعد انقلاب ساندته الأسرة الحاكمة. وكان لشركة نفط عهان وظفار التي بدأت استغلال النفط منذ عام ١٩٦٧، ودعم الضباط الانكليز، اليد الطولي في تحرك القوات العمانية الانقلابية. وقد أعلن السلطان قابوس انه راغب في إعادة بناء البلاد، وتوثيق علاقاتها مع البلدان العربية الشقيقة، والانضام الى الجامعة العربية، وصدر مرسوم سلطاني بأن يكون اسم الدولة هـو سلطنة عـمان، بـدلًا من سلطنـة مسقط وعـمان، تعبيرًا عن وحدة السلطنة التي لم تتحقق الا في الفترة الأخيرة.

البحرين

ضاق حاكم البحرين الشيخ عيسى آل خليفة ذرعاً بالتدخل البريطاني، وتعهد للوطنيين بمقاومته. فصمم الانكليز على خلعه، واضرمت دسائسهم نار الفتنة بين السنة والشيعة لنسف تماسك الحركة الوطنية، والقبض على زعائها ونفيهم خارج البلاد. وبالفعل وجه الانكليز اللوم للشيخ عيسى عن حادثة جرت في

المنامة (١٩٢٣)، واعتبروه مسؤولًا عن الإضطرابات، ووجدت حكومة الهند فرصة ذهبية لعزله، ونصب ولي العهد الشيخ حمد مكانه.

ومرت سنوات الحرب العالمية الثانية دون أحداث تذكر في البحرين، باستثناء وفاة الشيخ حمد (١٩٤٢) وتولي ابنه الشيخ سلمان الحكم مكانه. وتشكلت عام ١٩٥٤ هيئة وطنية قادت الرأي العام البحريني ضد الهيمنة البريطانية المتمثلة في (بلكريف) مستشار حكومة البحرين الذي تولى منصبه عام ١٩٢٦، وظل الحاكم الفعلي حتى عام ١٩٥٧، حين اعفته حكومته من وظيفته في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) وتصاعد الانتفاضة الجماهيرية لتحقيق الاستقلال الوطني، واطلاق الحريات العامة، ودعم الارتباط بحركات التحرر العربي الوحدوي. وقابلت السلطات البريطانية الانتفاضة الوطنية بفعال القمع والارهاب والنفي، وحدثت انتفاضة شعبية مماثلة عام ١٩٦٥، ولكن بريطانيا اضطرت لمسايرة الحركة الوطنية وتحقيق بعض مطالبها.

وبعد تعثر مباحثات الاتحاد بين مشيخات ساحل عهان السبع والبحرين وقطر، لانشاء دولة اتحادية عربية، تقرر تشكيل مجلس دولة في البحرين من اثني عشر عضوا، فكان نواة لمجلس الوزراء الذي نشأ بعد اعلان الاستقلال في آب/اغسطس ١٩٧١، حين أعلن الشيخ خليفة رئيس مجلس الدولة، وشقيق أمير البحرين، الشيخ عيسى، بأن البحرين جزء من الأمة العربية، وبأنها تسعى لتحقيق الوحدة العربية.

الكويت

حين توفي جابر عام ١٩٢١ خلفه ابن أخيه أحمد الجابر الـذي حكم الكويت حتى ١٩٥٠، وفي مستهل عهده، سويت مسألة الحدود مع السعودية في مؤتمر العقبير (١٩٢٢) حيث أتفق على إقامة حدود فاصلة بين سلطنة نجد والكويت، كما اتفق على تحديد منطقة محايدة غير محصنة بينهها، ترتادها قبائل الطرفين للتزود بمياه آبارها، كما خططت الحدود بين الكويت والعراق في العام التـالى. وفي عهد أحمـد الجابـر منح امتيـاز التنقيب عن النفط عام ١٩٣٤ لشركة نفط الكويت، فتدفق النفط بغزارة، ولكن اعهال الحفر توقفت اثناء الحرب العالمية الشانية، لتعاود الشركة نشاطها بعد الحرب، ويبدأ تصدير النفط عام ١٩٤٦، ويستهل عهد جديد من الـرخاء والازدهـار والتقدم. وتـولى حكم الكويت بعـد أحمد الجابر ابن عمه عبدالله السالم (١٩٥٠)، وتميز عهده بانحسار المد الاستعماري البريطاني، نتيجة وعي الجماهير والحكام، وفي صيف ١٩٦١ أعلن استقلال الكويت في وثيقتين متبادلتين بين الشيخ عبدالله السالم، والسير وليم كوكس، المقيم السياسي البريطاني في الخليج. وأصبحت دولة الكويت في العام نفسه عضواً في جامعة الدول العربية، ثم في هيئة الأمم المتحدة (1974).

الإمارات العربية في ساحل عمان

وبعد الحرب العالمية الثانية، ونتيجة لاستقلال الهند والباكستان (١٩٤٧) ألغيت حكومة الهند، وأصبحت وزارة الخارجية البريطانية هي المسؤولة عن شؤون منطقة الخليج حتى عام ١٩٦٨، حين أعلنت بريطانيا سياستها الخاصة بالانسحاب من شـرق السـويس، ومنها منطقة الخليج العربي، وتــالياً إلغــاء المعاهدات الانفرادية التي كانت تربطها بشيوخها، تخفيف الاعماء بريطانيا المالية والعسكرية. وبذلك بطل مفعول السياسة الريطانية التي كان لها اكبر الأثر في تأكيد كيانات مشيخات ساحل عمان، أو فصل احداها عن الأخرى، تماشياً مع مبدأ التجزئة الذي اتبعته، إضافة الى عزل الشيوخ المناوئين لها، وإبدالهم بغيرهم. كذلك لم يعـد بمقـدور بـريـطانيـا ان تلعب بمشكـلات الحـدود التي كـانت تؤججها بين المشيخات، والتي أدت الى نزاعات عديدة بينها، نظراً لأن الحدود لم تكن مرسومة ولا محددة، الامر الذي أفسح المجال لمطالب ودعاوى مستمرة من جانب المشيخات أو من الدول المتاخمة لها. والحق ان توصل مشيخات ساحل عمان الى الإتفاق على تشكيل اتحاد الامارات العربية، قد عمل على كسر حدة هذه الخلافات وزوالها تدريجياً، ولا سيها حين انشيء مكتب تطويـر امارات ساحل عمان، وارتفعت مساهمة مشيخة (أبوظبي) الى ما يقارب ٩٥ بالمائة من ميزانية عام ١٩٦٩، وذلك بفضل انفتاح حاكمها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وحسن تصرفه بـ ثروة

النفط الهائلة المكتشفة في مشيخته، وإنفاق ميزانية إتحاد الامارات بسعة على المشيخات دون تمييز بين مشيخة غنية وفقيرة. وفي العام نفسه، تمت تسوية الحدود البرية والبحرية بين أبوظبي ودبي، كما تم الاتفاق بين ابوظبي ورأس الحيمة ودبي وقطر على تسوية قضايا الحدود بينهم.

وكان حكام المشيخات السبع قد بادروا الى الاجتماع في دبي، بعد شهر من اعلان بريطانيا عزمها على الانسحاب من منطقة الخليج، وقرروا انشاء اتحاد للامارات العربية، بهدف تقوية التعاون بينها، وتوحيد سياستها الخارجية، ودعم الدفاع الجماعي عنها. كما قرروا تشكيل مجلس أعلى من حكام الامارات، ووضع ميشاق دائم للاتحاد، وتشكيل محكمة عليا له. وفي تموز/يوليو ميشاق دائم للاتحاد، وتشكيل محكمة عليا له. وفي تموز/يوليو الاتحادية، وتقرر أن يتحول اجتماع الحكام الى المجلس الاتحادي الأعلى، وإنشاء ميزانية للاتحاد تساهم فيها الامارات بنسبة دخل كل منها.

وحاولت كل من البحرين وقطر في الفترة ما بين ١٩٦٨ و١٩٧١ أن تحقق لنفسها مركزا قيادياً في اتحاد الامارات، ولما فشلت، أعلنت استقلالها. وبانسحاب هاتين الدولتين، أصبح الطريق عهدا امام الامارات السبع لاعلان الاتحاد المرتقب في مطلع كانون الاول/ديسمبر ١٩٧١، واختير الشيخ زايد حاكم ابوظبي أول رئيس للولة الامارات العربية المتحدة، كما اختير

الشيخ راشد آل مكتوم حاكم دبي نائباً للرئيس لدة خمس سنوات، ونص الدستور الاتحادي على أن يكون للرئيس ونائبه حق التجديد، بشرط موافقة المجلس الأعلى وهو السلطة العليا في الدولة.

وكان ظهور هذه الدولة المتحدة تصحيحاً للتجزئة التي فرضها الاستعار البريطاني على المنطقة، وعودة الى الوحدة التي عاشتها منذ زمن طويل، والتي تجد ما يؤيدها في الروابط اللغوية والتاريخية، وفي البيشة الجغرافية الواحدة وصلات القرابة بين سكانها. وقد سعى الاستعار البريطاني جاهدا لتحطيمها واحلال النزاع والجفاء مكانها، والوقيعة بين الحكام بحجة الدفاع عن مصالحهم، وتقديم المساعدة لشيخ ضد آخر، أو لامارة ضد اخرى.

قطر

في عام ١٩٣٧ استولى الشيخ عبدالله على ميناء الـزبارة رغم اعتراض البحرين. ثم تولى الحكم بعده ابنه الشيخ عـلي ما بـين ١٩٤٥ ـ ١٩٦٠، وهـذا بدوره تنـازل عن الحكم لـولـده الشيـخ احمد.

وجدير بالذكر انه لم يكن في قطر ممثل بريطاني مقيم، اذ تـولى الممثل البريطاني في البحرين رعـاية المصـالح الـبريطانيـة في قطر، واعتاد الممثل المذكور القيام بزيارات دورية الى الـدوحة. ولكن في

عــام ١٩٤٨، أي حين ابتــدأ تصديــر النفط من قطر، عــين وكيل بــريطاني في الــدوحة، وانضم اليــه منذئــذ مــوظفــون آخــرون من الانكليز بصفة مستشارين في بعض مكاتب الحكومة.

وعانت قطر من مشكلات الحدود مع جاراتها كالبحرين وابوظبي والعربية السعودية، ولكن تمَّت تسويـة الحدود القـطرية ـ السعودية عام ١٩٦٥، كما خفت حدة الخلاف بين قطر والبحرين بشأن الزبارة، وبينها وبين السعودية وابوظبي بشأن خور العـديد، وذلك حين طمحت قطر الى تحقيق مكانة مرموقة في اتحاد الامارات العربية. وعلى اثر اعلان استقلال قطر، انتهت المعاهدة الانفرادية مع بريطانيا، وأعلن الشيخ أحمد آل ثاني في نيسان/ابريل ١٩٧٠ نظاماً اساسياً موقتاً للحكم، نص على ان دولة قطر دولة عربية دينها الاسلام وشعبها جزء من الأمة العربية . . وتعمل على توثيق الروابط بين الدول العربية وتحقيق الوحدة العربية. وفي شباط/فبرايـر ١٩٧٢ قام الشيخ خليفة بن حمد أل ثناني، ولي عهد قبطر ورئيس مجلس البوزراء، بحركة انقىلابية وصل فيها إلى حكم البلاد، واستهدف تحديث الدولة وإقامة مؤسساتها على قواعد عصرية، وتحقيق المزيد من الانفتاح عـلى الوطن العـربي وتنفيـذ العـديـد من المشروعـات الاجتـماعيــة والاقتصادية والعمرانية والتعليمية.

اليمن الديمقراطية

قرر مؤتمر لوزان (١٩٢٣) في أحد مقرراته مصير الامارات الجنوبية، فتخلت تركيا عن سلطتها لأصحاب العلاقة، وبديهي انهم سكان هذه النواحي، يقررون مصيرهم كها يشاؤون. غير ان بريطانيا الحقت هذه النواحي بعدن، دون ان تأبه للمعارضة المعربية من جانب السكان والامام، وربطت شؤونها بحكومة الهند في بومباي. وتوالت الاعتداءات البريطانية الارهابية على الحدود اليمنية حتى عام ١٩٣٣ بعد ان فشلت سياسة بريطانيا في الايقاع بين الزيدية والشافعية، وفي شباط/فبراير ١٩٣٤ وقعت المعاهدة الانكليزية اليمنية، ونص احد بنودها على تأجيل البت في مسألة الحدود اليمنية، على ان يمنع التعدّي من الجانبين.

وأخفق الانكليز في انشاء مشيخات وامارات في القسم الشافعي من اليمن مستقلة عن الامام في صنعاء. وبعد ذلك خشي الانكليز من ضياع الاجزاء المحمية وانضامها الى اليمن، أو اتفاقها مع الامام على وجه يرضي الطرفين، فحاولوا بين عام ١٩٢٥ و١٩٣٥ إيجاد نوع من الارتباط بين سائر السلاطين ليكونوا جبهة واحدة، وعقدت ثلاثة مؤتمرات في لحج بايعاز وضغط بريطانيا، ولكن هذه المؤتمرات باءت بالفشل، لأن السلاطين لم يعجبهم ان ينسجموا في جبهة واحدة، وشكّوا في نوايا بريطانيا. وبعد فشل سياسة تكوين الجبهة الواحدة، رسمت بريطانيا سياسة

جديدة للجنوب العربي تقوم على فصل عدن والامارات الجنوبية عن اختصاص حكومة الهند، وإلحاقها بوزارة المستعمرات مباشرة، وبذلك أصبحت عدن مستعمرة تابعة لوزارة المستعمرات في لندن، أي أنه لم يعترف بأية حكومة أهلية أيا كانت في عدن التي صارت تعتبر جزءا من الأرض البريطانية وسكانها يعتبرون رعايا بريطانيين (١٩٣٦)، وكان من العوامل الفعالة في هذه السياسة الجديدة، تلك البوادر التي دلت على أن الهند في طريقها نحو الاستقلال قريباً.

أما حضرموت، فمنذ أن خلعت طاعة العباسيين لأنهم خضعوا للموالي، ظلت تحكم نفسها بواسطة إمارات تقوى ثم تضعف فلا يطول عهدها، حتى ظهرت إمارة آل كثير أعظم قبائل همدان، واعترفت بسلطة العثمانيين رسمياً، وأرسلت إلى الأستانة هدايا فاخرة منها بعض أسرى الإفرنج في واقعة الشحر مع البرتغاليين. واستولى أئمة اليمن الزيود على حضرموت عام قبيلة يافع الليمارة الكثيرية ضعفت فاستعانت ببعض زعاء قبيلة يافع اللذين استغلوا ضعفها واستقلوا بالحكم في أكثر المناطق، فتمزقت الإمارة الكثيرية، وسادت حضرموت في هذه الفترة فوضى سياسية. ولم تلبث أن ظهرت إمارة فتية أخرى هي إمارة القعيطي إحدى قبائل يافع بقيادة مؤسسها عوض بن عمر القعيطي، فاستولت بعصبية يافع على معظم البلاد، واحتلت ميناء المكلا بمعونة الإنكليز. وكان القعيطي قد عقد اتفاقية معهم ميناء المكلا بمعونة الإنكليز. وكان القعيطي قد عقد اتفاقية معهم

عام ١٨٨٨، فأرسل حاكم عدن بارجة حربيـة لإرغام أمـير المكلا على التنازل عنهـا للقعيطي. واصطرعت الإمارتــان الكثــيريــة في الداخل والقعيطية في الساحل فترة من الزمان. وفي أواخر الحـرب العالمية الأولى، رغب الإنكليز في إثارة مسائل الجنوب العربي في مؤتمر الصلح عن طريق عقد معاهدة مع إماري حضرموت يضمنون بها بسط سيطرتهم على الإمارتين القعيطية والكثيرية، ورفض سكان الداخل المفاوضة، وحدثت مناوشات تخللها حصار اقتصادي ضربه الإنكليز على الكثيرية بحجة صلتها بالقائد العثماني الذي كان يهاجم عدن آنذاك. واضطرت الإمارة الكثيرية بعد حدوث مجاعة أن توقّعُ معاهدة عدن ١٩١٨، واستقر الـوضع بوجود إمارتين في الساحل وفي الــداخل، وتقــرر بعد انعقــاد مؤتمر لوزان (١٩٢٣) أن تبقيا تحت الحماية الـبريطانيـة. ولكن اليمن لم تعترف بحماية بريطانيا على حضرموت، لأنها تعتبر أن الجنوب العربي جزء لا يتجزأ من اليمن. وتدخل الإنكليز في حضرموت مباشرة خلال عام ١٩٣٥ أثناء هجوم إيطاليا على الحبشة، لأنهم رأوا أن يجعلوا من حضرموت قاعدة ارتكاز للدفاع عن عدن وعن الطرق الأمبراطورية للهند، وعينت بريطانيا مستشاراً بريطانياً يقيم في ميناء المكلِّ عاصمة الإمارة القعيطية. وطرأ تبديل عام ١٩٣٧ على علاقة بريطانيا فيها أصبح يسمى (المحمية الشرقية) أي حضرموت، إذ عقد اتفــاق بين بــريطانيــا وسـلطان الشحر والمكــلاً (القعيطي) عين بموجبه مستشار مقيم للسلطنة، وأعقبه اتفاق مماثل عام ١٩٣٩ مع سلطان سيوون (الكثيري). وبموجبها، وافق الحكام المحليون عـلى الأخـذ بنصيحـة المستشـار المقيم في جميـع القضايا، باستثناء ما يخصّ الدين والعادات.

والسلطنة الثالثة هي سلطنة المهرة، وتقع شرق حضرموت، ويحدها من الشرق سلطنة عمان، والمهرة نسبة إلى القبيلة المسماة بهذا الإسم والتي تقطن هذه المنطقة، والسلطنة الرابعة هي سلطنة الواحدي، نسبة إلى الأسرة الحاكمة من آل عبد الواحد وعاصمتها عزّان.

وفي منتصف الثلاثينات، بدأت حكومة عدن تبرم معاهـدات استشارية مع الشيوخ والسلاطين، وخلاصتها أن السلطان أو الشيخ يتعهد بقبول نصيحة حاكم عدن العام في كل ما يراه متفقأ مع «مصلحة البلاد»، وأنه بناء على رغبة السلطان، فإن بريطانيا تقَوم بحياية بلاده، من أي اعتداء، وأن السلطان وخلفاءه وورثتــه يتعهدون بعدم عقد أي اتفاق مع أية دولة أو تأجير أو بيم أو رهن أى جزء من السلطنة لأية دولة أو لشركة إلا بعد موافقة بريطانيا، وأن يمتنع عن الاتصال بأية دولة أجنبية إلا بموافقة بريطانيا. وهذه المعاهدات عقدت مع سائر السلاطين والشيوخ باستثناء سلطان لحج، فلم تكن المعاهدة المعقودة معه تقيّده بهذه الحدود بـل كانت شروطها خفيفة، وينكر سلاطين لحج أنهم وقعوا أية معاهدة حماية مع الإنكليز. وهدف بريطانيا من معاهدات الاستشارة، هو أن معاهدات الحماية لاتفي بالغرض وبأن تطور السياسة العالمية يقتضي ما هو أبعد من الحهاية، وبدأت السياسة البريطانية منذ عام

١٩٣٥ تهدف إلى إتاحة الفرصة لحكومة عدن كي تتدخل في شؤون النواحي الـداخليـة وإيجاد شكــل من أشكــال الإدارة المستقرة. وكانت وسيلة ذلك معاهدات الاستشارة، عقدتها بريطانيا أولاً مع سلاطين حضر موت وشريف بيحان، ثم مع السلاطين الآخرين. ولم تفلح جهودها في إقناع عمد من السلطنات لتوقيع هذه المعاهدات حتى عام ١٩٥٠، مثل سلطنة العوالق العليا، والحواشب، ويافع العليا، والعواذل (العوذلي)، ولحج. ولكن الإنكليز بعد ذلك تدخلوا في شؤون العوالق العليا، بعد أن وقّع ابن شيخها معاهدة الاستشارة معهم. أما يافع العليا فلم يحاول الإنكليز الضغط على سلطانها لأن بلاده حصينة، وليس لها أهمية استراتيجية أو تجارية. وفي عــام ١٩٥٢ استغل الإنكليــز بعض الأحداث الداخلية في سلطنة لحج، فاحتلوا مدينة لحج عنوة، وفرضوا عليها معاهدة استشارة وحماية غير محددة بمدة، وأوعزوا إلى عملائهم من رؤساء القبائل لخلع الفِضل سلطان لحج وتنصيب أخيه على عبد الكريم بعد أن قبل بوجود مقيم مستشار بريطاني لـديه. ولكن محاولة الإنكليـز التـدخـل في شؤون لحج الداخلية والانتقاص مِن مظاهر الحكم الوطني لم تؤد إلى نتيجة، فالمستشار كان مستشاراً شخصياً للسلطان يستعين به متى شاء دون أن يكون له حتى التدخل. وطبيعي أن تنظر سلطات الاحتلال إلى ما تتمتع بـه سلطنة لحج بكثـير من السخط والتـبرم، خشيـة أن تكون قدُّوة للجنوب العربي في صموده وتمسكه بالسيادة والعروبة، وبمخاصة بعد أن رفضت السلطنة مشروع الحكم الذاتي الانفصالي

لمدينة عدن الذي عرضه الانكليز لعزلها نهائياً عن بقية السلطنات، ومشروع الاتحـاد الفيـدرالي في عـامى ١٩٥٤ و١٩٥٦، بـاعتبـاره وسيلة جديدة تحكم قبضتها على عدن والمحميات التي يزيد عددها على الثلاثين، لتجعلها في دولتين متحدتين: الأولى شرقية تحت لواء حضرموت، والثانية غربية تحت لـواء عدن، ولكن حصرت السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية في يـد حـاكم عدن ومستشاريه. واصطدم المشروع بمقاومة المعارضة الـوطنية، ومعارضة السلاطين المذين لم يتخلوا عن امتيازاتهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، إضافة إلى وقوف اليمن والبلدان العربية ضده. وحين وجدت بريطانيا أن لحج صارت مقراً لمعارضـة اتحاد سلطنات الجنوب المقترح، بتأييـد من اليمن والجمهوريـة العربيـة المتحدة، لجأت إلى القـوة والعنف، فاحتلت قـواتها لحـج في ربيع ١٩٥٨، بينها كان السلطان عملي عبد الكريم يومـذاك في لندن، ونصبت أحد أقربائه مكانه. فـاحتج عـلى فعال بـريطانيــا واتهمهـا بخرق المعاهدات واعتقال المواطنين، ومهاجمة القـرى والمدن. ولمـا لم تفلح ضغوط بريطانيا على السلطان لإدخاله في الاتحاد المقــترح، أبلغتــه سحب الاعــتراف بــه، ومنعتـه من العــودة إلى الجنـوب العربي. ورفض المجلس التشريعي في لحج القرار البريطاني، وأكد تمسكه بالسلطان، وطالب بجلاء القوات البريطانية عن لحج.

وحين أبدى أحمد إمام اليمن استعداده للتباحث مع سلاطين الجنوب لتحديد طبيعة العلاقات بينها، شعرت بريطانيا بالارتياح

لأن ذلك يعني اعتراف اليمن ضمناً بكيان السلاطين، والتخلى عن شعار وحدة اليمن الكبير الذي ردده الإمام حين تقارب مع مصر عام ١٩٥٩، ولكن بعض السلاطين تزايد قلقه بعد انضمام اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة بحيث طلب ثلاثة منهم مساعدة بريطانيا لإنشاء اتحاد سلطنات الجنوب، حفاظماً عملي شخصيـة السلطنات والمشيخـات، في حـين رأى سلطان لحـِج أن وحدة اليمن الكبير برئاسة الإمام هي التي تهـدد هذه الشخصيـة. واكتسبت فكرة اتحاد سلطنات الجنوب دعما بانضمام العوالق والضالع، إلى السلطنات الثلاث السالفة الذكر، وحين أنشىء الاتحاد في بدايات عام ١٩٥٩ كان يضم الفضلي والعوالق السفلي ويافع السفلي وبيحان والضالع والعوالق العليا. وبعـد ثمانيـة شهور، انضم سلطان لحج الجديد إلى الاتحاد، وبحلول عام ١٩٦٣ ضم الاتحاد ١٤ عَضُواً معظمهم من المحمية الغربية، وتتمولى بريطانيا الدفاع عن الاتحاد والإشراف على شؤون الخارجية، وتقديم المساعدة المالية لسد العجز في ميزانيته، وتمدريب جيشم، ويتكون مجلس وزراء الاتحاد من حكمام السلطنات والمشيخات على أن يتناوبوا رئاسته. ولإدماج عـدن بالاتحاد في عام ١٩٦٢، اشترطت بريطانيا أن تحتفظ بالسيادة على مدينة عدن وضواحيها، وأن تتولى شؤون الـدفاع والأمن في جميــع الأراضي التابعة لحكومة الاتحاد، كما اشترطت آخراج جمزر بريم وقـورية مـورية وقمـران من التبعية لحـاكم عــدن. وَلَكُن الْحـرُكـةُ الوطنية عارضت هذا الـدمج، ولجـأت إلى أسلوب الكفاح المسلح

منذ أواخر عام ١٩٦٣، فسقط عديد من القتلى والجرحى في السنوات الثلاث الأولى، واضطرت بريطانيا إلى التسليم بالتخلي عن السيادة في عدن، حالما يعلن استقلال دولة الاتحاد قبل عام ١٩٦٨. وفي عام ١٩٦٥ شرعت بريطانيا في تسليم قوة الشرطة إلى حكومة الاتحاد، وفي إنشاء نواة جيش بإشراف سلطان لحج وزير الدفاع.

وحيث تولَّى عبدالقوي مكاوي رئاسة الوزارة العدنية، وكان في صفوف المعارضة سابقاً، طالب بأن يتحقق الاستقلال لـدولة الاتحاد في فترة عام ونصف العام، يتم أثناءها انتخاب جمعية تأسيسية لـوضع الـدستور وإجـراء الاستفتاء حــول اختيار النـظام المركزي أو الاتحادي أو الانضمام إلى اليمن الشمالي، هـذا إلى مطالبته بإلحاق المحميات الشرقية، وأهمها السلطنة القعيطية وعاصمتها المكلا، والسلطنة الكثيرية وعاصمتها سيوون، وسلطنة المهرة (نسبة إلى القبيلة التي تقطنها والتي يحدها شرقاً سلطنة عمان) وسلطنة الواحدي، والاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن. وعبرت بريطانيا عن استيائها من هذه المطالب، لأن عدن ما زالت مستعمرة من الوجهة القانونية، ولأنها رأت أن ثمة صلة بين المكاوي وبين جبهـ تحريـر جنوب اليمن، التي تشكلت في مـدينة تعز اليمنية قبل شهرين من تقديم مطالبه، وهي تسعى لتحقيق وحدة اليمن الشمالي واليمن الجنوبي.

وإذ لم تكترث الحكومة البريطانية بهذه المطالب، ألح المكاوي

على ضرورة تطبيق قرارات الأمم المتحدة لعام ١٩٦٣ بشأن إجراء استفتاء لمعرفة رغبات السكان، وتصفية قاعدة عدن. وأكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في توصيتها الجديدة عام ١٩٦٥ حق شعب الجنوب العربي في التحرر من الحكم الاستعماري وممارسة حق تقرير المصير، ودعت لتصفية القواعد الأجنبية فوراً في جميع أنحاء البلاد، وإطلاق الحريات العامة، ووقف أعمال القمع ضد الشعب، وإنشاء دولة الاتحاد من المحميات الشرقية والمغربية، والجزر القريبة من سواحلها مثل بريم وقورية مورية وقمران.

ورأت بريطانيا أن تلتقي مع الوطنيين المعتدلين في حزب الرابطة العدنية الذي يقف موقفاً وسطاً بين حكومة الاتحاد الموالية للإنكليز، وبين جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل. ولكن نفوذ الرابطة أخذ يتضاءل أمام تصاعد أهمية جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل، والجبهة القومية معاً. وفشلت الجامعة العربية في مساعيها للتوفيق بين هذه القوى المختلفة في أهدافها وتكوينها الاجتماعي، ووقفت حكومة الاتحاد في مواجهة الجبهتين اللتين قررتا اتباع أسلوب الكفاح المسلح، وفي ربيع ١٩٦٧، جرى تنافس شديد على السلطة بين جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل والجبهة القومية، ومع اقتراب موعد الاستقلال، تسابقت الجبهتان في إظهار قوتها، وزاد الصراع حدة. وفي تشرين الأول/اكتوبر انعقد مؤتمر يضم عثلي الجبهتين بالقاهرة، للتباحث في تأليف حكومة انتقالية تتسلم السلطة من الإنكليز وتتفق على برنامج عمل خلال هذه الفترة،

وعلى المبادىء الأساسية لدستور البلاد. ولم يسفر المؤتمر عن نجاح يذكر، وعاد ممثلو الجبهة القومية إلى عدن، وطالبوا بنقل المباحثات اليها، وحين أعلنت بريطانيا عن تقديم موعد جلاء قواتها إلى نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، نشب قتال عنيف بين الجبهتين في مدينة عدن، وبدا تفوق الجبهة القومية على منافستها حين كشف الجيش عن ميله لها، ولذلك بادرت معظم البلدان العربية التي كانت تؤيد جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل، إلى الاعتراف بحكومة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، بزعامة الجبهة القومية، بعد أن أعلنت أنها منذ ٩ تشرين الثاني/نوفمبر تسيطر على جميع أراضي الجنوب العربي.

ليبيا

في ليبيا، بدأ الإيطاليون في أعقاب الحرب العالمية الأولى تنفيذ خطة منظمة للاستيلاء على ليبيا في وجه مقاومة وطنية عنيفة (١٩٢٣)، وأعلنوا إلغاء الاتفاقات المعقودة مع السنوسيين، كها أعلنوا أن الحكومة السنوسية أصبحت منتهية. ولكن لم تخمد جدوة المقاومة الليبية ضد فعال الاحتلال الإيطالي، حتى وقوع المجاهد الكبير عمر المختار في الأسر وإعدامه دون اعتبار لشيخوخته (١٩٣١). وتابع الحكم الفاشي بزعامة موسوليني خطة الإبادة الكاملة ضد جماهير الشعب الليبي، حتى قيام الحرب العالمية الثانية التي انضمت إليها إيطاليا إلى جانب ألمانيا، وأصبح العالمية الثانية التي انضمت إليها إيطاليا إلى جانب ألمانيا، وأصبح

القطر الليبي ميدان صراع عنيف بـين جيـوش المحـور (ألمــانيــــا وإيطاليا) وبين جيوش الحلفاء.

وقد عرضت بريطانيا على السيـد محمد ادريس السنـوسي أن يحارب الليبيون في صفوف الحلفاء ضد إيطاليا لتحرير بلادهم، وبالفعل قاتلت القوات السنوسية الليبية تحت علمها، وتمكنت مع الجيش البريطاني من احتلال برقمة. وانهار الحكم الإيطالي في ليبيــا بعـد أن لحقت الهـزيمـة بقـوات المحـور عـام ١٩٤٢. وبـانتصـار الحلفاء، خضع القسم الجنوبي الذي تقع فيه مدينة (فرَّان) لجيوش فرنسا الحرة، في حين خضع القسم الشمالي الشرقى (برقة) والقسم الشمالي الغربي (طرابلس الغرب) لجيوش بريطانيا. وتطلعت فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول إلى ضم منطقة فزان وإلحاقها بمستعمراتها في أفريقيا. كما طمعت بريطانيا بمنطقة بـرقة وأجلت الإيطاليين عنها، تمهيداً لجعلها إمارة عربية موالية لها. أما منطقة طرابلس، فقد رغبت في إبقاء سيطرة الإيطاليين عليها تحت ستار الوصاية، استرضاء لهم. واتفق وزير الخارجية البريطاني بيفن مع نظيره الإيطالي سفورزا على تقسيم ليبيا إلى ثـلاث منـاطق وصاية بين انكلترا وفرنسا وإيطاليا، وأيدت فونسا ذلـك لأن نشأة دولة عربية مستقلة مجاورة لتونس، أمرّ يهدد حكمها في أقطار شمال أفريقيا، ويشجع العرب هناك على النضال من أجل الاستقلال. وهكذا تعرضت ليبيا للتجزئة، وأنشئت فيها ثـلاث إدارات منفصلة بعضها عن البعض الآخر. ولكن جامعة الدول العربية

تدخلت بقوة، واستطاعت أن تحشد معارضة فعالة أسقطت مشروع بيفن ـ سفورزا في الأمم المتحدة، وإيطالبا نفسها رأت عدم تجزئة ليبيا، حين تأكدت أن الوصاية عليها لن تكون من نصيبها. وأخيراً قررت الأمم المتحدة (تشرين الثاني/نـوفمــبر ١٩٤٩) عدم تجزئة ليبيا، على أن تقوم فيها دولة مستقلة قبـل عام ١٩٥٢، وبذلك حقق الجهاد الليبي هدفه في التحرر والاستقلال، بعد أن دفع ثمنه عشرات الألوف من الشهداء. وكان السيد محمد ادريس السنـوسي قد جـاء إلى برقـة، وشكّـل عـام ١٩٤٨ المؤتمـر البرقاوي العام، كما تألف في طرابلس المؤتمر الوطني الطرابلسي، وضم هيئة تحرير ليبيا بـزعامـة بشير السعـداوي، والجبهة الـوطّنية المتحدة وسواها. وحين أعلن السنوسي تحرير برقة، أرسل المؤتمـر في طـرابلس وفداً إلى بني غـازي اجتمعً مـع السنوسي عــام ١٩٤٩، واتفق معه على قيام وحدة اتحادية بين طرابلس وبرقة برئاسة السنوسي. وفي عام ١٩٥٠ اجتمع مجلس وطني ليبي يضم ستين عضواً، ونادى بالسيد محمد ادريس السنوسي ملكاً على المملكة الليبية المتحدة التي انضمت إلى جامعة الدول العربية عام ١٩٥٣. وفي عام ١٩٥٦ تدفق النفط في الصحراء الليبية بكميات تجارية، فازدهر اقتصاد البلاد، وتقدمت مرافقها العامة. وفي الفاتح من أيلول/سبتمبر ١٩٦٩ قامت الثورة في ليبيا بـزعـامـة العقيد معمر القذافي، فألغت المملكة وأعلنت الجمهورية.

تونس

أما في تونس، فقـد تأثـرت أكثر من أقـطار الشمال الافـريقى بالتيارات الفكرية الوافدة من المشرق العربي، وكان لحركة الاصلاح الاسلامي التي قادها الافغاني ومحمد عبده صدى في النهضة الاصلاحية في تونس التي استمدت أصولها من سياسة الجامعة الاسلامية التي نادى بها خيرالدين باشا التونسي، تقرّباً من الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن التــاسع عشر. وتــأسس حزب تونس الفتاة عام ١٩٠٨ على نسق حزب تركيا الفتاة، بزعامة المحامي علي باش حمبة، فدعا لربط تـونس بدولـة الخلافـة العثمانية، وأصدر جريدة (التونسي) بـالفرنسيـة، وحرر طبعتهـا العربية الشيخ عبدالعزيز الثعالبي. وحدث أول صدام بين التونسيين وسلطات الاحتلال الفرنسي عقب العدوان الايطالي على طرابلس أواخر عام ١٩١١، ودعا باش حمبة العمال التونسيين في شركة الترام الى الاضراب ومقاطعة المؤسسات التجارية الأوروبية، فأبعدته السلطات عن البـلاد مع الثعـالبي وعدد من زعماء حزب تونس الفتاة، واختاروا الاقامة في الاستانة حيث اتصلوا بعدد من الزعماء العرب والمسلمين اللاجئين اليها مثل شكيب أرسلان ومحمد فريد وعبىدالعزيز جاويش وسليسان البـاروني. . ولم يلبث ان عاد الثعـالبي الى تونس، وأعلن تمسكـه بمبادىء حزب تونس الفتاة القائمة على فكرة الاستقلال التام. وفي هـ له الأحيان ظهرت طبقة جـ ديـ له من الشبـ الـ وطني، تلقى

معظمهم العلم في المعاهد الفرنسية، فطالبوا الباي والمقيم العـام الفرنسي بنظام دستوري، فوعدهم الباي خيرا، وازاء هذا الوعد، تأسس حزب الدستور. وترأس الثعالبي الحزب لفترة من الوقت، ولكن السلطات الفرنسية رفضت التحدث مع الـدستوريـين، وبخاصة حين تولى العـرش الباي محمـد الحبيب الملاين لفـرنسا. وحين أدخلت الادارة الفرنسية اصلاحات شكلية عام ١٩٢٢، أعلن الدستوريون رفضهم التام لها. وأصابت القوة الغاشمة نشاط الحزب بركود امتـد تسعة أعـوام (١٩٢٢ ـ ١٩٣١)، ثم عاود نشاطه بفضل رعونة السياسة الفرنسية، وتحدّيها الصارخ لمشاعر التونسيين الدينية والقومية، وذلك حين قررت اقامة تمثال عام ١٩٢٥ في مدينة تونس لـالأسقف (لافجري) الـذي اشتهر في الجزائر بتحمسه الشديد للتبشير، وبعدائه للمسلمين ومسعاه لتحويلهم عن دينهم. اضافة الى اعتماد مبالغ طائلة للاحتفال بمرور خمسين عباماً عبلى احتلال تبونس، ودعوة رثيس الجمهـورية الفرنسية لـزيارتهـا وعقد مجمـع كنسي فيها. وأدى ذلـك الى اتحاد الشباب المثقف من المتغربين والمحافظين في حزب الدستور، وتقرر اعـادة اصدار جـريـدة صـوت التـونسي، وان استقـل المتغـربـون باصدار جريدة (العمل) التي برز محسررها الحبيب بــورقيبة. ورغم اتفاق الدستوريين على مبدأ (الاستقلال على مراحل)، فقله نجحت الدسائس الفرنسية في إحداث الوقيعة بين المتغربين والمحافظين عام ١٩٣٤، وبخاصة بعد فصل المحافظين الذين امتنعوا عن حضور اجتماع الحزب، الـذي أصبح يعرف بـاسم الحزب الدستوري الجديد بزعامة بورقيبة، بينها التف الدستوريون القدامى حول الثعالبي. وتولى الحزب الدور الأكبر في الحركة الوطنية التونسية، ومع أن بورقيبة وصحبه أظهروا الاعتدال النسبي في الكفاح ضد الاحتلال، فان السياسة الرجعية التي اتبعتها فرنسا عام ١٩٣٦ حتى استقلال تونس عام ١٩٥٦، حرمت الحزب من ممارسة نشاطه المشروع، بحيث قضى زعهاؤه معظم الفترة التي تصل الى عشرين عاماً، مسجونين أو منفين. ورغم أن بورقيبة عمل على تطوير سياسة الحزب حين اعتبر ان تونس حلقة اتصال بين العالم العربي - الاسلامي، والحضارة الغربية، فان الدستوريين القدامى تمسكوا بمبدأ الارتباط بالنضال العربي الشامل كعقيدة أساسية لهم، وقد حضر الثعالبي مؤتمري القداس العربي والاسلامي ممثلاً لتونس عام ١٩٣١.

وفي الحرب العالمية الثانية، كانت تونس مسرحاً للقتال بين قوات الحلفاء والمحور مدة سبعة أشهر حتى أيار/مايو ١٩٤٣. وأطلق المحور سراح بورقيبة بعد خمس سنوات من الاعتقال بفرنسا، بقصد اثارة المشاكل أمام الحلفاء حول مستقبل تونس السياسي. وكان قد اعتقل عام ١٩٣٨ على اثر اضرابات دامية سقط فيها ماثتان من القتلى التونسيين حسب المصادر التونسية، وأعقبها حل حزب الدستور واعتقال زعائه. واتهمت السلطات الفرنسية العائدة الى تونس الباي محمد المنصف والزعاء الوطنيين بالتعاون مع المحور، وتم خلع الباي المعادي لفرنسا بعد عام بالتعاون مع المحور، وتم خلع الباي المعادي لفرنسا بعد عام

تقريباً من توليه العرش، ونصب مكانه الباي محمد الأمين.

وحين ظهرت جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، أرسل الثعالبي الى الحكومة المصرية يرحب بقيام الجامعة، في محاولة لبعث سياسة التضامن العربي، ودفع الجامعة نحو التدخيل في الأزمة التونسية مع فرنسا. وحين ضيق الخناق على نشاط بـورقيبة السياسي في تونس، لم يجد بدأ من مغادرتها خلسة الى القاهرة حيث انضم الى لجنة المغرب العربي، معبراً عن رغبته في التضامن العربي. وتولى صالح بن يوسف زعامة الحزب الدستورى بالنيابة. واتفق الدستوريون القدامي والجدد عـلى انتهاج السيـاسة العربية والمطالبة بـالاستقلال التـام. وأكد ميثـاق الحزب نبـذ مبدأ الحماية كلية، كما أكد هوية تونس العربية، وعزمها على الانضمام الى الجامعة العربية بعد نوال الاستقلال. ولكن الحكومة الفرنسيـةُ تابعت سياسة التشدد بتأثير المستوطنين الذين طالبوا بتأكيد السيادة الفرنسية على تونس. وحين قابل الدستوريون التشـدّد بمثله، وصرَّحوا بأن تـونس المستقلة لن تعترف بـالمستوطنـين الا كجاليـة أجنبية، سارعت السلطات باعتقال بورقيبة وصحبه، وفي غضون ذلك نشبت ثورة تحوز/يوليمو ١٩٥٢ في مصر، وتردد صداها في الوطن العربي، وعبر الباي عن الىرغبة في اشراك الشعب معه في الحكم، وضرورة احترام سيادة الحاكم الشرعي للبلاد، وقويت حركة النضال الوطني، واتخذت في البدء شكـل اغتيالات فـردية، وقابلها المستوطنون بارهاب مضاد راح ضحيته الزعيم النقابي فرحات حشاد والذي اغتيل في ضواحي باريس أواخر عام ١٩٥٢. ثم اتسع نطاق الثورة ضد الاحتلال، وامتد من الساحل الشرقي لتونس حتى حدود الجزائر، وسارعت فرنسا للتفاوض على انهاء القتال، وبخاصة بعد اشتداد وطأة الشورة الجزائرية على القوات الفرنسية، واقنع بورقيبة الحكومة الفرنسية في آذار/مارس ١٩٥٦ بأن تعترف بأن تونس دولة مستقلة ذات سيادة تتولى شؤون الخارجية والدفاع، مع احتفاظ فرنسا ببعض الامتيازات. وشكل بورقيبة أول وزارة استقلالية، وفي العام التالي أعلن الغاء الملكية واعلان الجمهورية، وتولى رئاستها، وفي تشرين الأول/اكتوبر واعلان الخامعة العربية.

الجزائر

لم تتمكن فرنسا من اخضاعها والسيطرة عليها الا عام ١٨٤٧، بعد أن تغلبت بوسائلها الوحشية على مقاومة الأمير عبدالقادر الجزائري الذي تزعم حركة النضال منذ عام ١٨٣٧، ولكنه اضطر للاستسلام في أواخر عام ١٨٤٧ وبقي أسيراً في باريس حتى عام ١٨٥٣، ثم غادرها الى دمشق حيث توفي (١٨٨٣) بعد حياة حافلة بالجهاد والبطولة. ولكن الثورات استمرت ضد الفرنسيين، ولم يستطع هؤلاء أن يصلوا آخر الصحراء الا عام ١٩٢٠. وفي غضون ذلك، سعت فرنسا الى ادماج الجزائر بفرنسا (١٨٤٨) وتشجيع الأهالي على التجنس ادماج الجزائر بفرنسا (١٨٤٨)

بالجنسية الفرنسية، بشرط أن يخضعوا لأحكام القانون الفرنسي، ولكن غالبية الجزائريين الساحقة رفضت ذلك وتمسكت بأحكام الشريعة الاسلامية.

وللتغلب على مقاومة الشعب الجنزائري، انتهجت فرنسا سياسة ترتكز على افقار الشعب الجزائري، عن طريق تشجيع الهجرة الأوروبية بعامة والفرنسية بخاصة الى الجزائر، ومنحت المستوطنين الامتيازات الاقتصادية والأراضي الزراعية وسخرت اقتصاد الجزائـر لخدمتهم، وبـذلك أوجـدت كتلتين متنـافرتـين في الدين واللغة والعنصر، هما الكتلة العربية ـ الاسلامية التي تضم أهالي الجزائر، والكتلة الأوروبية ــ الفرنسية التي يساندهــا الاحتلال. وارتكزت سياسة فرنسا أيضا على القضاء على اللغة العربية والدين الاسلامي، فحرَّمت تعلم اللغة العربية، وجعلت الفرنسية هي اللغة الرسمية في الدولة والمعاملات الرسمية، كما حاربت الاسلام، وجرَّدت القضاء الشرعي الاسلامي من اختصاصاته عدا الإرث والوصية. ولكن سياسة (الادماج) التي أعلنت عام ١٨٤٨ فشلت، فلجأت فرنسا الى سياسة (المشاركة) وقصد بها المحافظة على الوضع الاسلامي للجزائريين المسلمين مع تمتّع هؤلاء بالجنسية الفرنسية (١٩٤٤). ولكن الجزائريـين رفضوا هـذا القانون أيضاً. وفي عام ١٩٤٧ صدر قانون باعتبار الجزائر مجموعة عمالات (ولايات) فرنسية تتمتع بشخصيتها المدنية وباستقلال مالي وادارة خاصة، واعترف باللغة العربية لغة رسمية في الجزائر، ولكن هذه التشريعات الرامية الى دمج الجزائـر بفرنسـا أخفقت في السيطرة على الشعب الجزائري والقضاء على شخصيته القومية.

وبازاء أساليب القمع الوحشي والابادة، ومحاربة الثقافة العربية، لم يجد الشباب الجزائري وسيلة للتعلم الاعن طريقين: أحدهما التوجه الى المدارس الأجنبية حيث يدرس تاريخ فرنسا وأدبها وحضارتها، ولا يكاد يتصور أن ثمة ثقافة عربية أصيلة ذات تاريخ مجيد وأدب حي، يصلح منطلقاً للقومية الجزائرية المنبقة عن الحضارة العربية، وثانيها التوجه الى الجوامع والمساجد حيث يتلقى التعليم الديني الذي كان بدوره خاضعاً لاشراف الحاكم الفرنسي العام.

وقبيل الحرب العالمية الأولى، علق بعض الوطنيين الآمال على دار الخلافة العشائية باعتبارها النصير الطبيعي لهم، كما فعل أقرابهم في تونس ومصر، ودعوا الى التضامن الاسلامي لمواجهة الاستعار الأوروبي، وارتبط غيرهم بجمعية العلماء الجزائريين التي تأسست عام ١٩٣١ برئاسة عبدالحميد بن باديس. وفي البداية، وافقت سلطات الاحتلال على قانون الجمعية الأساسي، ولم تعتبرها ذات شأن، ولكن ما أن باشرت أعالها حتى تغير موقف الاحتلال منها، فشن عليها حرباً لا هوادة فيها، ولقي الكثير من أعضائها السجن والتعذيب، واستطاعت الجمعية اخفاء مقاصدها السياسية الثورية، وراء أعالها في ميدان التربية والتعليم، وكان شعارها (الاسلام ديننا والعربية لغننا والجزائر وطننا)، وتابعت شعارها (الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا)، وتابعت

مسمرتها في اثبارة النخوة البوطنية والعبزة القومية، وتنمية البوعي الـديني والاجتماعي، وقاومت سياسة الادماج، وحاربت الزواج بالأجنبيات، والانسياق وراء التيار الغربي الجارف بــلا وعي، مثلما كمافحت أهل الجمود والخرافات من الطرقيين، ودعماة التبشير المسيحي والتعليم الـلاديني، وأصدرت فتاوى بتكفير كـل مسلم جزائريُّ أو تونسى أو مغربي، يتنازل باختياره عن قانـون الأحوال الشخصية الاسلامية من أجل الانـدماج مـع فرنسـا، والإضرار بالعروبة والاسلام، واعتبرتهم مرتدين عن الدين، وتالياً تحرم الصلاة عليهم ودفنهم في مقابر المسلمين. وأحدثت الفتاوى أشرها المطلوب، فوضعت حداً للتجنس والاندماج والتغرّب، وكـان لها أثر فعال في المغرب الكبير، كما اهتمت بابراز معالم الهـوّية القـومية والشخصية الجزائرية الاسلامية، ونادت بأن للجزائر ثقافة تربطها روحياً وتاريخياً بالعالم العربي الاسلامي. وأقامت الجمعيـة مدارس ابتدائية لتعليم القرآن والشريعة والتاريخ واللغة العربية، وشجعت على الرحلة في طلب العلم الى جامع الـزيتونـة والجامـع الأزهر وسواهما من الجامعات العربية.

وكان طلبة المدارس يستهلون يومهم صباحاً بنشيد:

شعب الجنزائس منسلم وإلى النعبروبية ينشتيمني

ومن ناحية أخمرى أسس مصالي الحاج عــام ١٩٢٥ حــزب

(نجمة شمال افريقيا) للدفاع عن مصالح مسلمي شمال افريقيا من النواحي المادية، والمعنوية. وأراد مصالي أن يجعل من الحزب حركة تنشظم الشهال الافريقي كله، فطالب باستقلال جميع أقطاره. وبرغم أن السلطات حلت الحزب عام ١٩٢٩، الا أنه ظهر مجدداً عـام ١٩٣٣، وعقـد مؤتمـراً في فـرنســا ربـطت مفــرراتــه التحــرر السياسي بالتحرر الاجتماعي، بحكم نشأة الحزب العمالية. وأقمام الحزب صلات مع تونس والمغرب وغيرهما من البلدان الاسلامية والعربية. وفي العام التالي، أعاد مصالي تشكيل الحزب تحت اسم جديد هو الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا، ولكن الاحتــلال لم يعترف به، وسجن زعيمه، ثم أفرج عنه، وتوجه مصالي بـاختياره الى جنيف حيث التقى بالأمير شكيب ارسلان من رجالات الحركة العربية في المشرق، ونتيجـة هذا الاتصـال تحوّل مصـالي من التيار الشيوعي الفرنسي الى التيار العربي الاسلامي. وهنا أدرك الحـزب الشيوعي أن حزب مصالي ينتزع أعضاءه الجزائريين فنقم عليه، وانتهى الأمر بحل الحزب على يـد الحكومـة الشعبية الفرنسية في مطلع عام ١٩٣٧، وفي العام نفسه تأسس حزب الشعب في فرنساً بزعامة مصالي، وحصر نشاطه في الجنزائر فقط، بخلاف حزب (النجمة) اللي كان ينطق باسم الشمال الافريقي كله. وخاض الحزب معركة شديدة في الانتخابات البلدية، انتهت باعتقال زعمائه، ثم أفرج عن مصالي بعد سنتين عام ١٩٣٩، وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية، تـوقف نشـاط الأحـزاب والمنظمات السياسية.

وأثناء الحرب، أصدر فرحات عباس عام ١٩٤٣ بياناً تضمن خلاصة لفعال الاحتلال الفرنسي للجزائـر في مدى قــرن أدى الى حالة محزنة من البؤس والجهل، وأكد أن الجزائري لا يقبل الا أن يكون جزائرياً، وطلب الاعتراف بالعربية لغة رسمية مع الفرنسية، وفصل شؤون الدين الاسلامي عن الادارة الفرنسية، ومشاركة المسلمين في ادارة بالادهم. ثم طالب بانشاء دولة جـزائريـة ذات استقلال ذاتي، لا يحـول دون تنظيم اتحـاد لشـمال افريقيا مع المغرب وتـونس. وفي ربيع عـام ١٩٤٥ نجح فـرحات عباس ورفاقه في عقد مؤتمر شامل ضم حزب الشعب، وجمعية العلماء وأنصار الثقافة الغربية، وبرغم وجـود مصالي تحت الاقـامة الجبرية فقد سيطر حزب الشعب على المؤتمر، فانزعج المستوطنون، وأدى ذلك الى رد فعل عنيف وسريع تجلَّى في مذبحة مدينة سطيف شمال قسنطينة (٨ أيار/مايو ١٩٤٥)، أثناء الاحتفال بـانتصـار الحلفاء على المانيا النازية. فقد نظم الجزائريون مظاهرات خاصة بهذه المناسبة، تحمل الاعلام الوطنية، مما أثـار حفيظة المستـوطنين ورجمال الأمن، واحتدمت معركة حمامية ارتكبت فيهما السلطات الفرنسية الفظائع والمذابح، وبلغ عدد ضحاياها ٤٥ ألفاً، اضافة الى اعدام ٩٠ من زعماء الحركة الوطنية في الجيزائر. ولم تلبث ان استلمت جبهة التحرير الوطني الجزائري زعامة الحركة الموطنية في الجزائر، فحولت الكفاح الى ثـورة تحريـرية منــذ الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤.

المغرب

في المغرب الذي لم تستطع فرنسا اخضاعه لسيادتها الا عام ١٩٣٥، حاول الاحتلال اتباع سياسة تستهدف التفرقة بين العرب وأبناء عمومتهم ودينهم البربر (الأمازيغ) عام ١٩١٤، حتى يسهل عليه حكم البلاد، كما سعى للاعتماد على البربر عن طريق تشجيعهم على تعلم اللغة الفرنسية بدل العربية _ لغة القرآن _ واحياء اللغة البربرية القديمة وتدوينها، وانشاء محاكم خاصة تستمد أحكامها من العرف والتقاليد القديمة بدل الشريعة الاسلامية.

وأصدرت السلطات الفرنسية عام ١٩٣٠ مرسوماً اسمه (الظهير البربري) أثار الرأي العام الاسلامي، وألهب القومية في المغرب، ويقضي الظهير (المرسوم) باخضاع البربر للقانون الجنائي الفرنسي، وأثبت ان فرنسا تنتهج سياسة تبشيرية ترمي الى تنصير البربر بالقوة. وتنبهت أوساط البربر الى خطورة هذه التفرقة العنصرية التي تعني انتزاعهم من البيئة الاسلامية، ونتج عن المرسوم يقظة عربية اسلامية جعلت البربر يتحدون مع العرب في المغرب من أجل الدفاع عن كيانهم كمسلمين، وتأكدت الصبغة الاسلامية للحركة الوطنية. ومثلها كنان للاسلام دور أساسي في بعث الحركة الوطنية التونسية، فقد كان له في المغرب أثر أقوى في تقوية صمود المقاومة المغربية بازاء السيطرة الاستعارية والتيارات المشبوهة. وقد سعى شكيب ارسلان لدمج فكرة العروبة بالوطنية المشبوهة.

الاسلامية لدى زعماء المغرب، ولكن الهويّة الاسلامية بقيت متقدمة _عموماً _على الهوية القومية لديهم.

وعلى أثر صدور الظهير البربري، تشكّلت نواة للشباب الوطني المثقف تحت اسم (كتلة العمل المراكشي)، وأصدرت عـام ١٩٣٢ أول مجلة ناطقة باسمها في باريس والمغرب، وتوثقت صلات الكتلة بالمنطقة الخليفية (الريف)، فتعاون علال الفاسي مع عبدالقادر الطريس وعبدالسلام بنـونة لانشــاء فروع للكتلة في الشمال، تثبيتاً لفكرة وحدة الـتراب المغربي التي نــادت بها الكتلة، وقـد نجح زعـماء الكتلة، وبخـاصـة عـلال الفـاسى في اكتسـاب مناصرة السلطان محمد بن يوسف للحركة الوطنية منذعام ١٩٣٤. وحين قررت الكتلة تشكيل حزب رسمى منظم، انقسم أعضـاؤها، كــا حدث في تــونس، بين فــريق محافظ يؤيــد الحكم الدستوري ولكن يـربطه بـالنظام الملكي، ويهتم بتـوثيق علاقـات المغرب بالعروبة والاسلام، وقد انتظم هؤلاء في (الحزب الـوطني) بزعامة علال الفاسي، وفريق آخـر تفاعـل مع الثقـافة الغـربية، وركَّز على تطوير البلاد اجتهاعياً وسياسياً في اطار الحضارة الغربيـة وعلى تطبيق الحكم النيابي، وقد انتظم أعضاؤه في (حزب الشعب) بزعامة محمد الوناني. ويـلاحظ ان الحزب الـوطني خصّص احدى لجانه للدفاع عن القضية الفلسطينية. وقد لجأت السلطات الفرنسية الى حـل هذا الحـزب في أواخر ١٩٣٧ بعـد أن استنكـر التعدي على الحريات العامة، وعلى محاباة المستوطنين، فاعتقل زعهاء الحزب، وبينهم الفاسي الذي استمر اعتقاله تسع سنوات (١٩٣٧ ـ ١٩٤٦). وأعاد الوطنيون تنظيم أنفسهم عام ١٩٤٤ في حزب جديد هو حزب الاستقلال، من بقايا الحزب الوطني، وظهر أحمد بـلافريـج كمحور للنشـاط الحزبي الـوطني أثناء غيـاب الفاسي في المنفى. ووسط المظاهرات الحاشدة المؤيدة للحزب الجـديُّد أعلن حـزب الاستقلال مبـادئه التي تعتـبر نقطة تحـول في الحمركة الموطنية، فقمد طالب الحنزب باستقىلال المغرب ووحمدة أراضيه وتوثيق روابطه مع دول العالم بعامة، والدول العربية والاسلامية بخاصة، والولاء للأسرة الحاكمة والمناداة بتطبيق الملكية الدستورية، ومنح الحريات الديمقراطية للشعب، واستبـدل الحزب لقب الملك بالسلطان، والتقى الملك محمد الخامس مع حزب الاستقلال وهو أكبر الأحـزاب السياسيـة المغربيـة في الايمان بـأن وجهة المغـرب عربيـة، وكان رد الفعـل الفرنسي عنيفـاً تجـلي باعتقال الزعماء، وأوشكت الصدامات الدامية مع الجماهير أن تتحول الى ثورة عامة. وحاول المقيم العام الجديد (جوان) ما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ أن يصلح الادارة المغــربيـة عـــلى أســاس مبـــدأ السيادة المزدوجة، ولكن الملك قاوم هـذه السياسـة، وطالب أثنـاء زيارة دعى اليها لباريس اطلاق الحريات العامة، وتغيير طبيعة العلاقات مع فرنسا، أي اسقاط الحماية، عما جعل التفاهم مع الفرنسيين مستحيلًا. وبـدأت مـرحلة جـديـدة من الصراع بـين الوطنيين ويناصرهم الملك، وبين فرنسا، واستهلت بخطاب ألقاه الملك في طنجة (نيسان/ابريـل ١٩٤٧) وانتهت بعــزلـه عــام ١٩٥٣ . قبال الملك: ولا شك أن مراكش وهي بلد يربطه بالبلاد العربية الأخرى في الشرق الأوسط أوثق الوشائج، ترغب رغبة أكيدة في تعزيز هذه السروابط، وخاصة بعد أن أصبحت الجامعة العربية عامـلًا هامـاً في الشؤون العالميـــة». وأغـّـاظ الفرنسيون لأن الملك عـارض الفكرة التي كـانوا يشيعـونها، وهي أنهم ناشرو الحضارة في المغرب، وبدأت المؤامرة لخلع الملك بالاتفاق مع تهامي الجلاوي أحد صنـائع فـرنسا، وكــان قد تخلف عن ركب الملك في باريس، ثم عاد الى مقره في جنوب المغرب، وجمع الموالين له، وزحف نحو الرباط لاجبار الملك عـلى الخضوع لأوامر (جوان). وفي مقابلة صاخبة، طلب (جوان) من الملك ادانة حزب الاستقىلال أو التنازل عن العـرش، واضطر الملك الى توقيع الادانـة دون أن يذكـر صراحة اسم الحـزب. ولكن فرنسـا التي زجت مثنات الوطنيين في السجون وأبعدت أنصار حزب الاستقلال من البلاد، بدأت تدرك عقم سياسة العنف، وبخاصة بعد أن أدرك البربر أنهم استغلوا لحساب فرنسا، فأبدل (جوان) بمقيم عام آخر هو (غيوم)، فلم يكن أفضل من سابقه، وأصيبت العلاقات بين المغرب وفرنسا بالجمود، إلى أن برزت المشكلة المغربية على الصعيد الدولي بعد مذبحة الدار البيضاء عــام ١٩٥٢ التي قامت بمناسبة مظاهرات العمال احتجـاجاً عـلى اغتيال الـزعيـم النقـابي التونسي فـرحات حشـاد، ومقابلة السلطات الفـرنسية لهـأ بالقمع الوحشي الدموي.

بيـد أن حكـومــة اليمـين الفــرنسي التي استلمت الحكم في أيــار/مــايــو ١٩٥٣، والتي اعتــبر وزيــر خــارجيتهــا أن الصراع في

المغرب هو صورة جديدة للصراع بين الصليب والهـ لال، قد بعث مجدداً فكرة خلع الملك، فتذرعت الحكومة بالعرائض المزيفة التي حملها الجلاوي إليها، وتجرأت على عزل الملك محمد الخامس ونفيه إلى جزيرة مدغشقر، ونصبت مكانه عمه محمد بن عرفه، ولكن الشعب لم يعترف به، وانتقلت الحركة الـوطنية إلى صعيـد الكفاح الثوري ضد الفرنسيين والمستوطنين والمتعاونين معهم، واشتعلت الثورات في البلاد مطالبة بعودة السلطان الشرعى من منفاه، وأعلنت الجماهير في تونس والجزائر تضامنها مع شعب المغرب، كما ردّدت بلاد الشام والعراق أصداء الدعوة للبذل والكفاح، واتسع نطاق المقاومة المسلحة، واشتدت بانضهام قبائل البربـر إليها صيف عام ١٩٥٥، واتضحت وحدة الشعب في المغرب حتى أن الجلاوي «ثاب» إلى رشده، وأعلن انضهامه إلى المطالبة بإعادة الملك الشرعى إلى عسرشمه. وفي مطلع آذار/مسارس ١٩٥٦ اضطرت فرنسا لإعادة الملك من منفاه، واعترفت بـإلغاء الحماية وباستقلال المغرب وسيادته. وتحققت وحدة المغرب بانضهام المنطقة الخليفية، ومنطقة طنجة إلى السوطن الأم. وفي تشرين الأول/اكتوبر ١٩٥٨ انضمت المملكة المغربية إلى جامعة الدول العربية.

موريتانيا

تعتبر موريتانيا من الناحية الجغرافية جزءاً من الصحراء الكبرى، وقد عرفها العرب مع منطقة (ريودي اورو) ببلاد

(شنقيط). ويتألف الشعب الموريتاني من العرب الذين وفدوا على مـوريتانيـا منذ الفتـح الإسلامي، ومن الـبربر الـذين ينتمـون إلى مجموعة صنهاجة، ومن الـزنـوج وهم السكـان القـدامي، ومن بقاياهم الحراثون. وكان لموقع موريتانيا الجغرافي كصلة وصل بـين الشيال والجنوب وممر للقوافل التجارية بين المغرب وموريتانيا، أشر كبر في توثيق العلاقات بين الإقليمين، بحيث وجدت بينهما وشائح دينية وثقافية واقتصادية وحضارية مشتركة. وقد ساهم الموريتانيون في الدفاع عن استقلال المغرب والتصدي لـلأطماع الخارجية الموجهة ضده، وشاركوا في معركة وادي المخازن الحاسمة (٩٨٦هـ/١٥٧٥م) التي نقلت المغرب إلى مستوى الشهرة الدولية. ومعلوم أن سلطان المغرب مولاي اسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) جعل من جيش (عبيد البخاري) الذي جنّده من سكان الجنوب . موريتانيا والسنغال . أساس القوة الحقيقية للدولة ، إضافة إلى جيش القبائل العربية، وجيش المتطوعين من رجال الزوايا والمجاهدين في سبيـل الله، لإجلاء الإسبـان والبرتغـاليين والإنكليز عن مواقع الساحل التي كانوا يحتلونها. وقد سمى الجيش (عبيد البخاري) لأن اسماعيل حلفهم على حديث البخاري، وعلى تحكيمه وإطاعة ما جاء فيه، وتعهدهم بالتربية العسكرية، وعلَّمهم الحرب وزوَّجهم من بنات جنسهم، كما فعل سلفه أحمد المنصور من الأسرة السعدية (١٥٧٥ ـ ١٦٠٣).

رأت فرنسا أن ضم موريتانيا لا يوازي غضب الإنكليـز

والألمان والإسبان الـذين كانـوا يطالبـون في المغرب (بحقـوق) غير محددة، لا يعرف إذا كانت تشمل موريتانيا كلياً أو جزئياً. ولكن الحكومة الفرنسية اقتنعت باحتلال موريتانيا وحققت ذلك على ثـلاث مراحـل. الأولى (١٩٠٠ ــ ١٩٠٥) وهي مـرحلة التغلغـل السلمى والسيطرة غير المبـاشرة. والثانيـة (١٩٠٥ ـ ١٩١٤) وهي مـرحلة الإخضـاع العسكـري. والثـالثـة (١٩١٤ ــ ١٩٣٤) وهي مرحلة تأمين الإحتلال وتصفية جيوب المقــاومة الــوطنية. واشتهــر الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل بتنظيم حركة المقاومة، واكتسب نفوذاً كبيراً في المغرب أيام مـولاي عبد العـزيز. ولكن احتــلال الفرنسيـين لمدينـة وجدة وإقليم الشــاوية في المغـرب عــام ١٩٠٧، وتــوقّف عبد العــزيز عن دعم مــاء العينين ألحقــا الهزيمــة بالشيخ المناضل الذي توفي عــام ١٩١٠. ولا حاجــة إلى القول إن احتلال الفرنسيين للمغرب عام ١٩١٢ ساعد على إضعاف حركة المقاومة في مـوريتانيـا التي استغرق إخضـاعها نحـو عشرين عامـأ (١٩١٤ ـ ١٩٣٤)، وقامت على أساس حثَّ الناس على الجهاد الديني ضد الاحتلال.

ونظرت فرنسا إلى موريتانيا باعتبارها حلقة اتصال بين غرب أفريقيا والجزائر، وزادت أهميتها بعد الاتفاق مع إسبانيا على تخطيط الحدود في مناطق نفوذ كل منها وفرض الحابة على المغرب. وظلت فرنسا تحكم موريتانيا من عاصمة السنغال (سان لوي) إلى أن تم بناء مدينة نواكشوط عام ١٩٥٨. وفي عام

١٩٢٠ شكلت موريتانيا إحدى الوحدات الإدارية الشماني التي تكوِّن منها اتحاد غرب أفريقيا الفرنسية. واعتبرت موريتـانيا أقــا, مناطق غرب أفريقيا حظاً في مشروعات التنمية، ربما لشحّ الإدارة الفرنسية هناك، واقتصر نشاط الفرنسيين على مشروعات ثـانويــة كاستغلال مناجم الملح. وبعد الحرب العالمية الثانية، استثمرت فـرنسا بعض رسـاميلها للتنقيب عن المعـادن، وتمكنت من العثور على الحديد. كذلك لم تستطع فرنسا التغلغل ثقافياً في موريتانيا إلا بصعوبة بالغة، بحيث كانت البلاد أقل مناطق غرب أفريقيا تأثـراً بالثقافة الفرنسية. ورغم إغراءات فىرنسا المادية، فقد قاوم الموريتانيون المدارس الفرنسية لأنها تهدد شخصيتهم العربية الإسلامية. وكنانت شنقيط وبورتلميت من أهم المراكز الثقافية العربية الإسلامية التي اجتـذبت الكثير من طلبـة العلم من غرب أفريقيا بعد تدهمور التعليم العربي الإسلامي بشكل ملحوظ، في جميع المستعمرات الفرنسية هناك.

وقد رسمت فرنسا خط الحدود الذي يفصل موريتانيا وجاراتها في أفريقيا، فكان له آثار اقتصادية سيئة على اقتصاديات البلاد، كما أورث موريتانيا كثيراً من المشاكل. لأن الإستعمار الفرنسي لم يراع في تخطيط الحدود الموريتانية إلا مصالحه، دون أدن اعتبار لمقتضيات الجغرافيا الطبيعية والبشرية والاقتصادية. وحاولت فرنسا عام ١٩٥٧ أن تدخل موريتانيا في مشروع اتحاد الصحراء الكبرى الذي يبقى جزءاً من فرنسا الدولة الأم، ولكن

الحكومة الموريتانية قاومت الضغوط الفرنسية، وأكدت أن لموريتانيا شخصيتها الخاصة، فهي تمثل حلقة اتصال بين شمال أفريقيا، وبين أفريقيا جنوب الصحراء.

وحين تسلم المختار ولد داده الحكم كنائب لرئيس الحكومة، كانت أولى خطواته إنشاء مـدينة نـواكشوط كعـاصمة لمـوريتانيـا. وقـرر مؤتمر بـاماكـو عـام ١٩٥٧ الـذي ضم بعض أقـاليم غـرب إفريقيا الفرنسية، ضرورة اعتراف فرنسا بحق تقرير المصير وتشكيل حكومة تتمتع بحكم ذاتي في داكار عاصمة الاتحاد. وحين جرى استفتاء في الأقاليم التابعة لـلاتحاد الفـرنسي، لاختيار البقاء في نيظام الأسرة الفرنسية، أو الاستقلال التام (ایلول/سبتمبر ۱۹۵۸) اختارت موریتانیا، مثل جمیع أقالیم غرب ووسط أفريقيا، بـاستثناء غينيـا، البقاء ضمن الأسرة الفرنسية: (٣٢ ألفاً لصالح البقاء ضد ١٩ ألفاً لصالح الاستقلال). وكانت موريتانيا آخر مستعمرة فرنسية في غرب أفريقيا تحصل على استقىلالها، فقـد تفاوض المختـار ولد داده في بــاريس مع الــزعماء الفرنسيين (تموز/يوليـو ١٩٦٠) وأبرم معهم اتضاقـاً يقضي بنقـل السلطات والمصالح في موريتانيا إلى الوطنيين، وإعلان الاستقلال التام بتاريخ ۲۸ تشرين الثاني/نوفمبر ۱۹٦٠.

وكانت نتيجة المقاومة الموريتانية للاستعمار الفرنسي، ومقاطعة المدارس الفرنسية، حفاظاً على لغتها ودينها، أن فرنسا لم تــترك في موريتانيا حين غادرتها هياكل وأطراً اقتصادية وثقافية. ويذكــر أن حزب الاتحاد التقدمي في موريتانيا اتخذ من نقص الأطر حجة للدعوة إلى البقاء في المجموعة الفرنسية، وبعد قليل، تحوّل أنصار هذا الحزب إلى الدعوة لتطوير الشخصية الموريتانية بحيث تختلف عن المغرب العربي شمالاً، وعن مجموعة غرب أفريقيا جنوباً، وبحيث تستمد خصوصيتها من كونها حلقة اتصال بين الوطن العربي والعالم الأفريقي. ودعا الاتجاه الثاني إلى الارتباط مع المغرب، ونادى الاتجاه الثالث بالاتحاد الفيدرالي بين موريتانيا وبين بلدان أفريقية مجاورة، ولا سيما مالي والسنغال. ولكن الشعب الموريتاني لم يقبل الاندماج في اتحاد مع مالي، حرصاً على هويته العربية.

ولا مراء في أن الإسلام كان المحور الذي دارت حول الأحزاب والجاعات والاتجاهات في مسعاها لتحديد الشخصية الموريتانية، فقد ساهم الدين الإسلامي بدور كبير في إحياء الحركة الوطنية، وظهر ذلك بوضوح حين أعلن الاستقلال واختير اسم الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

وقبيل إعلان الاستقلال، تم دمج حزب الاتحاد التقدمي مع حزب الوفاق (١٩٥٨) في حزب التجمع الموريتاني بفضل جهود المختار ولد داده، على اعتبار أن تعدد الأحزاب، لا بد أن يؤدي إلى إيقاظ الروح القبلية، وإلى الانقسامات الداخلية. واستطاع ولد داده أن يجتذب حزب النهضة الذي ظهر عام ١٩٥٨، واعتبره الفرنسيون وقتذاك مؤيداً للاتحاد مع المغرب، وتعرض اعضاؤه

للاعتقال والسجن. وكمان من مؤيدي هذا الحزب مناصرون للحركة العربية في المشرق، ولذا ضُيِّق الخناق عليهم قبل أن يفرج عنهم.

وفي نهاية عام ١٩٦١ تقرر الأخذ بنظام الحزب الواحد، بعــد عقد عدد من المؤتمرات كان آخرها مؤتمر المائدة المستديرة، وذابت الأحزاب كلها في حزب الشعب الموريتاني، ولكن ذلـك لم يكن يعني وضع حد للمعارضة السياسية. وفي حين قاوم الموريتانيـون التعليم الفرنسي ورفضوا التعاون مع فرنسا ثقافياً، فإنهم في عهد الاستقلال تقبلوا الثقافة والتعليم بالفرنسية نبظراً لحاجمة البلاد الماسة لشغـل الوظـائف الفنية بـذوي المؤهلات العلميـة العاليـة. ولكن إحساس الموريتانيين بانتهائهم العربي كان قبوياً، فهم يبرون في العروبة تعبيراً عن هوّيتهم. ويفسر البعض ذلك بأن موريتانيــا محاطة بدول أفريقية، وبأنه لا توجـد فيها مشكلة بـربريـة أو لغة بربرية، إذ ليس ثمة جبال تأوي إليها جماعـات البربـر وسواهـا في البيئة الموريتانية الصحراوية. لا شـك أن أزمة نشـأت عام ١٩٦٦ بين أنصار العربية والفرنسية، ولكن منشأ الأزمة لا يعود، كما كان الحال في الجزائر، إلى وجود فئة قوية من المتفرنسين بثقافة فرنسا الذين يشغلون مناصب عليا في الدولة. فالعامل الـرئيسي هنا هـو وجود أقليات لغوية تتحدث لغات زنجية غير مستعملة في التعليم، وقد وجدت في التعبير عن نفسها بـالفرنسيـة، في ميدان الثقافة والتعليم، ما تدافع به عن نفسها ضد «طغيان» الذين يتحدثون العربية، لا سيمًا بعد أن جعلت العربية لغة رسمية

بجانب الفرنسية في بداية عام ١٩٦٨. ومع أن هذه الأقليات اللغوية تدين بالإسلام، فإنها قاومت قرارات حزب الشعب عام ١٩٦٦ القاضية بتعريب التعليم. وعلى أثر ذلك شهدت المدارس إضرابات وصدامات بين أنصار التعريب وأنصار الثقافة الفرنسية، مما اضطر حزب الشعب إلى السير بتؤدة في صوغ سياسة البلاد الخارجية تجاه الوطن العربي، وبعيداً عن أفريقيا السوداء، وإلى التمهل في تطبيق إجراءات التعريب. وبديهي أن الأخذ بسياسة التعريب يساعده زيادة المعونات الاقتصادية العربية إلى موريتانيا، فيقوى تالياً التيار العربي القومي، مقابل التيار الافريقي الإقليمي.

وفي حين كانت الجمهورية الجزائرية ترتبط بعلاقات وثيقة مع موريتانيا، إذا بالمملكة المغربية تحل محلها، بعد إنهاء الوجود الاحتلالي الإسباني في الصحراء الغربية، واقتسامها بين المغرب وموريتانيا، وذلك أثناء انعقاد مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية في الرباط عام ١٩٧٢، حيث تحددت المنطقة العائدة للمغرب والعائدة لموريتانيا، وقد حظي هذا الاتفاق بموافقة الرئيس الجزائري هواري بومدين الذي كان حاضراً في العاصمة المغربية. وتقرر تأجيل استفتاء سكان الصحراء على تقرير المصير، ريشا يتم الاتفاق مع اسبانيا على تسليم السلطات والمصالح، وحين صدر رأي محكمة العدل الدولية (١٩٧٥) بأن إقليم الصحراء لم يكن رأرضاً بلا صاحب) قبل الاستعمار الإسباني، وإنما كان يضم (أرضاً بلا صاحب) قبل الاستعمار الإسباني، وإنما كان يضم

منطقتي نفوذ إحداهما مغربية والأخرى موريتانية، أعطى هذا الرأي دعماً جديداً لكل من المغرب وموريتانيا لصالح التغاضي عن فكرة الاستفتاء، والاتفاق مباشرة مع إسبانيا على تسليم السلطات. وقيامت إسبانيا بذلك في ٢٧ شباط/فبراير ١٩٧٦، وحصلت موريتانيا على الثلث الجنوبي للصحراء (منطقة ريمو دي أورو) ويقطنهـا ربـع السكــان تقــريبــاً ــ حـــوالى (١٥ ـ ٢٠ ألف نسمة) _ وبما أن المنطقة الغنية بالفوسفات في (بـوكراع) تقـع ضمن حصة المغرب، فقد تعهدت هذه لموريتانيا بأن تدفع لها نصيباً من هـذه الثروة. ولكن منظمة (البوليزاريـو) أعلنت قيـام جمهـوريـة الضحراء الديمقراطية العربية في المنفى من مدينة الجزائر، في اليوم الذي أعلنت فيه إسبانيا تخليها عن سلطاتها هناك، ونظمت (البوليزاريو) حركة مقاومة مسلحة ضد الإدارة المغربية والموريتانية بمساندة الجزائر وليبيا. ثم توقفت ليبيا عن دعم (البوليزاريو) حين أعلن الاتحاد العربي الأفريقي بين المغـرب وليبيا عــام ١٩٨٥، ولم تلبث المغرب أن انسحبت من منظمة الوحدة الأفريقية بعد اعترافها بالجمهورية الصحراوية العربية، وبذلك أضيف عامل جديد إلى عوامل التجزئة العربية التقليدية السابقة.

ودون تكرار ما سبق إيجازه من نزعات واتجاهات هذا القطر أو ذاك في سياق تطوره السياسي، أو إعادة ما سيأتي بيانه في الفصل القادم حول (عوامل التجزئة الداخلية)، يتضح أن الأمة العربية نكبت باستعمار دول أوروبية استحوذت على مختلف أقطار

الوطن العربي في أوقات مختلفة وظروف متباينة، وسعت إلى تغيير أحوالها تغيراً جوهرياً بحيث انقسمت آسيا العربية إلى عدد من الوحدات السياسية، سيطر الانتداب البريطاني على قسم منها، وصار يتطور بموجب النظم الاقتصادية والتشريعية البريطانية، ويتأثر باللغة الإنكليزية والثقافة الانكلوساكسونية. في حين سيطر الانتداب الفرنسي على القسم الآخر الذي بدأ يتطور بموجب النظم الاقتصادية والتشريعية الفرنسية، ويتأثر باللغة والثقافة الفرنسية، ويتأثر باللغة والثقافة الفرنسية، وبقي القسم الشالث مستقلاً خارج هيمنة دولتي النتداب.

والتفرقة الإدارية التي أحدثتها الدول الاستعمارية عقدت المشاكل الأساسية، وزادت الحيرة في الفكرة القومية التي لم يتح لها أن تنمو النمو اللازم نتيجة الظروف الاستعمارية، ونتيجة النزعات القطرية والطائفية.

وسورية كانت أشد البلاد العربية تشبّعاً بالفكرة القومية وأرسخها إيماناً بالوحدة العربية وأسبقها اندفاعاً للعمل في سبيلها. ورغم وجود جماعات من النفعيين الذين يضعون مصالحهم الشخصية فوق المصالح القومية، إلا أن الرأي العام بقي بعيداً عن النزعة القطرية، وتواقاً إلى الوحدة التي حرمت الأمة العربية منها منذ عهد بعيد. وينطبق ذلك أيضاً على الرأي العام في العراق وفلسطين وشرقى الأردن.

وقمد عبّر سعمد الله الجابـري رئيس وزراء سوريــة عن هــذا

التوجّه القومي بكل جلاء، حين صرّح أثناء مشاورات الوحدة العربية التي جرت في مصر عام ١٩٤٤ بأن بلاده «تتقبل القيود كلها برغبة وإيثار غير مشترطة شرطاً، وغير محجمة عن بذل أية تضحية في سبيل تحقيق الاتحاد العربي. وإذا كان الاتحاد مصدر قوة لغيرنا، فهو لنا مصدر حياة، نتطلع من خلاله إلى البقاء والسلامة» ويلاحظ أن سورية كانت أول دولة عربية أدخلت في دستورها مادة تنص على أن الشعب السوري جزء من الأمة العربية، كها أدخلت عدة مواد تحتّم على رئيس جمهوريتها ونوابها أن يقسموا على العمل لتحقيق الوحدة العربية. ومعلوم أن غالبية الأحزاب السورية كانت وحدوية الاتجاه، ويصحّ هذا أيضاً على الأحزاب في العراق وفلسطين.

وفي وادي النيل، جرت تطورات مهمة أخرجت مصر تدريجياً من العزلة التي دُفعت إليها، وكان للاستعار البريطاني اليد الطولى في ذلك. وأخذت مصر تباشر اتصالها بالبلدان العربية وتتجاوب معها فتتأثر منها وتؤثر فيها. ولكن مصر ظلت مترددة بين النزعتين العربية الإسلامية في الفترة ما بين الحربين. وقد اتخذ شعور التعاطف والتأييد للعرب في أقطار المغرب وفلسطين وسورية طابعاً مزدوجاً من الأخوة الدينية والقرابة القومية، ولكن بقي الإسلام القاعدة الأكثر رسوخاً في النزعة القومية في مصر حتى قيام الشورة المصرية عام ١٩٥٢ التي ناصرت القضايا القومية، وجعلتها في مقدمة اهتهامتها.

أما العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية، فقد غلب

عليهما عموماً الاعتبار العربي المستند إلى الدين الإسلامي. وقد صرّح العاهلان السعودي واليمني في معاهدة الطائف التي أبرمت بينهما عام ١٩٣٤ بأن «شعبيها يؤلفان أمة واحدة بفضل الجنس العربي والدين الإسلامي»، وتعتبر المعاهدة نموذجاً احتذاه البلدان في تعاملهما مع البلدان العربية والإسلامية. وظل التوجّه العربي الإسلامي الأساس المكين في السياسة الخارجية، كما ظل الإسلام جامعة تنضوي تحت لوائه القوى العربية بمفهومها القومي.

وأخلت بلدان المغرب العربي تسير بخطى حثيثة على دروب الاستقلال، إلى أن تحققت لها أسباب الحرية والسيادة، وبدأت مساعيها للتقارب وتنسيق سياساتها لمواجهة تحديات البيئة الخارجية، مع الحرص على توثيق الروابط الواشجة مع أقطار المشرق العربي.

وحتى منتصف الأربعينات، لم تستطع البلدان العربية المستقلة أن تحقق أبعد من جامعة الدول العربية التي كانت حلاً وسطاً بين ما ترمي إليه النزعة القومية والنزعة القطرية. النزعة القومية التي ترى أن الحدود والتنوع أمور طارثة في الوطن العربي وتجد تبريرها في وجود أمة واحدة ذات روابط تنسج كيانها الاجتماعي والثقافي والحضاري. والنزعة القطرية التي ترغب في الحفاظ على حدود دولها وسياداتها القائمة، والتي تجد مسوّغها في ممارسة منطق الدول في الاستقلال والاستئثار بالسلطان والتمتع بالثروات، وفي التنازع على النفوذ.

وميثاق الجامعة الذي أخذ بمبدأ الإجماع، طبع محاولات العمل العربي المشترك بالجمود والشكليّة، إذ فرض عليه أطراً تقليدية لا يمكن تجاوزها إلى مناشط مستحدثة ما لم يتوفر لها رضاء ومصادقة كل الدول الأعضاء، أو على الأقل الدول ذات التأثير والنفوذ على بقية الأعضاء. الأمر الذي زعزع مصداقية الجامعة على صعيد العمل القومى المشترك.

وقد أثبتت تجربة الجامعة أن تعاون الحكومات العربية كان يتحطم على صخرة السيادة الفردية والنزعة القطرية، وعلى صعيد العلاقات الدولية مع العالم الخارجي. وكان الأمل أن كسب معارك التحرير الوطني ضد الاحتلال الأجنبي سيؤدي إلى تحقيق الوحدة، وعودة الأمر الطبيعي إلى نصابه الأصلي قبل أن تشوهه دول الاستعمار في التجزئة. ولكن الوقائع أظهرت في كل دولة طبقة من الحكام والسياسيين وطلاب الوظائف والنفعيين اللين ارتبطت مصالحهم الخاصة بالحفاظ على الوضع الراهن. هذا إلى أن المفكرين والمثقفين الذي يتوسطون عادة بين الشعب وقياداته السياسية كانوا يتحملون قسطهم من المسؤولية عن (انفصالية) أن المفكرون والمثقفون، وعلى رأسها هؤلاء المفكرون والمثقفون، فشلوا في إقناع حكوماتهم بأنهم جادّون في تحقيق الوحدة.

ولكن الاستياء المتعاظم من عجز الجامعة العربية، مصحوباً بمشاعر الفجيعة التي ولّدها سقوط معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي الموقعة عام ١٩٥٠ كردّ فعل على نكبة فلسطين، ثم ما

كان من تمزق هذه المعاهدة وإنكارها من بعض الدول العربية في الشهور الأولى لعام ١٩٥٥، قـد ضاعف الجهـد لتقويـة الـوعى القومي، وبث الإيمان بضرورة الوحدة العربية التي ظهـرت ثمارهــا في شباط/فبراير ١٩٥٨ وترجمت نفسها إلى حقيقة ملموسة بقيام الجمهورية العربية المتحـدة. وجاءت وحـدة سوريــة ومصر تتويجــأ لانتصارات متلاحقة حققتها جماهير القطرين. ولو أن المبادرة ظلت في يد ذوي النزعات القومية السليمة لانضمت الثورة العراقية عام ١٩٥٨ إلى وحدة مصر وسورية، ولكان اللقاء السوري ـ المصري ـ العراقي موضوعياً أكبر تحدد عرف العرب في تاريخهم الحديث، بعد أن طال غياب العراق عن مسؤولياته العربية على حدود العدو الصهيوني. ولكن انحراف ثورة العراق كان مما شجع على فكّ عرى الوحدة المصرية السورية بعد إعلان قرارات تموز/يوليو ١٩٦١ الاشتراكية، وثبت أن افتقار التنظيمات الحزبية والقومية في الوطن العربي إلى الرؤية الواضحة والتخطيط العلمي . . قد أدى ـ قبل الانفصال وبعده ـ إلى عجزها عن تفهّم طبيعة القوى السياسية والاجتماعية القادرة على تطوير الوحدة وحمايتها. وقد انعكس هذا العجز سلباً على قضية الوحدة سواء في طعنـة الانفصـال، أم في قصـور التنـظيــات الحـاكمـة عن تحقيقً خطوات عملية وحدوية أخرى. . حتى أيامنا هذه.

الفصل الخامس العوامل الداخلية للتجزئة

إن الفكر القومي يجتاز في المرحلة السراهنة محنة مسيرة ومصيرية، وذلك لما يسطغى عليه من نوازع وانتهاءات وايديولوجيات متناقضة، إما عريقة مستثارة، أو طارئة مستوردة، ويلاحظ أن هذه النوازع والايديولوجيات تتنافس وتتصارع لغير مصلحة هذا الفكر، وإنها تتداخل بصورة يغلب عليها التنافر والتنافس على التعاضد والتكامل. كها يلاحظ أن الاتجاه السائد عيل إلى تكوين تجمعات محلية في المغرب أو في المشرق، وإلى تدعيم العلاقات العربية بشكل ثنائي لا جماعي، وإحداث محاور جديدة بين بعض العواصم العربية، ومعظمها مبادرات ذات صلة وثيقة بالتجزئة، وكلها جزء من ظاهرة التخلف العام الذي يعاني منه الوطن العربي. ولا بدّ أن تنعكس بمفعول سلبي على الطموح القومي، وعلى حصيلة العمل العربي المشترك. وسنعرض لكل

من هذه الانتهاءات أو الهويات التي تنافس وتعارض الهوية القومية حيناً، وتكون بديلًا مرحلياً لها، حيناً آخـر. وسنضعها في إطـارها التـاريخي المحدد، مـوجزين في رسم الإطـار الفكـري لكـل منهـا أولًا، ونتبع ذلك بالإطار السياسي الذي اتخذته كمؤسسة معارضة أو بديلة للهوية القومية. هذه الهوية التي هي أهم الهويات، والتي لم تستـطع حتى الآن أن تعبّر عن نفسهـا إلا في وعــاء مؤسسي هــو (جامعة الدول العربية)، في حين أنها تسعى منذ أكثر من أربعين عاماً، وبعد أن خاض العرب معارك التحرير الـوطني بنجاح، إلى وحدة عربية تبنى المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية، وتحوّل التضامن التاريخي العضوي بين أقطار أمتنا إلى حقيقة فعلية تفـرض وجودنـا على المجتمـع الدولي بمـا يتناسب مـع إمكـانـاتنـا البشرية والاقتصادية والاستراتيجية. وقد ثبت أن الهـوّيـات والانتهاءات البديلة أو المعارضة، وما أوجدته من أوعية مؤسسية، لم تكن أفضل حالاً وأكثر فاعلية من الجامعة العربية، باستثناء الجمهورية العربية المتحدة التي لم تدم طويلًا.

أولاً: الهويات

وسنعرض للهويات الخمس التالبة وهي: الهوية القطرية، وهي نقيض الهوية القومية. والهوية المحلية، ويقصد بها التجمعات والتكتلات الفرعية التي ما زالت ماثلة في الجوّ السياسي العربي منذ أكثر من أربعين عاماً، مثل سورية الكبرى والهلال

الخصيب، ووحمدة وادي النيل، ووحمدة أقطار الخليج العربي، ووحدة أقطار المغرب العربي الكبير. والهويّة الدينية، ونعني بها الهوّية الإسلامية، وقد لا تعارض بـالضرورة الهوّيـة القوميـة، إلا إذا استخدمت سياسياً لهذا الغرض. والهوّية الإقليمية أو الجيو-استراتيجية، ويقصد بها التجمعات التي ترتبط بها أقطار عربية مع للاد غير عربية _ شرق أوسطية، على حساب العلاقات العربية. والهوية السياسية، ويقصد بها المحاور التي تتكون من ترابط بعض الأقطار العربية ضمن النظام العربي. أما التيارات السياسية والفكرية الأخرى التي تعمل في اتجاه معارض للهوية القومية، فسوف نشير إليها على السياق باعتبارها مع ظاهرة التخلف العام تشكل دافعاً من دوافع التجزئة. ولن نقله سوى مؤشرات وخطوط رئيسية لرصد معالم هذه الهمويات والتيمارات التي مازالت في معظمها، تفعل فعلها في النظام العربي، وتساهم من خلال المبادرات والخطط التي تـطرحها في عـرقلة تقدمـه نحـو الـوحـدة العربية المرتقبة.

١ ـ الهوية القطرية

بما أن البلاد العربية لم تخضع لاستعمار دولة أوروبية واحدة، بسل خضعت لاستعمار وحمساية وانتسداب. عدد من السدول الاستعمارية، كما أن الثورات التي قامت في البلاد العربية لانتزاع الحكم والاستقلال من الأجنبي، نشبت في ظروف تماريخية متباينة وفي تواريخ مختلفة، فقد كان من الطبيعي أن لا تنشأ دولة وطنية

واحدة تنتظم الوطن العربي، وانما بلدان عربية متعددة.

وليست حركة (الوحدة العربية) في حقيقتها إلا (ثورة) على هذه التجزئة وعلى تلك الحدود والفوارق التي خلقتها وفرضتها الدول الاستعمارية، والتي تعهدتها بالـرعايـة نوازع المحـافظة عـلى الكيان السياسي القائم، أو ما نسميه الهويّة أو النّزعة القطرية أو الاقليمية. وقد وُجدت في كل من (الدول) العربية طائفة من الزعماء والحكمام ومحترفي السياسة، ارتبطت منافعهم ومطامعهم بالأوضاع السياسية الراهنة، فنزعوا الى المحافظة على كيان الدولة، كما رسم حدودها الأجنبي، وعملوا في اتجاه يخالف اتجاه الوحدة العربية ويعرقل انطلاقها، مستخدمين ما ألفه مواطنو هـذه الدولة أو تلك من معالم الوطنية الخاصة التي أوجدتها الدولة، والتي درجوا عليها وارتبطوا بها، فالعلم والنشيد والعملة والجوازات، والاذاعة والقوانين والنظم الاقتصادية والتربوية والثقافية وغير ذلك مما يشعر المـواطن في تلك الدولـة بأنـه يختلف عن غبره من أبناء الأقطار العربية الأخرى. ولا شك في أن تعدّد البلدان العربية واختلاف اتجاهاتها وتباين نزعاتها أوجد الكثير من الفوارق الجديدة بين مـواطني البلدان العربيـة، لأن طبيعة الحيـاة السياسية الداخلية والخارجية في الدول القائمة تغذّي النوازع القطرية بأمثال المعالم المادية الملموسة لتصبح مركزأ لـوطنية خـاصة بها.

واذا كان تعدّد البلدان العربية هو وليد الاستعمار، فإن النزعة

القطرية والاقليمية وليدة تعدّد البلدان العربية. وقد انتظرت جماهر الشعب، بعد أن خاضت معارك التحرر الوطني بنجاح وحققت استقلالها في مختلف أقطارها، أن يكون الاستقلال خـطوّة طبيعية نحو الوحدة. ولكن هذه الوحدة بدت حلماً صعب المنال، بعيد التحقيق يوماً بعد يوم، كما بدا أن الوضع القطرى هو نهاية المطاف، بل هو المصير المحتوم. واتضحت هذه الرؤية من خلال قناعات بيروقراطيين وتكنوقراطيين قصيري النظر، ومصالح وأطهاع أجنبية تتداخل وتتشابك، وخصومات مستشارة مفتعلة بين الأقطار، حتى أصبحت الوحدة تعنى خسارة قطرية وحرماناً من المدخرات، ومصدر تخوف من ابتلاع الكبير للصغير والفقير للغنى. وبينها تخفي النزعة القطرية رغبة بعض الحكام في الاستئثار بالسَّلطة والتفرُّد بالنفوذ والـزعامـة، فهي تعكس كذلـك محدوديـة المشاركة الشعبية وضعف توعيتها بالتحديات المصيرية التي تـواجه العرب حاضراً ومستقبلًا، وتتهدد كرامتهم وحقوقهم في خيرات بلادهم ونتاج عملهم.

ولا شك أن جماهير الشعب في مختلف الأقطار العربية، تؤيد الوحدة باستثناء فئات معينة ارتبطت مصالحها بالنزعة القطرية، فلا ترضى بتهديد منافعها وزوال كيان دولتها داخل دولة الوحدة.

ويمثل لبنان وضعاً خاصاً تتصارع فيه النزعة القطرية والنزعة القومية بسبب الطائفية التي هيمنت على فروع الادارة فيه منذ ظهور نظام المتصرفية في جبل لبنان، وتعمّقت بشكل ملحوظ

بفعل الخلاف السلطائفية التي شجعها الانتداب الفرنسي ومؤسساته، فجعل ولاء الطوائف يتوزع بين الطائفة التي ينتمون اليها وبين الوطن الذي يعيشون فيه. ومعلوم أن فرنسا دخلت لبنان من خلال الباب الطائفي، وقررت أن الأساس الطائفي في حكم لبنان هو الاكثر انطباقاً مع أهدافها، ورأت ان اللعبة الطائفية التي تمارسها ضد هؤلاء وأولئك هي الطريق الأكثر ضهاناً لتحقيق مصالحها وفرض أهدافها، وإن الطائفية هي الكفيلة بروح الثورات وبحركاته الوطنية والقومية. ولذا ظلت الطائفية عاملاً يعكر الحياة السياسية اللبنانية، ويسبّب الريبة والقلق فيها، ويضعف الانضباط الوظيفي في ادارات الدولة، ويقسم الولاء الوطني بين مواطنيها.

وبينها يدعي بعض المسيحيين بأن لبنان له وضع متميز وسهات يجب الحفاظ عليها، ويريدون بلداً مستقلاً يكون لهم فيه صوت مسموع، ويرتبط بنوع من الصلة مع الغرب، يرى المسلمون أنه بعد توسيع متصرفية جبل لبنان العثهانية عام ١٩٢٠، أصبح لبنان غتلفاً بشكل أساسي عن لبنان القديم، وإن ميثاق عام ١٩٤٣ قد أعطاه الصبغة العربية، ويقولون إنه مها كانت نظرة المسيحيين الى لبنان، تبقى الحقيقة أن المسلمين يشكلون نصف سكانه على الأقل، ولذا يجب أن يعترف بحصتهم المساوية للمسيحيين في توجيه سياساته وتحديد هويته، ويعتقدون بقوة أن لبنان بلد عربي يقع وسط وطن عربي.

واعتمد المسلمون عموماً في لبنان للتعبير عن انتهائهم السياسي على رفضهم للوجود الفرنسي ورغبتهم في الاستقلال، وعبروا عن موقفهم من لبنان أثناء الانتداب (١٩٢٠ - ١٩٤٣) بواسطة تيارين، أولها يحاول ضم المناطق الملحقة بلبنان الى أمها سورية، أو ضم لبنان كله الى سورية، وثانيها يحاول ضم لبنان الى كيان عربي أكبر. وقد ساد التيار الأول في العشرينات، وبرز التيار الثاني بعده بعقد من السنين تقريباً، ويسعى لتحقيق الوحدة العربية.

وبعد الاستقلال، تزايد غبن المسلمين، لأن رئيس الجمهورية الماروني ورث بعد تعديل الدستور عام ١٩٤٣ صلاحيات المفوض السامى إضافة الى صلاحياته الرئاسية الأصلية، في حين بقيت صلاحيات رئيس الوزراء المسلم على حالها، فحدث الخلل في توازن القوى بين عمشل المسيحيين وعمشل المسلمين في الحكم، واستعاض المسيحيون بعد الاستقلال عن مساندة الانتداب الفرنسي لهم، بالاصرار على استقلالية لبنان، وتشبثوا بالنزعة القطرية خشية اضمحلاله في الوطن العربي. في حين أكَّد المسلمون هويتهم العربية وسعنوا لنرفع الغبن البلاحق بهم في وظائف الدولة ومراكز النفوذ فيها، واستعاضوا عن طلب الالتحاق بسورية بالتشديد على عروبة لبنان. وفي خضم هذا التجاذب على الهوية السياسية للبنان، تعايشت المجموعتان المسيحية والاسلامية في حالة مدّ وجزر، تجمع بينهما المصالح الاقتصادية والمعيشية، وتباعد بينهما العواطف والهواجس. ولا شـك في أن الفشـل في تجاوز أزمة الثقة بين الجانبين، يرجع الى استمرار هيمنة الطائفية على مفاهيم اللبنانيين، تقليديين كانوا أم عقائديين. ولعل الحل يكمن في إقامة دولة عصرية لا تقوم على أساس الطائفية السياسية، وانما على أساس حقوق المواطنة المتساوية لجميع أبناء الشعب.

وفي الحرب الأهلية المؤسفة منذ عـام ١٩٧٥، أضاف العـامل الاجتماعي بعداً جديداً الى أزمة الثقة بين الجماعتين الاسلامية والمسيحية، إذ من المعلوم ان معظم أبناء الطوائف المسيحية يتمتعون بمستوى معيشي أعلى من مستوى أكثرية أبناء الطوائف الاسلامية، الأمر الذي زاد من غربة غالبية المسلمين عن الدولة اللبنانية التي قصرت في تنفيذ مشاريع الانماء في المناطق التي يسودها المسلمون. ويبه و أن هاجس الحفاظ على الكيان السياسي المتفوق قد طغى على العامل الاجتماعي لـدى غالبيـة المجموعـة المسيحية، ودفع أبناءها الى التشبث بامتيازاتهم السياسية وبالزعامات التقليدية، ودون اعتبار لنسبتهم العددية بين سكان لبنان. وبالمقابل، فإن اهمال الزعامات التقليدية لدى المجموعة الاسلامية ولا سيما في الجنوب للمشكلة الاجتماعية قد أوهن علاقتها بجماهيرها، وتمخض عن ظهور زعامات جديدة تسعى لتجاوز الاجحاف الـلاحق بهم. ولا حاجمة الى القول بـأن رصيد هذه النزعة الطائفية قد أضيف الى رصيد النزعة القطرية الاقليمية في لبنان. هذه النزعة التي تظهر أيضاً في عدد من الأقطار العربية لأسباب متنوعة، أهمها ارتباط مصالح الفئات الحاكمة بكيان الدولة القائمة، وهذا يعكس ضعف الوعي القومي لدى القادة والجاهير على حدّ سواء.

٢ _ الهوية المحلية

تبرز أهمية العنصر الجغرافي في هذه الهوية، باعتبار أن البلاد المطلوب اندماجها في الوحدة هي بلاد متجاورة ذات حدود متصلة ووشائج قربي اجتماعية واقتصادية متشابكة ومتداخلة، وذات تـواصل جغـرافي واضح، وتـطور تاریخی قـدیم متفاعـل، ونعاون نضالي مشترك في معارك الحريــة والاستقــلال. وفي غيــاب مشروعات قومية وحدوية على ساحة الوطن العربي، كان يمكن أن تبرز وحدة أقطار سورية الكبرى، أو الهلال الخصيب، أو وحدة وادي النيل، أو أقطار المغرب الكبير أو الخليج العربي. وكمان يمكن أن تبرز بعض هذه الهويات المحلية قبل تحقيق الاستقلال الوطني بوصفها خطوة نحو اتحاد عربي مقبل، لـولا أن التخلص من الاحتلال الأجنبي كان يستغـرق من الجماهــير والزعــماء أمالهم وآلامهم. وبعد الاستقلال، اتضح أن الهوّية المحلية كانت تبرز على السطح السياسي أحياناً، وتدعو الى اتحاد سياسي جزئي، وأحياناً تختفي لتبقى هويّة فكرية. ومعلوم ان هـذه الهويّـة المحلية لو تحققت، وظلت جامدة لا تتجاوز أطرها إلى وحدة اندماجية أكبر، تصبح تمييزاً للجزء على الكلُّ، وانتصاراً للمحلِّي على القومي، ورصيداً للتجرّئة، وخصــاً من الوحــدة. وقــد اتخــذت الهويّة المحلية أشكالاً متعددة في الوطن العربي منها:

أ ـ وحدة أقطار سورية الكبرى

لقد برزت الهوية المحلية السورية على الصعيد السياسي في الفترة ما بين الحربين العالميتين وما بعدهما حتى مطلع الخمسينات في شكل دعوة عبّان الى وحدة سورية الكبرى، ولكن الهوية القومية لم تتراجع عن موقعها السابق، بل ظلت في مقدمة اهتهام الجهاهير، ولكن كان يحدّ من قوتها انشغالها بخوض معارك التحرر الوطني. ولم يكن ثمة تناقض بين شعور الفرد العربي في سورية الطبيعية بانتهائه القطري، وبين شعوره ووعيه بانتهائه القومي. فلكل دولة دائرتها القطري، وبين شعورة وهي تعبّر عنها في ظروف التجزئة بمفهوم سيادة الدولة، إضافة الى دائرتها القومية باعتبارها جزءاً من الأمة العربية والوطن العربي. ولا تشعر أية دولة عربية بأي تناقض من جرّاء هذه المشاركة.

وكان يمكن أن يكون للجوار الجغرافي أهمية كبرى كعنصر تقارب بين أقطار الشام، لولا أن النظم السياسية في تلك الأقطار كانت متباينة ؛ فسورية أخضعت للانتداب الفرنسي حتى أواسط الأربعينات، وكان التيار الجمهوري فيها قوياً والعداء للاستعار عنيفاً. وفي لبنان، وهو أيضاً ذو نظام جمهوري، سلكت فرنسا مسلكاً يضمن التفوق والامتياز للطائفة المسيحية عموماً، والموارنة

خصوصاً، وكرست الطائفية السياسية والحقت الغبن بالطائفة الاسلامية، وسعت الى تعميق المشاعر اللبنانية الانعزالية، وتشجيع الاتجاهات المعادية للعروبة. والنظام في شرقي الأردن نظام أميري ثم ملكي عرف بارتباطه ببريطانيا. وفلسطين تتنافر فيها المصالح الانتدابية البريطانية واليهودية الصهيونية مع الأماني والمصالح العربية. وأهم من ذلك تناقض مصالح دولتي الانتداب (بريطانيا وفرنسا) وانعدام الرغبة لديها في قيام وحدة بين أقطار سورية الطبيعية، مما جعل الدولتين، ولا سيها فرنسا، متحفظتين على مشروعات التوحيد الهاشمية الصادرة عن عان، برغم وعودهما لصاحب المشروعات والتي لا تتعدى شرب الأنخاب.

والأهم من كيل ما تقدم، أن الاستخدام السياسي للهوية المحلية السورية، والدعاية الدؤوبة لمشروعها، لم يستقطبا الجهاهير من حوله، لأن المروجين له لا يتمتعون بمصداقية شعبية ذات وزن، ولأن الأمر هنا يتوقف على المصالح التي ينطوي عليها هذا الاستخدام السياسي للمشروع. وتالياً لا يمكن أن تترجم الهوية المحلية السورية نفسها إلى وعاء مؤسسي فاعل. فقد رأت الجهاهير في سورية بخاصة، أن المشروع يرمي الى سحب قيود الأردن على سورية المتحررة، والقضاء على طموحها القومي الذي كان يسير جنباً الى جنب مع النضال من أجل التحرر والاستقلال الوطني. بخاصة وأنها خشيت أن يؤدي نجاح المشروع وتماسسه إلى الاكتفاء به، والوقوف عنده ليصبح محوراً معادياً للتيار القومي الاكتفاء به، والوقوف عنده ليصبح محوراً معادياً للتيار القومي

الوحدوي، وتأكيداً للهويّة المحلية الأضيق، دون الهويّة العربية الأوسع.

إن مجرد الشعور بهوية أضيق من القومية العربية كالقومية السورية، في ظروف تاريخية محددة، يعني تغليب عناصر البيئة الجغرافية على تلك النابعة من الانتهاء القومي، كما يعني ان ثمة شعوراً بالتهاثل وبضرورة التعاون بين أقطار يجمعها الجوار الجغرافي والانتهاء الاقليمي، ورغم ان الدعوة الى وحدة سورية الكبرى تعود الى مطلع العقد الثاني من القرن الحالي، فإنها لم تتحقق لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع.

ومعلوم أن العرب في المشرق العربي قـد أذعنوا لمقتضيات المرحلة التاريخية التي أعقبت تجزئة بلادهم، وارتضوا، مكرهين، بما هو أدنى من وحـدة أقـطار المشرق العربي التي كـانت الهـدف المرتقب للثورة العربية الكبرى.

ولعل حزب الاتحاد السوري الذي تشكّل في مصر بعد نشر التصريح البريطاني للسوريين السبعة (١٩١٨)، والذي أكد وعود بريطانيا للعرب مجدداً بدعم أمانيهم في الاستقلال والتحرر، هو أول من طالب بالوحدة الوطنية لدولة سورية تمتد من طوروس شمالاً الى العقبة جنوباً، ومن الفرات والصحراء شرقاً الى البحر المتوسط غرباً، وتحكمها حكومة ديمقراطية على مبدأ اللامركزية، وتنضم الى الوحدة العربية عند قيامها. وقد عبر الملك حسين قائد

الثورة العربية عن عميق أسفه لأن الحزب قصر مهمته على العمل لسورية وحدها دون سائر الأقطار العربية، فأرسل اليه الحزب كتاباً (شباط/فبراير ١٩١٩) أوضح فيه أن الحزب تألف من السوريين لأجل استقلال سورية ودفع غائلة الاحتلال الأجنبي عنها. . وإن الحزب يرى أن يطلب كل قطر الاستقلال لنفسه، فيكون بذلك قد مهد «للوحدة التي يتمناها كل عرب، ولكن على قاعدة اللهمركزية التي يستحيل الاتفاق والانحاد بدونها».

وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الحزب السوري القومي الاجتهاعي نادى في منتصف الثلاثينات بقومية سورية مستقلة تماماً عن القومية العربية، وزعم أن فكرة الوحدة العربية ما هي إلا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية، لذلك حمل عليها وعلى الطائفية بوجه عام. ويبدو واضحاً أن تحامل الحزب على فكرة العروبة والقومية العربية يرجع الى اساءة فهم المعنى المقصود من العروبة أو القومية العربية التي يعتنقها المسلمون والمسيحيون على السواء. واذا اتفق ان من صادفهم زعيم الحزب أو خالطهم من العروبة كانوا من المسلمين، فليس من الضروري ولا من الحتمي أن يكونوا طائفيين «متسترين أو متزمتين» على حدّ قوله.

وعلى الرغم من أن الدعوة الى وحدة سورية الكبرى (سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين) ثم العراق الذي أدخل في المفهوم القومي لسورية الطبيعية، قد شهدت بعض الانتشار بين نفر قليل من الحزبيين أو المنتفعين، في الفترة ما بين الحربين وأثناء الحرب العالمية الشانية وما بعدها بقليل، وظلت ماثلة في الجو السياسي العربي في المشرق المعاصر حتى ما بعد وفاة الملك عبدالله عام ١٩٥١، فإن هذه الدعوة التي صدرت في الأصل عن الأمير ثم الملك الهاشمي في عهان، لم تسبّب نشاطاً سياسياً يَصْنعُ الأحداث ويوجّهها، وانما بعثت، ردود فعل تحوّلت الى مادة من مواد السياسة اليومية بين دمشق وعهان وبصورة يغلب فيها التنافس والتنافر، بدل التعاضد والتكامل. فالدعوة الهاشمية كانت بقصد أو غير قصد، تعمل على إضعاف التيار القومي عموماً، وتسعى لاحياء الروابط البديلة القائمة على العوامل المحلية والجغرافية، المؤيدة بطموحات شخصية تقوم على قناعات ودعاوى تاريخية ترجع الى الأمس القريب.

لاقت الدعوة لمشروع سورية الكبرى صدى متفاوتاً في الأقطار المعنية، وقابلتها الحكومات القائمة في دمشق وبيروت بردود فعل غاضبة تمثّلت في البيانات الرسمية والصحفية، وبمعارضة مستمرة من أطراف عربية أخرى. ولا سيها السعودية ومصر، اللتان وحّدتا جهودهما لمحاربة المشروعات الهاشمية المختلفة.

ولكن يبدو أن المسعى لوحدة سورية الكبرى لم ينته بوفاة العاهل الأردني، وان بعث مجدداً في أواسط السبعينات على هيئة تنسيق المواقف السياسية بين سورية والأردن وفلسطين (ممثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية)، ولبنان ممثلًا جزئياً بالحركة الوطنية

اللبنانية التي تضم الأحزاب التقدمية المناهضة للأحزاب اللبنانية الانعزالية. الأمر الذي يدل على أن وحدة سورية الكبرى، بصورة فعلية لا معلنة، مازالت حيّة ماثلة في الجو السياسي العربي، كبديل مرحلي عن التبعثر العربي الراهن الناجم عن غياب الارادة السياسية الجاعية العربية، والتنسيق بين القوى الفاعلة، وغياب الاستراتيجية الناجعة والكفاءة البشرية المشهودة. وأهم من ذلك غياب الفكر القومي الناظم لمرتكزات العمل العربي المشترك وعدم وضوح الرؤية المؤدي الى التشرذم والتشتت.

والحق أن سورية، مع تشبثها بموقفها القومي، لم تتردد في ظروف الانحسار والتبعثر التي شهدها ـ ومازال يشهدها ـ النظام العربي، من مباشرة علاقات وثيقة مع أطراف عربية مجاورة، تارة بقصد تشكيل (الجبهة الشرقية)، أو (الجبهة الشهالية)، بعد اختلال التوازن الاستراتيجي مع اسرائيل بخروج مصر من خندق المواجهة. وتارة مع أطراف عربية مجاورة وغير مجاورة تحت اسم (جبهة الصمود والتصدي) لتقوية موقعها أو تصحيحه لمواجهة السرائيل، على أساس التعاون الوثيق مع الأنظمة العربية ذات الفلسفة السياسية المهاثلة لفلسفتها، أو الموازية لها في خياراتها السياسية.

لقد مرّ مشروع وحدة سورية الكبرى منذ ظهوره في مطلع العشرينات وحتى اليوم بمرحلتين: في الأولى لم تتحقق هذه الوحدة وظلت مشروعاً فحسب. وفي الثانية ظهرت كمشروع لفترة قصيرة

في منتصف السبعينات، وتأرجحت فيها تحالفات الأطراف المعنية بين مد وجزر، تبعاً للعلاقات المتوافقة أو المتعارضة بين سورية وبين الأردن، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية أو فئات منها، وقد سعت لجمع وتنسيق وتحسين طاقات كل من سورية والأردن ولبنان والفلسطينيين لمواجهة اسرائيل.

ب ـ مشروع اتحاد أقطار الهلال الخصيب

كـان هذا المشروع مـطروحاً في مـطلع الثلاثينــات وفي مطلع الأربعينات والخمسينات. وحين قام فوزي السعيد رئيس وزراء العراق في أواخر عام ١٩٤٢ بزيارة القاهرة ومقابلة رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس، كان معه الأمير عبدالإلمه الوصى على عرش العراق، الذي ترددت يوماً شائعة تنصيب والـده الملك على على عرش سورية. ولا جدال في أن عبدالإله تطلع بعد وفاة أبيــه لهذا العرش. وطرح نوري السعيد مشروع اتحاد العراق مع دولة سورية متحدة أو اتحادية، تتألف من سورية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن، ودعا الى ان تعود فلسطين إلى مكانها كجزء من سورية الطبيعية، وبذلك لن يستبد الخوف بعرب فلسطين من التوسع اليهودي. ومعلوم ان المشروع الذي حمله الوفد الأردني الى النحاس أثناء مـداولات الوحـدة العربيـة عام ١٩٤٣، كـان يمثل خطوة على طريق وحدة الهلال الخصيب، ولذا حظى بتأييد نوري السعيد في حينه، وعرف بمشروع سورية الكبرى سالف الذكر.

لقـد بذلت الحكـومة العـراقية منـذ عـام ١٩٤٩ ومـا بعـده، جهوداً كبيرة لاجتـذاب سوريـة اليها، ولكنهـا أخفقت في زحزحـة سورية عن موقفها، لأن سورية رأت أن الحكومة العراقية لم تحافظ على اندفاعها في سبيل (العروبة) اللذي عبرت عنه بقوة في الثلاثينات، عندما كانت الدولة العراقية الدولة العربية الوحيدة التي تعمل للقضايا العربية، في وقت كان فيه الشعب العربي في سورية وفلسطين محروماً من دولة وطنية، وسورية وقتئذ كانت تتطلع الى العراق وتـرجو أن تصـل الى مـا حققـه من استقـلال. ولكنُّ أحوال الحكومة العراقية لم تلبث أن تغيرت تغيراً جذرياً بعد موت فيصل وابنه غازي وياسين الهـاشمي. ومنذ أن تـولى الوصى على عرش العراق عبدالإله مقاليد الأمور، اتسمت السياسة العراقية بالتردد والانحراف، حتى أسفرت بعـد اخماد ثـورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١) عن رجعية صريحة في ميدان القومية والاستقلال. وسقط العراق في عزلة رسمية تتنكر للفكرة العربية وتعتقل القوميين العرب وتغلق نواديهم، وتكافح المواد التي تحفز الروح الوطنية والقوميـة في مناهـج الدراسـة. . وأعادت الحكـومة العراقية السيطرة البريطانية على الشؤون الداخلية، ومضت الى أبعد من ذلك فربطت العراق بهوية اقليمية (جيواستراتيجية) مع دول غير عربية في ما سمى (حلف بغداد)، بعد مدّ أجل المعاهدة العراقية ـ البريطانية لعام ١٩٣٠ وتوسيع قيودها. وبذلك تراجعت الدولة العراقية عن كل ما حققته في ميادين السياستين القومية والاستقلالية، والتزمت سياسة لاقومية بشكل صريح. وفي غضون ذلك، حققت سورية استقلالها التام، حتى غدت أول دولة تتمتع بسيادة مطلقة واستقلال مطلق، وسارت على نهج قومي واضح يعبر عن مشاعر الجهاهير، حين وضعت في دستورها مادة تنص على ان الشعب السوري جزء من الأمة العربية، ومادة أخرى ألزمت رئيس الجمهورية بأن يقسم على العمل لتحقيق الوحدة العربية، ومادة ثالثة حتمت على نواب الأمة أيضاً أن يقسموا لتحقيق هذه الوحدة أيضاً.

والحق ان جميع الأحزاب السورية تقريباً كانت تود الاتحاد مع العراق في وقت مضى، وقبل أن تتغير السياسة العراقية وتنحرف انحرافاً أساسياً عن توجهاتها العربية. ورغم ان حزب الشعب السوري المعروف برغبته في الاتحاد مع العراق، كان مسيطراً على الوزارة الجديدة، غير أنه لم يكن مستعداً للتضحية بالنظام الجمهوري السوري واستبدال عرش لعبدالإله به. اضافة الى خشيته من امتداد مفعول المعاهدة العراقية _ البريطانية الى سورية بقيودها وقواعدها العسكرية. وحين أدرك الزعاء السوريون حقيقة وواقع السياسة العراقية بعد تسلم الملك فيصل الثاني سلطاته، واتضح لهم أن الأمير عبدالإله، نظير ذلك، قد أعاد السيطرة الانكليزية الى العراق، أقلعوا عن التفكير في الاتحاد مع العراق، واتجهوا بأنظارهم الى مصر، ولا سيا بعد ثورة تموز/يوليو العراق، واتجهوا بأنظارهم الى مصر، ولا سيا بعد ثورة تموز/يوليو

وفي أواخـر السبعينات اجتمـع قادة حـزب البعث الحـاكم في

سورية والعراق لتحقيق مستوى متقدم من الاندماج بين بلدين عربين متجاورين، كرد فعل على انحراف السياسة المصرية في عهد الرئيس السادات. وأصدروا ميثاقاً للعمل القومي المشترك بين القطرين «انسجاماً مع ايمان القيادتين العميق بمبادىء القومية العربية والوحدة العربية». وصمّموا «على تحقيق انتقال نوعي في العلاقات بين القطرين من أجل تحقيق أوثق أشكال العلاقات الوحدوية بينها». وكان الجانبان يؤكدان باستمرار أن وحدة القطرين المرتقبة هي نواة وحدة العرب جميعاً. ولكن التقارب لم يدم سنة واحدة؛ ففي آب/أغسطس ١٩٧٩ توقفت الخطوات الوحدوية وانهار مشروع الوحدة المرتقب، عندما المهم أحد القطرين القطر الآخر بتشجيع محاولة انقلاب فيه، ونفى كل طرف هذا الاتهام، وتدهورت العلاقات بسرعة بينها، وزادت الحرب العراقية - الايرانية، من حدة الخلاف بين القطرين، ووصل الى أقصى درجة من القطيعة والتباعد.

ج ـ وحدة وادي النيل

دعا الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل الى استقلال كل وادي النيل من أقاصي السودان الى البحر المتوسط، كما أن قيام الثورة المصرية عام ١٩١٩ قد ألهب قضية الوحدة مع السودان، وتحقق الالتحام المصري للسودان ما بين ١٩١٩ ولا على نحو قوي من قبل أن تصاب الحركة الوطنية الاتحادية في السودان بنكسة أدت الى تصفيتها، وكانت قد اعتمدت على مجموعة المثقفين السودانيين الذين ساهموا في تأسيس الجمعيات

السياسيـة العلنيـة والسريـة، وعـلى رأسهـا جمعيـة اللواء الأبيض بزعامة على عبداللطيف، ومجموعة الضباط والجنود السودانيين من رجال الجيش المصري في السودان. وكان أعضاء جمعية اللواء الأبيض قد خرجوا في مظاهرات صاحبة ترفع شعارها وهو علم رسم عليه النيل من منبعه الى مصبّه وكتب تحته (الى الأمام)، وأعلنت مناهضتها للانكليـز ومسـانـدتهـا للقضيـة المصريـة التي ارتبطت بقضية السودان، فقابلتها السلطة باجراءات عنيفة، واعتقلت أعضاء الجمعية، وقضى مؤسسها شهيداً في السجن. ومعلوم انـه منـذ اعـلان الحكم الثنـائي في السـودان عـام ١٨٩٩ وحتى نشوب ثـورة ١٩١٩ في مصر، كـان تعـايش رجـال الجيش المصري في السودان مع زملائهم السودانيين، والتفاعل المثمر فيما بينهم، واعتماد الادارة السودانية على الخبرات المصرية، لـ تأثير بالغ في ايجاد ثقافة مصرية _ سودانية موحدة، ولا سيم في مجال التعليم، وكانت من أهم مقومات الوحدة بين القطرين. إضافة الى ان العمل الوطني المصري ـ السوداني كان كفاحاً مشتركاً موحدا يخوضه شعبان شقيقان واقعان تحت ظروف احتلالية متهاثلة. وبعد نكسة ١٩٢٤ تخلت الحركة الوطنية في مصر بزعامة حـزب الوفـد عن المطالبـة بتحقيق (وحـدة وادي النيـل) وفضلت طريق التفاهم مع بريطانيا. وترتب على ذلك أن الجانب المصرى صار ينظر الى قضية (الوحمدة) في اطار الشرعيـة القانـونية، لا في اطار وحدة الكفاح الوطني التي تكسب وحدة وادي النيل مضمـونأ شعبياً ومساندة جماهيرية صلبة. فضلًا عن أن الجانب البريطاني قد استغل ذلك لتصفية كل ما هـو مصري في السودان (١٩٢٤ ـ ١٩٣٦). ولكن معاهدة ١٩٣٦ رفعت الحيظر البريطان عن العلاقات المصرية - السودانية وأعادت أسباب الاتصال بين الشعبين ضمن حدود، تحت ضغوط سياسية مصرية ودولية. وتوقف بحث موضوع وحدة وادي النيل طوال عشر سنـوات نظرأ لانشغال بريطانيا في الحرب العالمية الثانية وذيولها، الى أن جرت المفاوضات المصرية - البريطانية مجدداً عام ١٩٤٦ لبحث قضية السودان. ولكن تغيرات كبيرة قد جرت في السودان خلال هذه الفترة، منها تزايد حجم جماعات المثقفين السودانيين الذين قادوا الحركة الوطنية ابتداء من تشكيل (مؤتمر الخريجين العام) الذي كان يمثلها منذ عام ١٩٣٨. كما تزايد عدد الموظفين السودانيين في الادارة الى أكثر من الضعف من حيث الكم. ومن حيث النوع، بدأت تتشكل نخبة مثقفة سودانية بعد أن أوفدت حكومة الخرطوم منــذ عام ١٩٢٤ أعــداداً من خريجي كلية غوردون لاتمام تعليمهم العالى في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي الجامعات المصرية. وكان مقرراً لهؤلاء أن يقوموا بــدور مهم في العمـل السيــاسي بالسودان، وفي السعى لتحقيق وحدة وادي النيل.

أما في مصر، فإن القوى السياسية الجديدة التي ظهرت الى جانب القوى السياسية التقليدية، نجحت في طرح موضوع (الوحدة) بعد أن انتزعته من على مائدة المفاوضات مع بريطانيا، وجعلته مطلباً جماهيرياً يستثير حماس الجهاعات النشطة في القطرين لتحقيقه.

بيد ان الفترة التي مرت بين العودة الى المفاوضات عام ١٩٤٦ وبين توقيع اتفاقية السودان في شباط/فبراير ١٩٥٣، شهدت تراجع فكرة الكفاح المشترك من أجل وحدة وادي النيل، لأسباب منها: أنه حتى بعد قيام ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢ وتكوين الجمهورية السودانية عام ١٩٥٣، كانت الجهود الرامية لتحقيق وحدة القطرين مقتصرة على الجانب الرسمي، وكان يعوزها الـدعم الشعبي، وذلك بعد قمع الجهاعات السياسية الداعية الى وحدة الكفاح في وادي النيل على يد حكومة اسهاعيل صدقي ما بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٥٠ الذي شهـد تشكيل حكـومة النحـاس، هذا من ناحية. ومن نـاحية أخـرى، فان الجـانب المصري الداعى الى الموحدة، رفض - كبريطانيا - قبول اشراك وفعد يمثل الاحزاب السودانية في مفاوضات ١٩٤٦، مما كان يعني من وجهة النظر السودانية عدم الرغبة في اشراك السودانيين في العمل من أجل الاستقلال. وتبع ذلك تحوّل اهتمام السياسة المصرية منـذ أواسط الأربعينات نحو قضية التعاون العربي والوحـدة العربيـة، وأخذت مصر تولي معظم اهتهامها نحو الشرق بدل الجنوب.

وفي أواخر السبعينات تضامن نظام جعفر النميري في السودان مع نظام الرئيس السادات المعزول عربياً بعد ابرامه الصلح مع اسرائيل. وكان القطران قبل ذلك قد وصفا في شباط/فبراير ١٩٧٤ منهاجاً للعمل السياسي والتكامل الاقتصادي، تمهيداً للوحدة المرتقبة بينها. ولا حاجة الى القول ان

مصر عملت على تثبيت النظام السوداني ضد المناوئين لـه، ولكن الثورة على نظام النميري عام ١٩٨٥ أضعفت العلاقة الخاصة بين القطرين.

د ـ وحدة المغرب العربي الكبير

تشكل أقطار المغرب منطقة ذات تواصل جغرافي وتماشل تاريخي، واستعار فرنسي واحد، وتجربة استقلالية متزامنة، وتعاضد مشهود مع الثورة الجزائرية التي نشبت عام ١٩٥٤. أما لبيا فذات اتصال مع المشرق والمغرب على السواء. وموريتانيا ذات وشائج وثيقة مع الوطن العربي في الشهال، ولها روابط مع افريقيا السوداء في الجنوب. وقد عمل الاستعمار الفرنسي على إقامة سدّ منيع بين المغرب والمشرق، ولكن الروابط بين أقطار المغرب التي نكبت بالاحتلال الفرنسي توطدت، سواء عن طريق انتشار الثقافة الفرنسية، أم بفضل تيسير سبل المواصلات الحديثة، أم التنسيق بين اقتصاديات المغرب والنظر في المشترك من شؤونه.

ويلاحظ في أقطار المغرب وجود تيارين، أحدهما يقوم على إحياء التقاليد العربية الإسلامية، ترسيخاً لأصالة المغرب الحقيقية وهويته العربية الإسلامية، وثانيهما يقوم على فكرة التجديد والتغريب، وعلى الاقتباس عن الغرب ومحاكاته في مظاهر الحياة المادية والاجتهاعية والفكرية. وقد أدى تغلغل أنماط التفكير الغربي إلى تهديد الروابط القومية واللغوية في البيئات العربية الإسلامية،

وأوقع أقطار الـوطن العربي مغـرباً ومشرقـاً في (ثنائيـة) نجم عنها انشطار فكري واجتماعي بين أنصار المغالاة في التغريب ومحاكماة الثقافة الأوروبية، وأنصار النزوع إلى السلفية والثقافة العربية الإسلامية ، بحيث انقسمت الأمة إلى عناصر متباينة ذات توجهات مختلفة، واختل التوازن بين الماضي والحاضر، بين الثقافة الإسلامية العميقة مصدر الأصالة الحضارية وتراثها المجيد، وبين الثقافة العالمية الحديثة مصدر النهوض والمعاصرة التي لاتتم مواجهة تحديات البيئة الخارجية إلا بها. وعلى الرغم من أنــه ليس ثمة تناقض حقيقي بين الاعتزاز بالماضي ومنجزاته، وبين الأخذ بمآثر الحاضر والاطلاع على أفكاره، غير أن المغالاة في تبنَّى أحدهما دون أن يكمله بالآخر، قد أتاحت المجال (للثنائية) أن تفعل فعلها في تهديم الوحدة القومية، وفي نشوء هوّيات محلية وإقليمية مع أحزاب وحركات تعارض ما نشأ لدى الجهاعة المناوئة الأخرى، ومع اختلاف درجة الميل إلى الأخذ بمظاهر الحضارة العالمية الحديثة، والتوفيق بينها وبين التراث العربي الإسلامي.

ويلاحظ أن أهل المغرب عموماً في تونس والجنزائر ومراكش يجعلون الأولوية للهوية الإسلامية على الهوية القومية العربية، علماً بأن الهويتين تستمدان أصولهما من نبع واحد. ويرجع ذلك إلى عوامل خاصة بالمغرب، منها أنه لا توجد فيه أقليات وطنية من غير المسلمين، لأن اليهود المغاربة اندمجوا في البيئة الأوروبية وصاروا كالأجانب المستوطنين. ثم لأن السياسة الفرنسية دأبت على إثارة

النعرة الدينية وتحدي المشاعر الإسلامية، وتحويل الجوامع إلى كنائس، ومكافحة الدين الإسلامي واللغة العربية. هذا إلى أن المغرب ككلُّ ظُلُّ يواجه وحده الحركة الصليبية المتجددة منذ القرن السادس عشر، مما جعل ذكريات المواجهة مع أوروبا أحدث عهداً من مثيلاتها على المشرق في القرون الوسطى، الأمر الـذي ترك في نفوس المغاربة عصبية إسلامية ضد فرنسا ومحاولاتها تنصير المسلمين بالقوة. وقد ساهم في تعميق هذه المشاعر أن أقطار المغرب الشلاثة قد ابتليت باستعمار فرنسي اتسم بالشراسة والتعصب. وهذه الخصوصيات والمميزات الإقليمية، تضاف إلى ما تميز بـه المغرب في القـرون الوسـطى من حيث امتزاج عنصري السكان العرب والبربر، وانتشار الطرق الصوفية والمذهب المالكي، والتأثر بالطابع الأندلسي في الأدب والعمارة والفن والموسيقى، وتبني نوع من الخطوط العربية في الكتابة عرف بالخط المغربي. . . وقد أسهم كل ذلك في رسم ملامح الشخصية المغربية المصطبغة بالصبغة الإسلامية في العصر الحديث، ولكن هذه المميزات لم تتعارض مطلقاً مع انتهاء المغرب إلى الوطن العربي، وارتباطه بوشائج القربي اللغوية والتاريخية والروحية مع المشرق العربي، ولم تبلغ حدّ الشعور بهوّية مغربية متميزة عن الهوية العربية، ومعنظم زعماء المغىرب يؤكدون أن الهـويّة (المغـربية) لا تعكس كيانية سياسية إقليمية تتناقض مع الكيان العربي الموحد، وإنها ليست سـوى مرحلة من مـراحل تقـدم المغـرب نحـو تحفيق الوحدة العربية الشاملة، وخطوة أولى نحوها. ويبدو أن وحدة المغرب الكبير بـرزت منذ أيـام النضال ضــد الاحتلال الفرنسي، وقد أشرنا سابقاً إلى حزب نجمة شهال افريقيا الذي أسسه مصالي الحاج (١٩٢٦) في الجزائر، وكان ينطق بـاسم الشمال الافريقي كله، ويـطالب باستقـلال أقطاره. ويـلاحظ أن الـوطنيين في تـونس ومراكش فضَّلوا العمـل مرحليـاً على مستـوى قطرى، خشية أن تعيق مشكلة الجزائر المعقدة مساعيهم الرامية إلى الاستقلال. كذلك فعلت جماعة العلماء التي ناضلت لإحياء التراث العربي، وكان أعضاؤها أقدر من غيرهم على إثبات هوّية الجزائر العربية الإسلامية، ولاسيها عن طريق التعليم، كما نشطت للرد على الإندماجيين المتغربين الذين اتجهوا إلى تحرير الجزائر من الاستعمار باعتبارها جزءاً مندمجاً في فرنسا. وفي عام ١٩٣٧ انعقـد مؤتمر للتقريب بين مختلف الاتجاهات في الجزائر، وطالب المؤتمرون بالاعتراف باللغة العربية لغة قومية في الجزائر. وفي العام نفسه قام حزب الدستور التونسي بإضراب تضامني مع الجزائر ومراكش بعد الاجراءات القمعية التي اتخذت ضدهما. ودعا حزب الشعب الجزائري، وارث نجم شال افريقيا، إلى تشكيل جبهة دفاع تنتظم التونسيين والجزائريين والمراكشيين ضد الجبهة الاستعمارية. كما وقف مؤسس الهيئة الثقافية الإسلامية في باريس الشيخ عبد الهادي السنوسي، ليذكّر الأعضاء في شباط/فبراير ١٩٣٩ بأن أبناء شمال إفريقيا ما هم إلا شعب واحــد وأن الحدود بينهم مــا هي إلا حواجز مصطنعة.

وقد اشتمل ميشاق جامعة الدول العربية عملى ملحق خاص

بتحرير شعوب شهال افريقيا، إلا أن ظروف الجامعة وإمكاناتها ضاقت عن تقديم المساعدة المطلوبة، ومع ذلك فيها قدمته أقطار المشرق العربي كان بداية لإعادة العلاقات الوثيقة كها كانت قبل الاستعمار الفرنسي. وفي المؤتمر الذي عقدته الأحزاب الرئيسية الثلاثة في المغرب أوائل عام ١٩٤٧، ضمّ حزب الاستقلال (مراكش) وحزب المستور الجديد (تونس) وحزب الشعب (الجزائر)، تقرر تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة لتنسيق جهودها الرامية إلى تحقيق الاستقلال، وبالتعاون مع جامعة الدول العربية. وفي أواخر عام ١٩٤٧ أصدرت لجنة تحرير المغرب العربي التي ضمّت ممثلين عن الأحسزاب الشلائة، إضافة إلى حزب الإصلاح والشورى (مراكش)، ميثاقاً أعلن فيه رئيس الهيئة عبد الكريم الخطابي:

١- إن المغرب العربي بالإسلام كان، وللإسلام عاش، وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلية.

٢- إن المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة، وتعاونه في دائرة
 الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر
 طبيعي ولازم.

"-إن غاية اللجنة هي الاستقلال التام لأقطار المغرب الثلاثة، ولا مفاوضة إلا بعد الاستقلال، وإن حصول قطر على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة السعى لتحرير الأقطار الأخرى.

إن موقف أقطار المغرب الثلاثة من الهوّية العربية والهوّية المغربية، كانت تحكمه الظروف والمراحل التي مرت بها في تحررها من ربقة الاستعمار؛ فقد نالت تونس ومراكش الاستقلال قبل أن يتسنَّى للبلدان العربية الأخرى تقديم معونة فعالة لهم على درب الاستقلال، بينها أتيح للبلدان العربية أن تمدّ الجزائر في كفاحها الثورى، قبل الاستقلال وبعده، ولذا تضمّن برنامج جبهة التحرير الـوطني تحقيق الوحـدة المغربيـة، باعتبـارها مـرحلة نحو الموحدة العربية الشاملة. وفي مراكش اتجه القصر والزعماء السياسيون نحو الاعتزاز بالتضامن العربي، وقد تجلى ذلك في الخطاب الذي ألقاه محمد الخامس في طنجة (١٩٤٧)، وفي زيارته الـودية لأقـطار المشرق العربي عـام ١٩٦٠، وسعيه الـدائب لجعل قرارات الجامعة العربية قرارات ملزمة. وأحزاب اليمين واليسار سواء في التمسُّك بإن المغرب جزء من الوطن العربي، يتساوى في ذلك حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوى الشعبية. وفي أواخر عام ١٩٥٢ خرجت مظاهرات صاخبة في الدار البيضاء مستنكرة اغتيال فرحات حشاد الزعيم النقابي التونسي. وفي تشرين الأول/اكتوبر ١٩٥٦ كاد أن ينعقد مؤتمر قمة مغربية في تـونس، لولا اختطاف طائرة الزعيم الجزائري أحمد بن بلًا.

وفي وقت ما تطلع الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة إلى زعامة المغرب الكبير، فقد دعا عام ١٩٥٧ إلى اتحاد تـونس والجزائـر، بشرط أن تمنح فرنسا الاستقلال للجنزائر، مقـابل حصـولها عـلى

امتيازات اقتصادية في الدولة الاتحادية الجديدة. كذلك لا يمكن أن ننفي طموح المغرب إلى زعامة المغرب الكبير. أما الجزائر فإن الشهرة التي اكتسبتها بجدارة في ثورتها المظفرة ضد فرنسا (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، ثم أخذها بأساليب متقدمة في الاقتصاد والسياسة، جعلها مطمح أنظار القوى التقدمية في تونس والمغرب. ولكن نزاع الحدود الذي ثار بين الجزائر والمغرب، عرقل الجهود نحو المغرب الكبير، وقد اتفق عام ١٩٦١ على تأجيل حلّ النزاع، إلى ما بعد استقلال الجزائر، على أساس أن تحقيق الوحدة المغربية سيزيل كل خلافات الحدود بين الأقطار الثلاثة.

وحين أثبت الجزائر قدرتها على انتزاع الاستقلال من فرنسا، تولّت المنظهات السياسية لا الحكومية، عقد مؤتمر في طنجة (ربيع الإصلام) لوضع الإطار المحدّد لتحقيق فكرة المغرب الكبير. وكان أول مؤتمر من نوعه يعبّر عن الإرادة الجهاعية لشعوب المغرب العربي في توحيد مصيرها ضمن التضامن المتين لمصالحها. وقد أقرّ بأن هذه الفكرة هي جزء من حركة الوحدة العربية، واهتم بتأييد كفاح الجزائر، ومتابعة النضال لتصفية بقايا الاستعار الفرنسي في تونس ومراكش. وقد اعتبر المؤتمر أن الشكل الاتحادي (الفيدرالي) أكثر ملاءمة للواقع في البلاد المشتركة بالمؤتمر، ولذا اقترح أن يشكل مجلس استشاري للمغرب، وعن المجلس الوطني للثورة للموانية المحلية في تونس والمغرب، وعن المجلس الوطني للثورة

الجزائرية، مهمته درس القضايا ذات المصلحة المشتركة، وتقديم التوصيات للسلطات التنفيذية المحلية. وقد أوصى المؤتمر الحكومات الثلاث بألا تربط منفردة مصير شهال افريقيا في ميدان العلاقات الخارجية والدفاع، إلى أن تتم إقامة المؤسسات الاتحادية.

ولكن بعد نوال الجزائر استقلالها، وبروز الخلافات بين زعامات الأقطار الثلاثة، تعثرت فكرة المغرب الكبير، وأخلد الزعاء يعلنون عن إمكان تحقيقها على مراحل بدءاً بالوحدة الاقتصادية. وعقد لهذا الغرض مؤتمر جديد في طنجة (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤)، تقرر فيه تشكيل هيئة موحدة لتنسيق السياسة الاقتصادية بين الأقطار الأربعة، إذ انضمت ليبيا إلى الفكرة، لأن التنافس بين أقطار المغرب الشلاشة على تصدير الفوسفات كان يلحق الضرر باقتصادياتها. بيد أن الصراع على الزعامة لا يشكل وحده العقبة الرئيسية في وجه تحقيق المغرب الكبير، فهناك صراع حول الايديولوجيات السياسية. وقد اتضح ذلك حين انقسمت أقطار المغرب عام ١٩٦٢ و١٩٦٣ إلى معسكر ملكى ارتبطت به ليبيا والمغرب بمعاهدة دفاعية، مقابل تقارب جمهوريتي تونس والجزائر، بعد تدهور علاقات المغرب مع تونس إثر اعتراف هذه بجمهورية موريتانيا الاسلامية. وحين قامت منظهات الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣، أقرَّت إمكانية إنشاء كتل، إقليمية مثل وحدة المغرب الكبير، كما ورد في الدستور الجزائري ما يدلّ على الاتجاه نحو الوحدة العربية والوحدة المغربية، حين رتّب هذه الاتجاهات حسب الأولويات فنصّ على أن «الجزائر جزء من المغرب الكبير ومن العالم العربي ثم من افريقيا».

وحققت الأقطار الثلاثة في المغرب بعض التقدم في تنسيق شؤونها، حين أنشأ وزراء التربية فيها عام ١٩٦٦ لجنة استشارية دائمة في ميدان التعليم. كما أنشئت لجنة دائمة لشؤون الرياضة عام ١٩٦٧، وافتتح في الجزائر المركز المغربي للدراسات الإدارية عام ١٩٧٠، كما تشكلت جمعيات مهنية قضائية وطبية وتربوية. وفي ميدان الاقتصاد تأسس مؤتمر وزاري دائم بقصد تحقيق الاندماج الاقتصادي لأقطار المغرب الكبير، وأنشئت مؤسسات مشتركة متعددة، ولكن حصيلة هذه المؤسسات بعد مضي عقدين على تأسيس معظمها ظلت قاصرة عن تحقيق الغاية المرجوة منها.

كذلك ما زال الجدل محتدماً بين أنصار التعريب والهوية المغربية، وبين خصومهم أنصار التبعية الثقافية والحضارية المتغربين المعروفين باسم (فرنكو _ آراب Franco - Arabe). وقد انتقد أنصار التعريب مناوثيهم المتغربين بأن مساعيهم تقضي على عوامل الوحدة المغربية الثقافية والحضارية واللغوية، وأن المؤتمرات التي يحضرونها في باريس وسواها تؤيد هذا الاتجاه. وكانت كليات الآداب والصحافة والتوثيق قد خطت خطوات إلى الأمام في سبيل دعم التعريب، ولكن خصومهم المتغربين أغروا الكليات العلمية بوجوب الحفاظ على علاقاتها مع فرنسا. وقد

تأسس اتحاد كتّاب المغرب الذي يضم مؤلفين وأدباء وكتاباً من شي أنحاء المغرب الكبير على اختلاف ايديولوجياتهم ومنازعهم، بهدف الحفاظ على الشخصية المغربية، ودلّ ذلك على أن الخصوصية المغربية واضحة فيه رغم تعدّد منازعه، وهذه ظاهرة صحية لا تؤثر على وحدة الشخصية المغربية، وإنما تعتبر إغناء وإخصاباً لها ضمن الوحدة. ومعلوم أن عديداً من كتّاب فرنسا منذ غزو الجزائر عام ١٨٣٠ لا ينصفون الجزائر وإنما ينعتونها بأنها وكر للقراصنة. ويردّ الكتاب الجزائريون والمغاربة عليهم. والواقع عربية إسلامية تجافظ على أصالتها وترمي إلى تحقيق ذاتها وفرض عربية إسلامية تجافظ على أصالتها وترمي إلى تحقيق ذاتها وفرض قيمتها، وحضارة أوروبية ترغب في فوض التبعية الثقافية والحضارية على أقطار المغرب لنسف هويته العربية وإحكام السيطرة عليه.

هـ ـ مجلس التعاون الخليجي

عاشت منطقة الخليج العربي في وضع مفكك طوال حقبة الاستعمار البريطاني الذي حرص منذ بدء سيطرته في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، على تثبيت التجزئة وإثارة النعرات القبلية، وبث الوقيعة بين الحكام، وزرع الجفاء والنزاع فيما بينهم، وكان يجد دائماً المسوع الشرعي لتدخله بموجب معاهدات الحماية، بحجة تقديم المساعدة إلى شيخ ضد شيخ آخر، أو إلى إمارة ضد أخرى.

وحين أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من منطقة الخليج قبل نهاية عام ١٩٧١، ظهرت في المنطقة تيارات عنيفة واتجاهات متصارعة عديدة تتهيأ لملء الفراغ الوشيك، تراوحت بين مخططات استعمارية ومشروعات استقلالية طرحتها شركات أجنبية لتحقيق الربح الوفير أو لتبديد الثروة النفطية الوطنية. وبين مخاطر داخليـة تستهدف الإطـاحة بـالنظم القـائمة. ومن هنـا بدأ التفكير جدياً في إقامة اتحاد يجمع بين امارات الخليج التي كانت لا تزال خاضعة للنفوذ البريطاني، كحل وحيد لملء الفراغ من داخــل المنطقة لا من خارجها، ومعالجة مشاكل المدول الأعضاء سواء في إطار الأمن الاستراتيجي السياسي، أم في إطار الأمن الاقتصادي، لأن بقاء الإمارات على حال من التفكك والتجزئة يغري بهما الأطماع الخارجية ويسبّب المزيـد من التخلف والتقهقر. وقـد ظهر بالفعل اتحاد الإمارات العربية، وكان إنجازاً لا يستهان به، بغض النظر عن عزوف البحرين وقطر عن الانضمام إلى الاتحاد. ولا شك في أن فكرة الاتحاد بحدّ ذاتها على جانب كبير من الأهمية لأنها تحقق أغراضاً سياسية واقتصادية بعيدة المدى، بفضل ما تتبحمه لمجموع دول المنطقة من تنسيق لجهودها الاقتصادية والدفاعية والخارجية بإزاء تحديات البيئة الخارجية المتصاعدة.

وظهر مجلس التعاون الخليجي في مطلع شباط/فبراير ١٩٨١ كمنظمة إقليمية ذات شخصية دولية، وقد حصرت عضويته في الأقطار الستة المشاطئة للخليج ذات أنظمة الحكم الأسرية المحافظة، وهي العربية السعودية، وعُمان والإمارات العربية المتحدة، وقطر والبحرين والكويت، إحساساً منها بالتماشل والتجاور، وبضرورة التوصل إلى أهداف محددة أمنية واقتصادية، وبينها واستناداً إلى المادة (٩) من ميثاق جامعة الدول العربية. وبينها رحّب أمين الجامعة بقيام مجلس التعاون واعتبره «خطوة إيجابية نحو تحقيق الأهداف التي تعمل من أجلها الجامعة العربية»، انتقد كل من العراق واليمن العربية إبعادهما عن المجلس، لاسيما وأن كل التجمعات الخليجية السابقة كانت تضم العراق. أما اليمن العربية فكانت متحمسة لوحدة بلدان الجزيرة العربية التي أكد عليها وزراء التخطيط في هذه البلدان المجتمعين في السرياض عليها وزراء التخطيط في هذه البلدان المجتمعين في السرياض (حزيران/يونيو ١٩٧٩).

ويبدو أن مجلس التعاون أنشىء في ظروف هيمن عليها التشرذم الذي شهده النظام العربي، وتمشّل في خروج مصر من خندق المواجهة مع إسرائيل وعزلتها عن العرب منذ عام ١٩٧٩، وانهيار العلاقات السورية ـ العراقية، وقيام الثورة الإسلامية في إيران والحرب الطاحنة التي أعقبتها بين العراق وإيران، وتورط الجزائر والمغرب في حرب الصحراء الغربية، وانشغال سورية بأحداثها الداخلية وفي لبنان. . . إضافة إلى تفاقم الأخطار المحدقة بدول الخليج الصغرى، ولاسيا بعد التدخل السوفياتي في المخدقة بدول الخليج العراقية ـ الإيرانية . ولكن الرغبة في أفغانستان، وتصاعد الحرب العراقية ـ الإيرانية . ولكن الرغبة في التعاون، ويأتي بعدها تطلع دول الخليج إلى تحقيق حرية أكبر التعاون، ويأتي بعدها تطلع دول الخليج إلى تحقيق حرية أكبر

لانتقال مواطنيها وسلعها وأفكارها دون قيود أو حدود. ومجلس التعاون هو رصيد في كل الأحوال للحركة الوحدوية السياسية العامة، ودعم لهدفها النهائي، بشرط أن لا ينتهج سياسة تفضيلية في مجال الأمن والاقتصاد تجاه دول النظام العربي الأخرى، لئلا تصطدم مع الأهداف القومية الجامعة، ولئلا يخلق محوراً جديداً يضعف العمل العربي المشترك.

٣_ الهوية الدينية

الهوية كشعور بالانتهاء هي شعور عميق في النفس البشرية. والهوية الدينية تعني الهوية الإسلامية، وهي لا تنافس الهوية القومية إلا إذا استخدمت سياسياً لهذا الغرض. وهذه العلاقة الجدلية بين الهويتين ليست جديدة، وإنما ترجع إلى قرن كامل في الموطن العربي، وليس مقدراً لها أن تختفي في المستقبل نظراً لأصالة كل من الهويتين. والهوية الدينية ليست بالضرورة معادية للعروبة أو للهوية القومية، ولكنها قد تكون كذلك في سياق تاريخي معين، وتوازن معين للقوى الاجتهاعية والسياسية. وبالمقابل، يمكن أن تكون دعاً لها في سياق تاريخي آخر.

لقد بدا للكثيرين من المسلمين المحافظين أن مشروع الوحدة العربية وإن كان أقل طموحاً من مشروع الوحدة الإسلامية، ولكنه أسهل منالاً. ألم تكن الوحدة العربية فاتحة الوحدة الإسلامية في سالف الأزمان؟ لئن اختلفت الحركة الإسلامية مع

الحركة العربية في الأهداف البعيدة، فها تلتقيان في الغايات القريبة، لأن كلاً منها تضع مسألة تحرير العرب في مقدمة برنامجها.

والإسلام عربي في الأساس، لأن العربية كانت وما زالت قوام الإسلام ولغة قرآنه ونبيه. والواقع أن ما نشرته مدرسة المنار الإصلاحية بزعامة السيد محمد رشيد رضا كان له أثره في تطوير الفكر الديني في الفترة ما بين الحربين. وزعيمها لم يتردد في تحميل الشعوب غير العربية مسؤولية انحطاط العالم الإسلامي. فقد صرّح أن الدين الإسلامي هو دين عربي في مبدئه وأساسه، ولم يكن مبتدعاً في ذلك، إذ إن هذه الفكرة كان قد طرحها الكواكبي يك تتابه أم القرى، كما أن محمد عبده كان يشير إليها أحياناً. حتى إذا أتى رشيد رضا دعمها وأغنى مفاهيمها وشرحها، وبخاصة بعد أن قام الشريف حسين بثورته على الترك.

ويرى الكثيرون من الكتاب والمفكرين أن لا تناقض بين الموية الدينة والهوية القومية؛ فالإسلام هو الذي صنع للأمة العربية وحدتها القومية الأولى. والأمة العربية هي الطليعة التي استجابت لدعوة الإسلام وتولّت حمايته بالدولة والفتح، ثم أبدعت حضارته العربية الإسلامية، وحملت الدعوة إليه بين شعوب الأمم الأخرى. وهذه العروبة كانت دائرة انتهاء حضاري وقومي، مثلت واقعاً طوّره الإسلام واعترف به وأقرّ بفضله. كذلك لا تعارض بين القومية العربية والدين الإسلامي؛ لقد

تساءل عبد الناصر: «أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقرّ بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ». وكما يرى بعض المفكرين أن وحدة الدين لا تَشترط كأساس من أسس القومية، ما دام الدين الواحد يضم عدة قوميات مختلفة، فالقومية أيضاً لا تقوم على دين واحد، وإنما تستند إلى المثل الدينيـة العليا لتكون إنسانية غير متعصبة ولا معتدية. وعليه يمكن للمسلم العربي أن يشعر بالولاء نحو القومية والدين في آن معاً، فيكون لــه بعده الروحي وتراثه الحضاري المتكامل مع انتهائه القومي. القـومية من عنــاصر وجود الأمــة العربيــة نفسهــا؟ ألا يلتقي فيهــا العنصر اللغوي مع عـديله العنصر الديني، ويشتبـك فيها العنصر التاريخي مع العنصر الاجتهاعي؟ ألم يكن رفض الاحتلال والهيمنة مختلطاً مع التهايز عن الطوراني والغربي؟ وحتى حين تستخدم الهوّية الدينية سياسياً في صورة الجامعة الإسلامية والمؤتمر الإسلامي... فإنه لا يتحتم أن تستقطب الجهاه ير حولها، ما لم تشعر هـذه الجهاهير أن مصالحها تقتضي ذلك، وأن المروّجين لهما يتمتعون بمصداقية شعبية. وينطبق هذا أيضاً على الهوّية القومية.

ويلاحظ أن الهوية الدينية تتخذ مضامين مختلفة من قطر إلى آخر؛ فهي في بعض الأقطار كمصر تطرحها الطبقات الكادحة وذات الدخل المحدود، بصورة احتجاج على سياسات تزيد من إفقار هذه الطبقات. وهي بهذا المعنى دعوة إلى العدل الاجتماعي

ورفض لسياسات التغريب. وفي أقطار المغرب العربي عموماً، ترتبط هذه الهوية الدينية إضافة إلى ما تقدم، باللغة والثقافة العربيتين، بصورة احتجاج على تبني الثقافات الداخيلة الغربية والانتصار لها. وتشهد المرحلة الحاضرة، ولاسيها في مصر وأقطار المغرب العربي، تشابكاً وتداخلاً عميقاً بين الهويتين القومية والدينية، حيث نجد أن الاتجاهات المسيطرة كافة، بما فيها الاتجاه الإسلامي، تعتمد القومية العربية سنداً ومنطلقاً لها وبالعكس. كها تشهد في بعض الأقطار الأخرى، تداخلاً بين هاتين الهويتين وسواهما، بصورة يغلب عليها التنافس والتنافر على التعاضد والتكامل، وهنا مكمن الخطر، لأن هذا يؤدي بدوره إلى مزيد من التجزئة والفرقة بدل الوحدة والانسجام.

٤ - الهوية الإقليمية

وتسمى أيضاً الهوية الجيو استراتيجية، وهي أخطر الهويات على الوحدة وأشدها تثبيتاً للتجزئة. وتمثل هذه الهوية خروج هذا القطر العربي أو ذاك من النظام العربي إلى النظام الإقليمي غير العربي في الشرق الأوسط، كلما شعر أن موقعه مهدد أو غير مريح. ومعلوم أن مشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى اللذين صدرا عن الهاشميين في بغداد وعمان، قوبلا بالتشكك والمعارضة من السعوديين الذين كانوا قد اضطروا الهاشميين إلى النزوح من الحجاز في منتصف العشرينات من القرن الحالي، كما

قوبلا بالرفض من مصر لأنها استبعدا انضامها إلى الاتحاد العربي المرتقب. وتغلبت وجهة النظر المصرية ـ السعودية في مداولات الوحدة العربية (١٩٤٣ ـ ١٩٤٥)، وقد ساندها كل من سورية ولبنان اللذين تعرضا لضغط هاشمي قوي، وكان حصيلتها قيام الجامعة العربية التي لم تكن في حقيقة الأمر خطوة وحدوية نحو نظام قومي إقليمي، بقدر ما كانت مشروعاً مضاداً لإبطال المشروعات الهاشمية. ولذا لم ينظر الهاشميون بارتياح إلى قيام الجامعة، إذ اعتبروها في صف المعسكر المناوىء لهم، في وقت شعروا فيه بأن ميزان القوى داخل النظام العربي لا يتطور لمصاحتهم.

وتطلع الهاشميون في العراق والأردن لموازنة مركزهم المتزعزع في نطاق الجامعة، عن طريق التحالف مع دولة مجاورة غير عربية هي تركيا في الربع الأول من عام ١٩٤٧ للالتفاف حول نظام عربي أداته الجامعة. ولم يلبث أن خرج العراق من الحظيرة العربية ودخل حلف بغداد الموالي للغرب في شباط/فبراير ١٩٥٥، الذي ضمّ في عضويته تركيا وإيران وباكستان. وفي المرحلة التالية التي بدأت بالعدوان الثلاثي على مصر، وانتهت بهزيمة حزيران/بونيو بدأت بالعدوان الثلاثي على مصر، وانتهت بهزيمة حزيران/بونيو مساندة ثورة الجزائر، والتقارب مع سورية.

وفي الأردن تعاقبت الأحداث السريعة بعد أن أفشـل الشعب مشروع ربط عمان بحلف بغداد، وطهّر الجيش الأردني من عملاء

الإنكليز، وأعلن عن تأليف القيادة المصرية ـ السورية ـ الأردنية المشتركة. كذلك مرّ التعاون المصري - السوري مع العربية السعودية والأردن بامتحان عسير بعد طرح مبدأ ايزنهاور عمام ١٩٥٧. وبينها تطور التعاون بين مصر وسورية نحو علاقات الـذي انضمت إليه السعودية، وطرحت الحلف الإسـلامي ثم منظمة المؤتمر الإسلامي لمنافسة النظام العربي البذي تزعمته مصر عبد الناصر. واعتبر عام ١٩٥٨ الذي أعلنت فيه الموحدة السورية _ المصرية العام الذي كشف بصورة حاسمة عن قوة التيار القومي، واستدعى تصاعد الحماس الشعبي لحدث الوحدة ردود فعل معادية من بعض الأنظمة العربية، ففي لبنان خرج الرئيس كميل شمعون على الميشاق الوطني الـذي يحكم العلاقـات بين الطوائف، وانحاز ضد سورية ومصر، في محـاولة للقضـاء على التيار القومى المتعاظم الذي هدّد نفوذ النخبة المارونيـة وامتيازاتهــا السياسية والاجتماعية. وسارع الهاشميون في بغداد وعمان إلى إقامة (الاتحاد الهاشمي) الذي قضى عليه بعد ستة شهور من قيام دولة الوحدة، حين انتصرت ثورة رمضان (تموز/يوليو ١٩٥٨) في العراق، وأطاحت بالملكية وحلف بغداد. وأدى تفاقم الأزمة اللبنانية إلى تهديد أمن المنطقة بأسرها، حين تسبّبت في عودة القوات الأجنبية إلى لبنان والأردن. وسارعت بعض النظم العربية المحافظة إلى تجاوز خلافاتها التقليدية لمواجهة الأصداء الواسعة التي أحدثها قيام الجمهورية العربية المتحدة. وبدأ التنسيق

للهجوم المعاكس على مواقعها، من سورية واليمن والسودان ولبنان، وحتى من العراق الذي انحرفت ثورته بمعونة التيارات الأممية والشعوبية. وبالمقابل حمل عقد الستينات تطورات غير مؤاتية للرئيس عبدالناصر في كل من الجزائر (إقصاء أحمد بن بلاً حزيران/يونيو ١٩٦٤) والعراق (تولي حزب البعث للسلطة قبيل تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣). ولكن الضربة الكبرى جاءت نتيجة حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ مع إسرائيل التي تورطت فيها نتيجة حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ مع إسرائيل التي تورطت فيها بلدان المواجهة واستدرجت إليها. وقبل ذلك نجحت مؤامرة الانفصال في سورية (أيلول/سبتمبر ١٩٦١) ثم قامت ثورة ٨ اذار/مارس ١٩٦٣ (لغسل عار الانفصال) وشارك فيها حزب البعث والوحدويون.

ولكن الانقسام العربي استمر بعد هزيمة ١٩٦٧، ولاسيها بعد غياب عبد الناصر، فقد دخلت ليبيا في مشروعات وحدوية مع دول غير عربية مثل تشاد أو مالطة. كها أيدت مع اليمن الديمقراطية اثيوبيا ضد الصومال، وهو دولة عضو في الجامعة العربية، إضافة إلى أنه في الحرب العراقية - الايرانية، أيدت كل من سورية وليبيا طهران، كها أيدت سلطنة عهان قبل ذلك سياسات الشاه الإيراني في الخليج العربي. وكان إعلان عدن (آب/اغسطس ١٩٨١) الذي جمع ليبيا واليمن الديمقراطية مع اثيوبيا في مجموعة متميزة، خروجاً واضحاً على النظام العربي. ولكن أخطر تأكيد للهوية الإقليمية، الجيواستراتيجية على حساب

الهوية القومية كان خروج مصر من خندق المواجهة مع إسرائيل وعقدها اتفاق كامب ديفيد (١٩٧٩)، وما يترتب على ذلك من احتال امتداد العلاقات الاقتصادية، وربما السياسية مع إسرائيل إلى مجال عربي أوسع، في ظل مخاطر تصفية القضية الفلسطينية، وفي ظروف تفوق عسكري إسرائيلي واضح، وتشرذم عربي مستمر. ولا يمكن تصور انتهاء التنافس بين الهوية الإقليمية والهوية الا بتوحد العرب قومياً واستراتيجياً. وبما أن تحقيق ذلك متعذر في المرحلة الراهنة، فلا أقل من تضييق نطاق التحالف الإقليمي وحصره لكيلا يحدث ضرراً بالنظام العربي، يصعب تصحيحه لاحقاً، كعقد اتفاقات طويلة الأمد، والانخراط في صراع عسكري مباشر ضد قطر عربي.

٥- الهوية السياسية

ونعني بها إنشاء تجمعات ومحاور داخل النظام العربي، وذلك بعد أن لوحظ أن الجامعة العربية بعد اثني عشر عاماً من تأسيسها لم تتقدم خطوة واحدة بقضية الوحدة، وإن الرابطة بين دول الجامعة بقيت ضعيفة واهية. لقد تضمن ميثاق الجامعة المادة (٩) وتنص على أنه «لدول الجامعة الراغبة فيا بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى عما نص عليه هذا الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض». ولكن هذه المادة ظلت معطلة حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨. واتضح أنه كلما لاحت في الأفق بارقة

حركة اتحادية ترمي إلى توحيد قطرين عربيين، ولو في بعض النواحي الأساسية، تألبت عليها الدول الأخرى في الجامعة، وأخذت تعمل لإحباط مساعي الاتحاد، بحجة الحرص على (التوازن) بين دول الجامعة، والحيلولة دون تصدّع بناء الجامعة نفسها. ويبدو جلياً أن سياسة (التوازن) التي كانت تطرح وما زالت على مسرح السياسة العربية، داخل الجامعة وخارجها، لم تكن قائمة بين الشعوب العربية أو بين الأقطار العربية، وإنما هي قائمة بين رؤساء بعض الأقطار. وكان جديراً بالأقطار العربية أن تعمل على إزالة المنازعات والمنافسات بين هؤلاء الرؤساء بدل تعطيل حركات الاتحاد ومراعاة مبدأ (التوازن)، وأن ترتفع في معالجتها إلى مستوى المخاطر الناجمة عن تعطيل الوحدة، والمهددة معالجتها إلى مستوى المخاطر الناجمة عن تعطيل الوحدة، والمهددة المحاور السياسية المتنافسة أو المتناقضة.

ويقوم المحور عادة حين يدعو قطر عربي أقطاراً موالية له أو عتاجة إليه، لتشكيل تكتل يدافع عن توجهاتها ومصالحها، ضد محور مقابل، كما حدث في الخمسينات حين عاش النظام العربي قبل انضهام أقطار المغرب إليه بين محورين متنافسين: محور هاشمي يتطلع إلى توسيع رقعة نفوذه، ومحور مقابل يجمعه الحرص على (التوازن) في إطار الجامعة، والحفاظ على الوضع الراهن في الإطار العربي، وفي وجه المحور الهاشمي. وقد أشرنا إلى المساعي الهاشمية بصدد مشروع الهلال الخصيب ومشروع سورية الكبرى،

علماً بأن عمان لم تكن تؤيد بالضرورة كل المشروعات الاتحادية الجنزئية الصادرة عن بغداد، وذلك مراعاة لطروف الأردن الخاصة، ولاسيما بعد إنشاء دولة إسرائيل.

وعلى الرغم من تعدّد ردود الفعل المعاكسة للقاهرة بعد مرحلة الانتصارات التي حققتها بين عــامي ١٩٥٦ و١٩٥٨، فإنها بقيت دون الحدّ الأدني المطلوب لتشكيـل محور مضـاد، ولكن هذا الحال تغيّر بعد عام ١٩٧٠؛ ذلك أنه عشية غياب زعامة الرئيس جال عبدالناصر، سارعت أربعة أقطار عربية هي مصر وسورية والسودان وليبيا إلى التقارب فيها بينها، لمواجهة مرحلة متحولة حافلة بالاحتمالات. وظهر ميثاق طرابلس وإعلان القاهرة، وقام اتحاد الجمهوريات العربية في أواسط نيسان/ابريل ١٩٧١. ولكن التعارض بين سياسات الشركاء الأربعة أفرغ الاتحاد من مضمونه وبخاصة بعـد الخلاف المتصاعد بـين مصر وليبيا الـذي وصل إلى حدّ الصّدام المسلح على الحدود بينهما. كما نشأ خلاف مرير بين دمشق والقاهرة عشية حرب تشرين/اكتوبر ١٩٧٣، ولاسيها بعد توقيع مصر اتفاقية سيناء الثانية عام ١٩٧٥. وإنهار الاتحاد عندما قـرر الـرئيســان السـوري والليبي عــزل الـرئيس المصري أنــور السادات عن رئاسة الاتحاد، ونقل مؤسساته إلى طرابلس. وحين اتضح أن الاتحاد اللذي خرج منه السودان بعد وقت قصير من نشوئه، قد اقتصر على سورية وليبيا، وأنه لم يصبح نواة لـوحدة عربية شاملة، بادرت بعض الأطراف إلى تشكيل ما سمى بـ (جبهة الصمود والتصدي) كردّ فعل على جنـ وح مصر عن الخط

العربي، وتمسَّكها بمسارها المتفرد، فقد اجتمعت قمة مصغرة في طرابلس/ليبيا في أواخر عام ١٩٧٧، حضرها رؤساء سورية وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأكد الحاضرون أن أي عدوان على عضو في الجبهــة يعتبر اعتــداء على جميع أعضائها. وفي أوائل شباط/فبرايىر ١٩٧٨، عقدت الجبهة قمة ثانية في الجزائسر، اختتمت ببيان مناهض للسياسة المصرية. وفي مؤتمـر القمـة الـذي انعقـد بـدمشق في أواخـر أيلول/سبتمـــر ١٩٧٨، أصبحت الجبهة مؤسسة ذات مبادىء وأهداف، وأعلنت عزمها على «العمل على تحقيق الوحدة العربية ودعم النضال الـوحدوي». كما أعلنت انفتاحها على كل القوى العربية الراغبة في تحمّل مسؤولياتها القومية، وقررت إنشاء المؤسسات التابعة لها بما فيها القيادة العسكرية الموحدة. ولكن مؤتمر القمة الخامس في أيلول/سبتمبر ١٩٨١ اعترف أن هــذه المؤسسات لم تخـرج إلى حيّز التنفيذ. وفي غضون ذلك، تم التقارب السوري ـ العراقي الـذي أشرنا إليه، ولكن سرعان ما وصل إلى طريق مسدود. كذلك فشل مشروع الوحدة السورية ـ الليبية بعد مرور سنة على إعـلانه في خريف ١٩٨٠.

والحق أن ظهور المحاور السياسية داخل النظام العربي ظاهرة إيجابية حين تبقى حدودها مفتوحة أمام دخول أطراف عربية أخرى، بشرط أن لا يؤدي التمحور القائم إلى قطيعة مع المحاور أو البلدان الأخرى.

ثانياً: ملاحظات ختامية على عوامل التجزئة الداخلية

1. إن هذه الهويات الأربع هي في الأساس ظاهرة للتخلف العام الذي يعاني منه الوطن العربي ولاسيها في ميدان الوعي القومي، وهي هويات لا يسودها الانسجام والوثام، وإنما يغلب عليها التنافس والنزاع، وهي تحاول أن تتجاوز شعور الانتهاء إلى الفعل والسلوك، وقد تتطور مؤسسات تنتقل من صعيد الأفراد إلى نطاق الجهاعات والأقطار، ثم إلى مجموعات قطرية تشكل (تكتلات)، ورغم أن الهوية القومية العربية هي الهوية الأساسية في النظام العربي، فإنها لم تستطع أن تعبر عن نفسها بأكثر من وعاء مؤسسي هو الجامعة العربية عام ١٩٤٥. وان الهويات المنافسة تتحول إلى مؤسسات، فإن علاقة المنافسة تتحول إلى علاقة صراع يشغل الطاقات الوحدوية أو يضعفها ويهدرها، ويعمل على ترسيخ التجزئة وتثبيت الوضع الراهن.

٢ ـ إن فاعلية الجامعة العربية التي هي الوعاء المؤسسي للهوية القومية، ترتبط بإحساس الأمين العام وموظفي إدارته بأن منظمتهم تضم بلداناً أعضاء تتمتع في أقطارها بشرعية شعبية، على نحو يجعل الجامعة تعبيراً عن إرادات شعبية عربية قومية. ويترتب على هذا الواقع أن هذه الكيانات البيروقراطية التي تمثل البلدان الأعضاء في الجامعة، لا يتوقع أن تلتزم بمقررات مجلس

الجامعة أو بالإرادة القومية، في الوقت الذي لا يلتزم معظمها بالإرادة الوطنية الشعبية داخل كل قطر. وطبيعي أن ينعكس هذا الواقع بدوره على ضعف الإدارة السياسية الجماعية العربية اللذي هو مصدر جميع العلل والسلبيات الملازمة للعمل العربي المشترك في شتى مجالاته.

٣ ـ صحيح أن الهوية القومية تعانى في المرحلة الراهنة من التشرذم والانحسار، ولكن هذا الضعف الذي يلازمها هو عارض طارىء؛ فالأصيل من الهوّيات، كالهـوّية القـومية، لا يختفى ولا يتلاشي، ولكنه يـتراجـع أو يتـوارى قليـلًا ويبقى منتـظرًا الـوقت المناسب ليظهر على السطح ثانية، والأمثلة على ذلك كثيرة. كما أن الاستخدام السياسي لهويات متنافسة على يد أنظمة متصارعة في النظام العربي، خدمة لمصالحها ليس جديداً؛ فقد أشرنا إلى أن الاستخدام السياسي للهـوَّية الـدينية لم يحـرك في الجماهـير ساكنـاً، ولكن استخداماً آخر للهوّية نفسها دفع الجماهير إلى الثورة والفتك بمن تسلَّطوا عبلي شعوبهم، أو تنكسروا لطمـوحها وأهـدافها، كما حدث في ثـورة الجــزاثـر والشــورة الإيــرانيــة واغتيــال الـــرئيس السادات. . . كذلك فإن استخدام الهوّية القومية سياسياً، قصرً عن تحريك الجماهير حين استخدمها بعض الحكام الذين لا يتمتعون بشرعية شعبية، في حين أن حكاماً آخرين استخدموا الهوّية نفسها وحرّكوا بها وجـدان الجماهـير العربيـة من المحيط إلى الخليج، وظلت موالية لهم حتى في ساعات الشدة والهزيمة. ومجمل

القول إن ما يعبىء كتل الجماهير ويحركها، هو مضمون الهوية والمصالح التي تنطوي عليها، والطموح الذي تحققه تلبية للمطالب الشعبية. أي أن الهوية ليست انتهاء فحسب، وإن إفراغها من مضمونها كفيل بزوالها المبكر.

٤ ـ إن لكل من هذه الهويات إطارها التاريخي ومقومات استمرارها، وإن بروز هوّية ما، وتراجع سواها مرتبط بسياق تــاريخي وسياسي معـين. وعليه فــإن ظهور الهــوّيات غــير العربيــة الأوسع أو الأضيق من الإطار القومي، يتحدد بقوة الحركة القومية ومدى حضورها السياسي ودرجة استقطابها للجهاهير. صحيح إن تشابك الهرّيات وتداخلها دليـل هشاشـة الإطار القـومي الراهن، ولكن صحيح أيضاً ألا نربط بين تقلبات السياسة العربية اليومية أو ما يسمى (صراع المؤسسات)، وبين الانتباء العربي أو ما يسمى (صراع الهوّيات). كما يجب ألا نربط بين ضعف أو هشاشة الإطار التنظيمي العربي والهوّية العربية، أو نستنتج من ضعف التنظيم العربي ضعف الانتهاء القومي. ففي ظـروف غيـاب الديمقراطية ووسائل التعبير عن الإرادة الشعبية، فإن المؤسسات القائمة وتبدلاتها تعكس أساسأ أولويات وتوجهات الأنظمة العربية وسياساتها الرسمية. ومن هنا فالتركيز العملي على (الإقليمية) يرافقه تصعيد متزايـد للمساومـة على الـوحدة العـربية في مستـوى الخطاب الرسمي العـربي، فليس ثمة مسؤول في النـظام العربي لا يعلن أنه وحدوي يعمل من أجل الوحدة، ولكن حقيقة الأفعال تخالف الأقوال. ٥ ـ ولا بدّ من الإشارة إلى الأثر المدمّر الذي تركه صراع الأنظمة العربية التقدمية على التجزئة، وهي التي رفعت وما زالت ترفع شعارات الوحدة والهوّية القومية. وقد ألمّحنا سابقاً إلى أن الصورة العربية في نهاية عام ١٩٦٣ كانت مهزوزة مضطربة، فقد شهد النظام العربي بعد انفصال سورية عن مصر عام ١٩٦١ مزيداً من الفرقة والتناحر بين أقطاره أكثر من أي وقت مضى. وكان وقف التدهور في العلاقات العربيـة من الأسباب المبـاشرة في تعرّض المنطقة لحرب حزيران/يـونيو ١٩٦٧، كـما أن تباين النــظر السياسي بين التنظيمات العسربية الشلاثة (حزب البعث، الناصريون، القوميون العرب. . .) والإنقسام داخسل هذه التنظيمات نفسها، وهي التي قـامت بــدور بــارز في الحــركــة الوحدوية، أدى إلى ارتباطها بعلاقات تراوحت بين الوفاق والصراع، وحددت محصلة التفاعل بينها مسار الحركـة الوحـدوية فكـراً وَعملًا في المشرق العـربي حتى الوقت الحـاضر، ولا شك في أن اختلاف مواقف هـذه التنظيمات في المجال النظري والتطبيق العملي لفكرة الوحدة، قد أفضى إلى فشل تجارب الوحدة بين ١٩٥٨ و١٩٦٣، كما أدى إلى بروز الهوّية القطرية والنزعة الانفصالية الجزئية داخل هذا التنظيم أو ذاك. وجاءت هزيمة حرب ١٩٦٧، والعمل العربي المشترك في أدني درجات التشتت والانقسام، فخلقت بدورها تحديات جديدة، وبخاصة حين وضعت القيادة الناصرية في ميزان النقد، وأثيرت الشكوك حول التمسك بها وبتجربتها الاجتماعية. ولا حاجة إلى القول إن هزيمة

١٩٦٧ قد أعادت النظام العربي إلى وحدة الصف، وتمت المصالحة بين النظم الثورية والمحافظة. وتراجع مبدأ وحدة الهدف، ليحل محله مبدأ التضامن العربي. وبعبارة أخـرى، تحققت المصالحـة بين النظم العربية المتباينة على حساب النظرة الاجتماعية إلى الموحدة. وبسرز أسلوب التنسيق والتعاون بسين الأنظمة العربيسة رغم اختلافاتها الايديـولوجيـة، وترتب عـلى هـذا أن منـطق الـدولــة والسيادة القطرية، بدأ يطغى على منطق الأمة والسيادة القومية، وصارت الأقطار العربية تفكر باعتبارها دولًا في نظام العالم المعاصر وليس بوصفها أقطاراً شقيقة في أمة عربيـة واحدة، ووطن عـربي مجزأ واحد. وهـذه نتيجة خـطيرة ما زالت منـذ هزيمـة عام ١٩٦٧ تنعكس بمفعول سلبي على النظام العربي والهـوّية القـومية، وتقـوم بدورها في تثبيت التجزئة. ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى الحركات والأحزاب الشيوعية التي ترفع شعار (الأممية). وذون الدخول في جدل نظري حـول هذا الشعـار، فإن الفكـر الماركسي الأممى ينطوى على هوّية طبقية للمجتمعات، تبرز على حساب الهوية القومية. وأهم ما يؤخذ على الأحزاب والحركات الشيوعية في الوطن العربي، أنها لم تنطلق في تكوينها ونضالها ضد الاستعمار من منطلق قومي عربي عام، فقد كان قيامها في الأقطار العربية في الفترة ما بين الحربين العالميتين، إقراراً بتجزئة الوطن العربي. وقد لـوحظ أنها قامت غـالباً عـلى يد أفـراد من الأقليات العنصريــة أو الطائفية، كما لوحظ أن القادة الوطنيين عارضوا (الاشتراكية) الأممية لأنها تضعف في نظرهم الوحدة الـوطنية بـالصراع الطبقي،

بينـما الأمة منهمكـة ومشغولـة في الصراع ضد السيـطرة الأجنبية. ومنذ قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧، أصبحت موسكو للشيوعيين في كل مكان، قبلة الأنظار، يستمدون منها الوحي والتوجيه على نحو غير مسبوق. وقد حاولت الشيوعية أن تتقـرب من الإسلام عن طريق الـزعم بأن الإســلام كالشيــوعية، يــرفض الهوّة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء، وعليه فمن واجب المجتمع أن ينظم حياته الاقتصادية على أساس عادل. وللإسلام والشيوعية هـدف مشترك في تحقيق ذلـك. ولكن موقف الشيـوعية السلبي من الدين، سرأ وعلناً، واحتقارها القيم الوطنية والقومية وشعاراتها، إضافة إلى ارتباطها بالخارج، كمانت من العوامـل التي جعلت الكثيرين يحجمون عن تقبّل العقيدة الشيوعية. إضافة إلى أن تضمين مبادىء الاشتراكية والعـدل الاجتهاعي في بـرامج عـدد من التنظيمات الحزبية العربية البارزة، مثل حزب البعث، والناصريين والقوميين العـرب، اعتبر منـطلقاً صحيحـاً للإصـلاح الاجتماعي، دونما حــاجة إلى تبنّي نــظام شيوعي أو نــظام رأسماليّ صر ف .

والخلاصة فإن ظاهرة التجزئة في الوطن العربي المعاصر، تختلط في تثبيتها عوامل داخلية وخارجية، أهمها التخلف العام في شتى الصّعد، ولاسيا في الـوعي القومي. ولعل ما يسهم في تشخيص إشكالية العلاقة بين الهوية القومية والهوّية المحلية، هو القيام بتقصي الكيفية التي يتكون فيها الوجدان القومي عند جماهير

الطلبة في مختلف الأقطار العربية، وذلك بمقارنة ما تشتمل عليه كتب التاريخ والجغرافيا والتربية السوطنية. من المفاهيم القومية والقطرية التي تركز عليها المناهج الدارسية. ومعلوم أن مظاهر هذا التخلف العام تتجلّى في تعثّر المعارك العسكرية منذ نكبة هذا التخلف العام التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي سنشير إليها بعد قليل، وقصور الإدارة الحديثة الفاعلة...

وبين العوامل الداخلية للتجزئة، تناقض مصالح النخب الحاكمة مع عملية التوحيد السياسي، باعتباره يهدد تبطلعاتها الطبقية والفئوية، وتكريسها للتجزئة رغم شعارات الوحدة التي ترفعها. وبين العوامل أيضاً تباين الأقطار العربية في الثروة، بحيث أن قطاعات من مواطنيها، إضافة إلى حكامها، قد ارتبطت منافعهم ومكاسبهم بالتجزئة. أما فكرة (الوحدة) فهي تمثل لديهم دسيسة تتيح للعرب أن يشاركوهم في ثروات بلدانهم. ويلاحظ أن العاملين الأخيرين يرتبطان بالعامل الأول (التخلف العام)، ويعتبران وجهين من وجوهه المتعددة، وتحكمها الإرادة السياسية القطرية، وتقتضي معالجتها تصحيح الأفكار والمعلومات المغلوطة في الميدانين السياسي والاقتصادي، ومضاعفة الجهد لتقوية الشعور القومي وتعميق مفهوم التكامل والأمن الجاعي العربي على صعيد المسؤولين والجاهير.

أما العوامل الخارجية للتجزئة، فهي بطبيعتها معادية للوحدة مؤيدة للتجزئة كما سنـرى في الفصـل التــالي. ورغم أن هـذه العوامل الخارجية تبدو لأول وهلة خارج نطاق السيطرة عليها، ولكن الحقيقة هي أن الإرادة السياسية الجماعية العربية تستطيع وقف تأثيرها إن قويت، أو على الأقل، الحدّ من تأثيرها. وعليه فعوامل التجزئة الداخلية والخارجية عوامل متكاملة، تفعل فعلها متضافرة لتثبيت التجزئة. ولكن ما هو السبب الأول للتجزئة، هل هو التخلف أم هو الاستعهار؟

يختلف الفكر السياسي العربي بهذا الصدد، فقد يرى البعض أن التخلف هو الذي أفسح المجال للاستعمار، كي يمارس الهيمنة والاستغلال. بينها يرى البعض الآخر أن الاستعمار هو الذي خلق بذور التخلف، فأضعف مقدرات الأقطار العربية وحال دون أمنها وإنمائها. ولا حاجة إلى القول هنا أيضاً بأن الإرادة السياسية الجهاعية وهي عامل داخلي و وصلت إلى المستوى المطلوب، لردعت القوى الخارجية وأدواتها، ولأبطلت مفعول مبادراتها وخططها، ولحققت للأمة العربية أمنها وإنمائها وقضت على مبررات ومعاذير (وحدويّي التجزئة).

أما تقاعس التنمية الإقتصادية، فيعزى ألى أن المجلس الاقتصادي الذي أوجدته الروح الفيّاضة التي أبرمت معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي لعام ١٩٥٠، لم ينعقد إلا بعد نيف وثلاثة أعوام، أي في نهاية عام ١٩٥٣، لأسباب تتصل بالمحاور السياسية التي عملت على شق النظام العربي في ظروف مختلفة، وأسهم فيها الاستعار كما هو معلوم. ومرّ المجلس

الاقتصادي بتجارب عـديدة، وحـاول دعم التعـاون الاقتصـادي العبربي، عن طريق إسرام عشرات الاتفاقيات، وإقامة المنظمات المتخصصة والمشاريع المشتركة، ليصبح التعاون الاقتصادي حقيقة راهنــة، والحق أن العمل الاقتصــادي العربي المشــترك، انطلق من معالم رئيسية على طريق العمل القومي، وهي ميشاق الجامعة العربية، ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي، واتفاقية الموحدة الاقتصادية التي أقرها المجلس الاقتصادي في حزيران/يـونيو ١٩٥٧، أي بعـد نيّف وستة شهـور على العـدوان الثـلاثي عـلى مصر، إدراكــاً من دول الجـامعــة لأهميـة التعبثــة الاقتصادية في تدعيم القدرات الدفاعية العربية. ودخلت الاتفاقية حيّـز التنفيـذ في نهايـة نيسـان/ابـريـل ١٩٦٤، وسجلت تقـدمـأ ملحوظاً عندما نصت على أن قراراتها تتخذ بأغلبية الثلثين. ولكن لم يتحقق شيء يعتدُّ به من أهداف الاتفاقية المذكورة، لأن الهياكل الاقتصادية للدول الأعضاء بقيت دون اندمهاج كامهل رغم خضوعها لإدارة مشتركة هي مجلس الوحدة الاقتصادية.

ولعلّ انشاء السوق العربية المشتركة كان أهم وأخطر قرارات المجلس في هذه الفترة (آب/أغسطس ١٩٦٤). وأقـر المجلس كذلك نظام بطاقة الهوية الموحدة لمواطني دول الموحدة الاقتصادية العربية، تسهيلًا لانتقالهم، على أن تلغى تأشيرات السفر فوراً. كما أقرّ الشروع في توحيد الرسوم الجمركية والأنظمة والتشريعات الجمركية تجاه العالم الخارجي على مراحل تدريجية تتم خلال خس

سنوات اعتباراً من مطلع عام ١٩٧٠. ولكن العمل الاقتصادي العربي المشترك سجّل قفزة نوعية متقدمة حين طرحت الجامعة على مؤتمر القمة الحادي عشر في عمان ١٩٨٠، استراتيجية للتنمية العربية الشاملة. وقد وافق المؤتمر على هذه الاستراتيجية بوثيقيتها: استراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك، وميثاق العمل الاقتصادي القومي. وللوثيقتين أهمية بالغة، فالمنطلقات والأهداف والأليات التي تتضمنانها، تؤدي الى الوحدة الاقتصادية العربية. وكمان يفترض أن يكمون هناك خمطة موازيمة لتنفيذ الاستراتيجية ومباشرة العمل الاقتصادي، ولكن وضع الاعتبارات القطرية فوق الاعتبارات القومية أفضى الى طرح بـدائـل عـلى شكـل خـطط وكيانات جزئية ، زُعم أنها بداية لتنفيذ الاستراتيجية العتيدة . وبذلك تعطُّل هذا الهدف الاقتصادي المرتجي على حزن ظاهـر من الجهاهير العربية. واتَّضح، مرة أخرى، أنه لا بدُّ من ممارسة صُغط واسع ودؤوب على المستويات الرسمية العربية لدفعها نحو تطبيق التزاماتها الواردة في الاستراتيجية المذكورة.

الفصل السادس

العوامل الخارجية للتجزئة

بعد اقامة اسرائيل عام ١٩٤٨، النفت الاستعمار القديم والجديد لاستخدامها كدولة منابة، تعمل نيابة عنه ولحسابها في آن معاً، في دعم خططاته المرسومة للمنطقة التي ظهرت في الخمسينات وأوائل الستينات، الأمر الذي كشف مجدداً العلاقة العضوية بين الصهيونية والاستعمار من ناحية ثانية. وبذلك تحقق حلم بالسيطرة الاستعمارية واسرائيل من ناحية ثانية. وبذلك تحقق حلم الاستعمار الذي راوده غداة ضرب دولة محمد على (١٨٤٠)، والذي جعل من فلسطين بفضل موقعها، حلقة مركزية في عملية بناء الوحدة، وبالمقابل في عملية ضرب الوحدة وتجزئة المنطقة والتحكم بمقدراتها، وتفتيت طاقاتها، وتغميق التباعد والتناحر بين أجزائها، لكي يتاح له أن يتعامل مع وحدات سياسية صغيرة، يوجه دفة الحكم فيها لخدمة مآربه الذاتية، ويبقيها أبداً في حالة التبعية له.

إن وجود اسرائيل، وموقعها في ميزان القوى، وارتباطاتها بالامبريالية العالمية ومخططاتها، جعلها تسهر على حماية الوضع الأرضي الراهن بين الأقطار العربية، لئلا يختل التوازن الدقيق القائم بينها لغير صالحها.

وبما ان اسرائيل هي افراز امبريـالي يؤدي وظيفة مـركزيــة في تكريس التجزئة وتعميقها، ودعم الهيمنة الامبريالية وأهدافها، فقد تم شحنها بأسلحة متطورة تفوق ما لدى البلدان العربية مجتمعة، وأطلقت يدها في الضرب شرقاً وغرباً لضيان «متطلبات أمنها» في الأراضي ومصادر المياه وسواها. واسرائيل على أهبة الاستعداد للتحالف مع أية دولة أو قوة ذات مطامع في الأقطار العربية (مشاركتها في العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم قناة السويس ١٩٥٦)، أو ذات حاجة للنفوذ الصهيون القوي في الولايات المتحدة (حصولها على السلاح من المانيا الغربية سنتي ١٩٦٤ و١٩٦٥). بل نستطيع القول إن تـوازن القوى بـين الأمة العربية من ناحية، واسرائيل وحلفائها من ناحية أخرى، سوف تقرره في المرحلة الحاضرة والمقبلة، قدرة العرب على مواجهة مخطط اسرائيل القائم على تأكيد الهويّات الجزئية القطرية على حساب الهويّة القومية العربية.

إن هدف الوحدة هو المستهدف قبل غيره من أهداف نضالنا في التآمر الامبريالي الصهيوني ضد أمتنا. واسرائيل تتربص بعدوانها، وتتصدى لأي عمل وحدوي جاد، ولو بحرب جديدة. فالوحدة تعني بالنسبة لاسرائيـل، ليس فقط زوال مصــالحهــا ومصالح الاستعهار، وانما زوالها أصلًا، بزوال المبرر لوجودها.

أُولًا: الدور الاسرائيلي في تثبيت التجزئة

وفيها يلي ننتقل من التعميم الى التخصيص، فنعرض ايجازاً لمواقف القوى الخارجية ذات المصلحة في التجزئة العربية، وذلك من خلال ممارستها العملية، ما دمنا لا نستطيع توثيق هذه المواقف، لأن دور المحفوظات عادة لا تكشف عن هذا النوع من الوثائق التاريخية، وتحول دون الوصول اليها، نظراً لحساسيتها وتأثيرها على علاقاتها الراهنة مع الأقطار العربية، حتى ولو كان عمر هذه الوثائق والمراسلات قرناً أو أكثر.

وابتداء نقول: اننا نعني بالعوامل الخارجية، العوامل النابعة من بيئات وطاقات غير عربية، والمسيَّرة بارادة غير عربية. واننا لا نبغي التبشير بوحدة الأمة العربية أو التأكيد على ضرورتها في تحقيق تحررنا وبناء تقدمنا. تلك مسائل وحقائق تجاوزها النضال العربي، ولم تعد بحاجة للتأكيد في أكثر الأقطار العربية. المسألة الملحة اليوم هي: من خلال المعطيات التي تطرحها القوى الخارجية، ومن خلال أحكامنا على ممارساتها العملية، ما السبيل الى بناء دولة الوحدة التي تنهي أجيال التجزئة والتخلف، وتأخذ أبعادها كاستراتيجية في التحرر الشامل من أخطار الامبريالية التي تنهدنا قطرياً وقومياً؟

وبغبارة أخرى أكثر تحديداً: اذا كان من أهم العوامل الخارجية في القضاء على ظاهرة التجزئة هو استمرار وجود اسرائيل، واذا كان موضوع استمرار اسرائيل أو عدمه، يفترض دحر اسرائيل عسكرياً في الظروف الدولية الحاضرة، فلا بد من القاء الضوء على موقف كل من الدولتين الأعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بالدرجة الأولى من مسألة وجود اسرائيل واستعارها البشع، والرامي الى ازالة الصبغة الوطنية والحضارية للمنطقة، بعد اقتلاع العرب واجلائهم. ومن خلال هذا الموقف نتعرف على شواغل الدولتين في المنطقة العربية، ونظرة كل منها الى الوحدة والتجزئة.

ونحن اذا ركزنا اهتهامنا على الدولتين الأعظم، فلأنهها تمسكان بزمام المبادرة السياسية والعسكرية العالمية، كها أن في مقدورهما تقييد مبادرة الآخرين الى حد بعيد.

أ ـ ونبدأ بالولايات المتحدة التي تعتبر ينبوع الصهيونية العالمية قبل أن تكون اسرائيل. وهي اليوم المستودع البشري الأكبر لاسرائيل (٦ ملايين يهودي) ومصدر الدعم المالي والمعنوي والعسكري والدبلوماسي لاسرائيل والصهيونية العالمية. أمريكا زعيمة المعسكر الغربي، ترتبط في ذاكرة الجهاهير العربية، بتآمر الغرب على ضرب كل حركة توحيدية في المنطقة، بدءاً من محمد على، ومروراً بالثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين، وانتهاء بجهال عبدالناصر، اضافة الى ان الغرب الذي كان

ولا يزال يحاول ضرب حركات التحرر الرامية للتخلص من شباك سيطرته واستغلاله، يظل في نظر العرب، عدواً لتطلعاتهم في الوحدة. والولايات المتحدة نفسها لم تحاول اخفاء هذا الدور في العقود الثلاثة الماضية؛ فمسارعتها في الخمسينات لجر المنطقة العربية للدخول في أحلاف تدور في فلكها، وتدعيمها للقوى المناوثة للأمة العربية في الستينات، داخل الوطن العربي وعلى أطرافه، بما في ذلك تآمرها على الوحدة السورية - المصرية، ومساندتها الخفية والفاعلة لاسرائيل في حرب تشرين الأول/اكتوبر دعمها المكشوف للكيان الصهيوني في حرب تشرين الأول/اكتوبر دعمها المكشوف للكيان الصهيوني في حرب تشرين الأول/اكتوبر السبعينات ومطالع الثمانينات. . كل ذلك شواهد على مدى العداء الأمريكي للأماني الوحدوية والتحررية العربية .

إن أخطر ما يواجه العرب اليوم هو الدعم الأمريكي الهائل لاسرائيل، وحين نسجل أنواع المساندة والدعم للكيان الصهيوني المذي يشكل عقبة كأداء في سبيل المطلب الشعبي للوحدة العربية، فاننا بذلك نحكم على المواقف الأمريكية من التجزئة والوحدة، على أساس أن عدوان اسرائيل وتوسعها على حساب الأقطار العربية، هو نقيض تحرر هذه الأقطار ووحدتها، ومرادف لتجزئتها وتخلفها وضعفها، فالصهيونية موضوعياً هي حركة تحول ليس فقط بين الشعب العربي الفلسطيني وفلسطين، ولكنها أيضاً حركة تحول بين تواصل الأمة العربية في مشرقها ومغربها.

من المعلوم أنه بعد أن أصدر مجلس الشيوخ الأمريكي عام ١٩٢٢ بياناً لمصلحة انشاء وطن قىومى يهودي في فلسمطين، اجتذب النفط في منتصف الثلاثينات الاهتمام الأبمريكي بالمنطقة العربية. ولا يتسع المجال لذكر الجهود الرسمية الأمريكيـة المضنية من أجل تهجير اليهود الى فلسطين، قبيل اقرار مشروع التقسيم الذَّى كان لواشنطن الفضل الأكبر في تمريره في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧. ولقـد كانت الحكـومة الأمـريكية أول حكـومـة في العـالم تعترف اعترافاً واقعياً (De Facto) بقيام الدولة الاسرائيلية صباح ١٥ أيــار/مايــو ١٩٤٨، وبعــد ١١ دقيقــة فقط من اعـــلانها. كــها كانت أول دولة أرسلت عشلاً دبلوماسياً الى تل أبيب بعد ثلاثة شهور تقريباً، وعملت على ضمان عضوية اسرائيل في المنطقة الدولية، وتقديم القروض السخية لها. وعشية الحشد العربي على حدود فلسطين، ناشد الرئيس ترومان العرب بعدم مهاجمة الدولة اليهودية الجديدة. وحين عبرت الحدود بعض أرتال المجاهدين لمساعدة عرب فلسطين ضد المستعمرين اليهود، استدعت الخارجية الأمريكية الـدبلوماسيـين العرب في واشنطن، واتهمت دولهم بالعدوان، وحـذرتهم من عواقب غـزو فلسطين. كـما أيـد الوفد الأمريكي في المنطقة الدولية مواقف اسرائيـل بصدد خطوط وقف اطلاق النار، عما منح اسرائيسل مسزيداً من الأراضي الفلسطينية. وقد جرى كل ذلك في وقت تجاهلت فيه واشنطن خرق اعداد كبيرة من الطيارين الأمريكيين قانون الجنسية الأمريكي لعام ١٩٤٠، الذي حرّم على المواطنين الأمريكيين العمل في القوات المسلحة لدولة أجنبية، «ما لم يحصلوا على اذن قانوني من الولايات المتحدة».

وفي الخمسينات، لم يتفهم وزير الخارجية الأمريكي دالاس مطلقاً القومية العربية، ونظر بعداء عميق الى اصرار العرب على المشاركة في سياسة الحياد الايجابي الرامية الى معارضة السيطرة الأجنبية ومناطق النفوذ، ومع ذلك فقد تظاهرت حكـومة ايــزنهاور عقب العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) بانها تقف ضده، وانها ضغطت على اسرائيل لإنهاء احتلال سيناء، إلا أنها في الواقع كمانت تتهيأ لاستغملال ذلك وضمان حسن استقبال مبـدأ ايزنهاور (١٩٥٧)، اضافة الى أنها وافقت على فتح خليج العقبة للملاحة الاسرائيلية، وعلى ضهان الملاحة الدولية في الخليج المذكور. وبعد فشل حلف بغداد وهزيمة العدوان الثلاثي في مصر، صاغت واشنطن مبدأ أيزنهاور لدعم أمن أمريكا ومصالحها النفطية في الشرق الأوسط. وتجاهل المبدأ النزاع العربي ـ الاسرائيلي في محاولة لتقديم الخطر السوفياتي الخارجي على مخاطر ذلك النزاع، فنجح في تثبيت الوضع الراهن في المنطقة، وأخفق في ايجاد حـل للقضية الفلسطينية، فكان أن تزايد التقارب العربي - السوفيات، وتوتَّق بالمقابل التقارب الاسرائيلي ـ الأمريكي. وما ان علمت حكومة ايـزنهاور بالـبرامـج النـوويـة الاسرائيليـة (١٩٥٧ ـ ١٩٦٠) حتى سارعت لتقديم المساعدات المالية والتقنية للمفاعل النووي في نحال سوريك، ضمن مشروع (الذرة من أجل السلام). بـل انها شاركت بشكل مباشر في الأبحاث النووية التي كان يجريها معهد وايزمن في راحوبوت. ويعترف مؤلف كتاب الانحياز الذي بنى دراسته على الوثائق الأمريكية. بأن الجزء الأساسي من ميزانية مشاريع المعهد، قدّمها كل من المعهد القومي الأمريكي للصحة والقوات الجوية والبحرية الأمريكية في تمويل برامج محددة لأبحاث الفيزياء النووية في معهد وايزمن خلال هذه الفترة(١).

وسنة ١٩٦٦ أعلنت الولايات المتحدة عن تزويد اسرائيل بقاذفات هجومية، وجهرت بالتزاماتها الدفاعية تجاه اسرائيل، وظهر هذا الدعم بأقوى صورة في حرب حزيران/يونيو العدوانية المتحدر على البلدان العربية. ومعلوم ان اسرائيل تلقت الضوء الأخضر من الرئيس الأمريكي جونسون بشأن الحرب المذكورة، وقد صرح جونسون في ١٩ حزيران/يونيو بأن اسرائيل غير ملزمة باعادة الأراضي التي استولت عليها، وهكذا نجحت اسرائيل في إدخال وجودها ضمن الاستراتيجية الأمريكية للشرق الأوسط، وعملت على ضهان المسائدة الأمريكية لاستمرار التوسع الاسرائيل على حساب البلدان العربية المجاورة.

ويبدو ان السياسة الأمريكية بصدد الشرق الأوسط قد تغيرت فجأة في السنوات الأولى من ادارة جمونسون (١٩٦٤ ـ ١٩٦٧) أو تلاشت. ويذكر مؤلف كتاب الانحياز أنه «كان لأمريكا سياسة عامة حول عدم انتاج الأسلحة النووية، لكن ما لبثت أن تبنّت فجأة سياسة سرية

لتشجيع برنامج صناعة الأسلحة النووية في اسرائيل. ولقـد كان لنـا سياسـة عامة حول ميزان الأسلحة في المنطقة، متفق عليه سرًّا، واذا بنا نصبح عام ١٩٦٧ مزوّداً رئيسياً بالأسلحة لاسرائيل. وكانت المولايات المتحدة (متعهدة بصورة رسمية وبشكل حازم بدعم الاستقلال السياسي ووحدة الأراضي لجميع دول الشرق الأوسط)، لكن ما لبث فـريق الشرق الأوسط الذي عينــه الرئيس جونسون ان شرع عمداً وسراً في العمل على تمكين اسرائيل من أن تعيد تخطيط حـدودها مـع الدول العـربية المجـاورة، لمصلحة اسرائيــل بشكل جوهري»^(۱). قَويَ ساعَد اسرائيل حـين تولى هنـري كيسنجر وزارة الخارجية الأمريكية، اضافة الى منصبه كرئيس لمجلس الأمن القـومي في حكومـة الـرئيس ريتشـارد نكسـون. وحِــــدر كيسنجــر العرب وقال ان الولايات المتحدة ستقيم جسراً جوياً ضخماً لنقل العتاد الحربي الى اسرائيل، وسعى جاهداً لشق وحدة الصف العربي عقب حرب تشرين الأول/اكتوبـر ١٩٧٣ وتـطبيق حـظر النفط العربي. وما ان تـولى الجسر الجوي الأمـريكي انقاذ الجيش الاسرائيلي من كارثة محققة، حتى رد العرب بخفض انتاج النفط بنسبة خمسة بالمائة شهرياً، إلى أن تنسحب اسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة. وحين اعتمدت واشنطن مساعدات أمريكية عسكرية لاسراثيـل بمبلغ ٢,٢ مِليار دولار، فـرض الملك فيصل عاهل السعودية حظراً نفطياً على الولايات المتحدة وهولندا. وبـذلك سقـطت مقولـة أمريكيـة مفادهـا أن العرب لن يستخدموا سلاح النفط. وانتهى عام ١٩٧٣ بتحذيرات أمريكية عن التدخل العسكـري واحتلال آبـار نفط الخليج، وتحـذيـرات عربية مقابلة بتفجير حقول النفط وأنابيبه. وابتكر كيسنجر سياسة الخطوة خطوة لشق الصف العربي، تدريجياً، وتحقيق فك الاشتباك في منطقة قناة السويس وهضبة الجولان.

لقد نظر نكسون الى اسرائيل باعتبارها دوحة فريدة للديمقراطية في الشرق الأوسط، أما اذا دافعت منظمة التحرير أو للد عربي عن حقوق الشعب الفلسطيني، فهذا هو الارهاب بعينه. ويعتبر نكسون أن مسألة من يسيطر على ما في الخليج العربي والشرق الأوسط، تشكل مفتاح السيطرة على العالم. كما يعتبر ان النزاع العربي ـ الاسرائيلي واحد من أولويات السياسة الأمريكية، ولذا دعا الى الالتزام (الأخلاقي) بالمحافظة على اسر ائيل. وحين منعت معظم دول شهال الأطلسي (الناتو) تحليق الطائرات الأمريكية في أجوائها، حاملة المدد والعتاد الى اسرائيل (١٩٧٣)، وقاومت تحويل المعدات العسكرية من الترسانات الأوروبيـة اليها، اتهم نكسـون هذه الـدول بقصر النظر، لانها لا تدرك الصلة الواشجة لاسرائيل بالأمن الأوروبي الغربي، وبخاصة دورها في احتلال آبار النفط في الخليج. هـذا النفط الذي هـو «دم الحياة الذي يسري في عروق الصناعة الحديثة، وتستورد منه اليابان أكثر من ٧٠ بالمائة من احتياجاتها، وتحصل كل من أوروبــا الغربيــة والولايــات المتحدة على نصف احتياجاتها من نفط الخليج العربي».

ألم يصرح اسحق رابين، سفير اسرائيل السابق في لندن، ووزير الدفاع اليوم، في تموز/يوليو ١٩٧٣: «لقد زودَنا الأمريكيون بالأسلحة لكي نستخدمها وقت الضرورة»! وقد عرف رابين الضرورة بأنها تشمل الوضع الذي يقرر فيه العرب جدياً وقف ضخ النفط

الى الغرب. وهذا هـو جوهـر مبدأ كيسنجـر ـ نكسون في (انــابة) الدول المحالفة لأمريكا في حماية مصالحها نيابة عنها في العالم.

وجاءت حكومة جيمي كارتر في مطلع ١٩٧٧، فتخلت بسرعة عن فكرة (الوطن الفلسطيني)، وقررت عام ١٩٧٩ العودة الى منطق القوة القديم، وجعلت من نفسها طرفاً ثالثاً (مع مصر واسرائيل) في معاهدة كامب ديفيد التي أخرجت مصر من خندق المواجهة العربية مع اسرائيل. وهكذا تشكّل من الأطراف الثلاثة حجر الأساس لنظام أمني جديد يرمي لتثبيت التجزئة في الوطن العربي.

وعندما استلم الرئيس رونالد ريغان زمام السلطة، كانت سلبيات الواقع العربي، تتمشل في الانقسام الشديد بين دول الوطن العربي مشرقاً ومغرباً، وهذا رصيد ضخم للتجزئة التي تحرص عليها أمريكا واسرائيل، فتسعى كل منها لتبديد طاقات الأمة العربية باستغلال وتأجيح بؤر الصراع والنزاع بين أقطارها، علماً بأن هذا الصراع المؤسف، تتحمل السلطات العربية أيضاً قسطها من المسؤولية عن استمراره. ولذا فلا جدوى من توجيه اللوم هنا الى أمريكا واسرائيل، عندما يكون التمزق والانقسام حصيلة الواقع العربي عملياً، وهذا ما تتحرقان لتعميق أسبابه وتخليد عوامله. ولا حاجة الى القول انه في ظروف الانحسار العربي الراهن، لا تبدو السياسة الأمريكية متعجلة لحل القضية الفلسطينية والشرق أوسطية، بالعكس، لم تعد هذه القضية في سلم أولوياتها.

لقد انهال الدعم المادي والسياسي مضاعفاً على اسرائيل، فظهرت في العلاقات الخارجية الأمريكية مستثناة من كل قاعدة ومبدأ أيدته أمريكا. أو كها عبر عن ذلك جورج بول، وكيل الخارجية الأمريكية بين (١٩٦٦ - ١٩٦٦)، وبمثل أمريكا المدائم في الأمم المتحدة عام ١٩٦٨، في تصريح له أمام مجلس الشيوخ الأمريكي (١٠ تموز/يوليو ١٩٨٧): «.. القرار ٢٤٢ الذي صدر عن المحلف الأمن عام ١٩٦٧، دعا الى انسحاب اسرائيل من الأراضي العربية المحتلة...» واستطرد يقول: ووقفت أمريكا خرساء منذ عام ١٩٦٧، بينا أقامت اسرائيل عاصمتها في القدس المحتلة، وضمّت مرتفعات الجولان الى أراضي، وجعلت ٤٠ بالمائة من أراضي الضفة الغربية مأهولة باليهود...».

وكشف بول عن الانحياز لاسرائيل بقوله: «.. عندما قامت تركيا بغزو قبرص عام ١٩٧٤، قمنا بوقف ارسال جميع المساعدات العسكرية للمعتدي ولمدة عامين، لأن الأتراك استخدموا، وبصورة غير مشروعة، أسلحة كنا منحناهم _ أو بعناهم _ اياها للدفاع عن النفس. ومن ناحية ثانية، عندما غزت اسرائيل لبنان بعد ثانية أعوام، في عمل كلف الكثير من أرواح المدنيين الأبرياء، فإن أمريكا _ وخاصة الكونغرس الأمريكي _ بدت وكأنها قد أخطأت في وضع نسختها الأخيرة لمرسوم ضبط تصدير الأسلحة، فكان ردنيا ان وعدنيا اسرائيل بتسليمها ٧٥ طائرة مقاتلة من طراز ف ١٦ الأكثر تطوراً»(٣).

ومن ناحية أخرى، نشرت مجلة انترناشيونال للقوات المسلحة، مقالاً عام ١٩٧٧، بقلم مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكية، أشار فيه الى حجم المعونة العسكرية الأمريكية المطلوبة الاسرائيل في منتصف الثانينات. وقدّر المسؤول ان هذه الأسلحة

ستعطى اسرائيل المقدرة على شن هجهات خاطفة ضد أي بلد من البلدان العربية، أو كلها، قبل أن تتاح للولايات المتحدة أو للدول العظمي فرصة للتدخل. وضرب مثلًا على ذلك، فقال ان عدد الدبابات المتوسطة التي طلبتها اسرائيل من الولايات المتحدة للفترة ما بين ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦، كان يساوي تقريباً مجموع عدد المدبابات التي قام الجيش الأمريكي بنشرها ضمن حلف شهالي الأطلسي (١). اضافة الى أن الولايات المتحدة زوّدت اسرائيل في الفترة ما بين ١٩٤٦ ـ ١٩٨٣ بأكثر من ٢٧ مليار دولار كمساعدة عسكرية واقتصادية رسمية. ومنحتها ثـلاثة أضعـاف المساعـدة العسكرية التي منحتها الى مجموع الدول التسع عشرة في الشرق الأوسط، بما فيها ايران زمن الشاه، أي ما مجموعه ١٧ مليار دولار(٥). ان الأرقام تنطق من تلقاء نفسها، وهي دليل قاطع على ان التحدي الأساسي يواجه أمتنا العربية في سيرها الوثيد نحو القضاء على ظاهرة التجزئة، وتجاوز تناقضاتها، هو التحدي الصهيوني الامبريالي. لقد اعتمدت الولايات المتحدة واسرائيل، كلا منهما الأخرى، أداة لتحقيق مصالحها الخاصة. وإذا لم تتمكن الأمة العربية من وضع أمريكا في موقف يحتّم عليها أن تختـار بين التعاون مع العرب على أساس السيادة والمصلحة، أو الاستمرار في التأييد المطلق لاسرائيل، فلن تستطيع أن تواجه أخطر تحديـات العقـد القادم. ولا ننهي الكـلام عن الدور الأمـريكي في تكريس التجزئة العربية من خلال مسانـدة اسرائيل، دون أن نميّـز بين مــا تمليه الاستراتيجية الأمريكية من مواقف تجاه اسرائيل، وبـين ما

تمليه عوامل داخلية بحتة تتصل بتنظيم الادارة الأمريكية، وتوزعها على السلطتين التنفيذية والتشريعية، وما تتيحه هذه الثنائية من فرص لتوسط الفئات الضاغطة بين السلطتين، واستعمالها الواحدة منهما ضد الأخرى، اضافة الى ان مشكلة المشاكل هي قضية توزّع اليهبود الأمريكيين الجغرافي وعلاقته بالدوائر الانتخابية، وتكمن الخطورة في أن الولايات الحساسة السبع التي تحسم عادة معركة رئاسة الجمهورية، يـوجد لليهـود في أكثرها جاليات ضخمة ذات نفوذ، وأهمها نيويورك. وبفضل نيويورك وصل جميع رؤساء الجمهورية الى الحكم في هذا القرن، باستثناء اثنين فقط. فهل يضحي رؤساء الجمهوريـة الأمريكيـون مستقبلًا بالمصلحة الانتخابية مقابل المصلحة العامة، في وقت تجهل فيه جمهرة الأمريكيين حقائق القضية الفلسطينية والقضايا العربية المتفرعة عنها، بحيث اذا تجاهلها الرئيس، لا يتعرض لنقمة الرأي العام؟

وتلجأ الولايات المتحدة الى استخدام الأسطول السادس في البحر المتوسط ليس فقط لتطمين اسرائيل، ولكن أيضاً لاستهالة الأقطار العربية المجزأة في محاولة لاقناعها بأن أمريكا قادرة على حمايتها من أي عدوان، وبأن تمسكها بكيانها القطري أجدى للحفاظ على وجودها وثروتها ونظامها، وبان أسطولها مستعد دائهاً للتدخل في المنطقة العربية، في حال قيام تغييرات من شأنها أن تهدد مصالح تلك الأقطار ومصالح الغرب، ويضطلع بها بلد

عربي أو غير عربي متحالف مع الاتحاد السوفياتي.

ب ـ أما الاتحاد السوفياتي، فهو الدولة الأعظم الأخرى في عالم اليوم، وبما انه لم يكن له وجود استعاري بالمعنى التاريخي في الوطن العربي، وبما انه ساند ويساند القضايا العربية منذ أوائل الخمسينات، وزوّد ويزوّد بعض الأقطار العربية بالسلاح، فانه حتماً لا يقف على صعيد واحد مع الولايات المتحدة التي تعتبر معوقاً رئيسياً للجهود الرامية الى توحيد الوطن العربي وتحرره.

وقد تطور الموقف السوفياتي من القضية الفلسطينية ومن قضايا التحرر العربي الأخرى، من مرحلة الأربعينات الى مرحلة الخمسينات ومرحلة الستينات وما بعدها.

لقد أيد الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية، ولعل هذه هي المرة الأولى التي اتفق فيها الغرب والشرق ضد قضية عربية مصيرية. صحيح أن الولايات المتحدة هي التي استهاتت لاقرار التقسيم، ولكن صحيح أيضاً أن الدعم السوفياتي مكن الصهيونية من الحصول على الأصوات المطلوبة لقرار التقسيم. ولو امتنعت موسكو عن التصويت، لما ظهر التقسيم ولا ظهرت الدولة اليهودية. ولعل موسكو تأثرت في قرارها بالاعتقاد بأن أكثر البلدان العربية كانت تدور في فلك السياسة الامبريالية البريطانية، في حين ان الحركة الصهيونية قامت عام ١٩٤٧ بثورة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين، ولو انها عام ١٩٤٧ بثورة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين، ولو انها (ثورة) تحميها مظلة أمريكية ذات سلطان نافذ على بريطانيا. هذا

الى ان السلطات السوفياتية أغمضت عينيها بالفعل عن موجات المجرة الجهاعية اليهودية المتجهة الى فلسطين، قادمة من أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. بل ان تلك السلطات شجعتها وساعدتها أيضاً، بشهادة الكاتبين الصهيونيين جون ودافيد كمحي (٢)، مما حمل بريطانيا على الاحتجاج لدى روسيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ضد ما اعتبرته خرقاً لسياستها المعلنة في الكتاب الأبيض ١٩٣٩.

إضافة الى ان الاتحاد السوفياتي كان أول دولة كبرى منحت اسرائيل اعترافاً قانونياً (De jure). كاملًا بعد ثلاثة أيام من قيام الدولة اليهودية، وكانت الولايات المتحدة قلد سبقتها بالاعتراف الواقعي (De facto). وساندت موسكو عضوية اسرائيل في الأمم المتحدة وشنت حملة على البلدان العربية لانها لجـأت الى السلاح لضرب الاحتلال الصهيوني وحماية اخوتهم العرب في فلسطين، واعتبرت ذلك (عـدواناً) عـلى اسرائيل، ودعت البلدان العـربيـة للتخلي عن الحرب، وكافحت مهمة الموسيط الدولي برنادوت في فلسطين، باعتبـار انها تحول دون (استقـلال) اسرائيـل، وتـدعم الدولة الأردنية، فترسخ أقدام بريطانيا في المنطقة العربية. ومن المعلوم أن شرتـوك وزير خـارجية اسرائيـل اتهم بـرنــادوت في ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨ بالعمل ضد دولة اسرائيل ولمصلحة البلدان العربية. وكان برنادوت قد وقّع خطته الثانية للوساطة التي اقتطعت النقب من قرار التقسيم، وجردت القدس من السلاح،

وأعادت التوازن الى مشروع التقسيم، أو التعويض على اللاجئين الفلسطينيين العرب. وفي اليوم التالي اغتالت عصابة شتيرن الوسيط الدولي بتواطؤ مباشر من الحكومة الاسرائيلية، وربما من حكومة براغ. وقد كشف النقاب عن أن القنصليتين التشيكيتين في القدس وحيفا، سهلتا في اليوم نفسه السفر جواً الى براغ للاثين من عصابة شتيرن الذين شاركوا في تنفيذ الاغتيال.

لقد زود الاتحاد السوفياتي اسرائيل بالسلاح والعتاد طوال الفترة ما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥١، بما في ذلك المدفعية والطائرات والمدرعات. وتعاقدت (الهاغانا) مع حكومة براغ لتدريب ضباط الجيش الاسرائيلي في تشيكوسلوفاكيا، وبينهم ضباط طيران. وكانت صفقة الأسلحة التشيكية الأولى عام ١٩٤٨ الى اسرائيل من العوامل الرئيسية التي رجحت كفة الصهيونية في فترة ما قبل نهاية الانتداب وما بعدها. وبفضل تأييد موسكو المطلق لاسرائيل في جميع مراحل حرب ١٩٤٨، تمكّنت الصهيونية من المحافظة على جميع المناطق التي استولت عليها في فترتي الحرب والهدنة، بما فيها المناطق الخارجة عن نطاق التقسيم.

ولكن منذ منتصف عام ١٩٥٠، تبدل الموقف السوفياتي من اسرائيل بحجة أنها لم تصبح الدولة الديمقراطية المأمولة، بل أصبحت الدولة الرأسهالية الرجعية صنيعة وول ستريت (شارع المال في نيويورك). وربحا تخوفت موسكو من تجاوب الجالية اليهودية الروسية الكبيرة العدد (٣,٥ ملايين) مع العقيدة

الصهيونية، فيواجه الاتحاد السوفياتي (قضية يهودية). وزاد من هواجس موسكو أن الصهيونية شنت حملة دعائية تطالب بهجرة اليهود الروس الى اسرائيل، فاعتبرت أن الحملة مبادرة امبريالية للتدخل في الشؤون السوفياتية الداخلية.

ومن ناحية أخرى ظهرت بوادر تحسن في علاقات البلدان العربية مع الاتحاد السوفياتي، وبخاصة بعد أن تصاعدت حدّة المواجهة المصرية ضد الوجود البريطاني في منطقة قناة السويس انذاك، وبعد كشف مؤامرة الأطباء اليهود الروس الرامية لاغتيال عدد من زعاء الكريملين، بالتواطؤ مع المخابرات المركزية الأمريكية (١٩٥٣). ثم انفرجت العلاقات السوفياتية الاسرائيلية، وانعكست بالتحسن على الصعيدين الاقتصادي والدبلوماسي، اذ رفعت درجة التمثيل بينها الى مستوى السفارة، ولكن سجلت سابقة خطيرة ضد الأماني العربية حين قدم السفير السوفياتي أوراق اعتهاده في القدس المحتلة.

وشهدت تلك الفترة هجرة سنوية محدودة الكوتا من يهود روسيا الى اسرائيل تحت شعار (جمع الشمل)، واستمرت حتى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. وتمسك الاتحاد السوفياتي بموقفه المداعي الى ايجاد (حل سلمي) للنزاع العربي ـ الاسرائيلي، وكانت تصريحاته في الأمم المتحدة تدافع عن حق اسرائيل في البقاء، مع الحفاظ على الصداقة العربية، وتحتّ على إقامة علاقات حسن جوار بين العرب واسرائيل مع ضان حقوق

الفلسطينيين الشرعية. وعارض الوفد السوفياتي في مؤتمر تضامن شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (كوبا ١٩٦٦) سحب الاعتراف باسرائيل ومقاطعتها سياسياً واقتصادياً وثقافياً، برغم استنكاره سياستها العدوانية والتوسعية المدعومة من الاستعار.

كما ظلت اسرائيل تضغط لتهجير الجالية اليهودية الروسية، باعتبارها طاقة بشرية ضخمة، ومرتقبة في حال انقطاع الهجرة اليهودية من الغرب.

وأيدت موسكو الموقف العربي في أزمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ ضمن نطاق المواجهة السوفياتية _ الأمريكية ، وطالبت بالانسحاب الفوري لقوات العدوان والتعويض عن الخسائر التي لحقت بالعرب من جرائه وظلت السياسةالسوفياتية تعتبر النزاع العربي الاسرائيلي متفرعاً من المواجهة السوفياتية _ الأمريكية ، أو الصراع التقدمي الرجعي في العالم ، متغاضية عن هذا الطابع القومي والحضاري لهذا الصراع . كما ظلت القومية التقدمية بالنسبة لموسكو ، تشكل أكبر سد عقائدي واجتماعي أمام زحف الشيوعية . ولعلها اعتبرت أن القضاء على اسرائيل ينتزع منها الشطرنج الدولية . ولكن موسكو ، بالمقابل ، حرصت على صمود الشطرنج الدولية . ولكن موسكو ، بالمقابل ، حرصت على صمود الجبهة العربية المناوئة لاسرائيل والغرب ، حين ضغطت على مصر للتلاقى مع جناح حزب البعث الذي تولى الحكم في سورية عام للتلاقى مع جناح حزب البعث الذي تولى الحكم في سورية عام

١٩٦٦، وتسوقيم اتفاق دفاعي بين القطرين في تشرين الثان/نوفمبر ١٩٦٦.

وفي نهاية ١٩٦٩ منح الاتحاد السوفياتي أول تأييد رسمي لحركة المقاومة الفلسطينية، وأعلن تأييده للبلدان العربية في نضالها لتحقيق (تسوية سياسية)، ولا يزال الاتحاد السوفياتي يدعم العرب ويساند مطالبهم العادلة في حقل التسلح والمعونة الاقتصادية والدعم الدبلوماسي في المحافل الدولية. وفي حين لا يمكن التقليل من أهمية المعونة الضخمة التي قدمها الاتحاد السوفياتي للبلدان العربية، بخاصة بعد ١٩٥٥، والتي لولاها لما تمكنت من الصمود أمام اسرائيل، يهمنا أن ننطلق من مساندته القوية للصهيونية واسرائيل، وبخاصة ما بين ١٩٤٧ و١٩٥١، لنتين ما اذا كان استمرار وجود اسرائيل يتصل بمخطط موسكو البعيد الموضوع للمشرق العربي أم لا.

صحيح ان الاتحاد السوفياتي بدّل مواقفه، وناصر الحق العربي، ولكن من المهم أن لا نبني سياستنا على افتراض واحد، مؤداه ثبات موقف روسيا. ان الاتحاد السوفياتي كنظام، يعتنق العقيدة الاشتراكية الماركسية، وله موقف نظري معاد للقومية. وقد أبرزت المساجلة المشهورة بين جمال عبدالناصر ونيكيتا خروتشيف في منتصف الستينات، أوجه الخلاف بين الموقف السوفياتي والموقف العربي القومي. ولكن موسكو حرصت، منذئذ، على تضييق هذا الخلاف، وتكييفه نظرياً وعملياً مع مقتضيات

الظروف الاقليمية والعالمية، على نحو أصبح يميز بين حركة قومية تحررية معادية للاستعمار الغربي، وذات توجّهات داخلية تقدمية، وبين حركة قومية شوفينية محالفة للغرب، وذات تـوجّهات داخلية محافظة أو رجعية.

ثم هناك الجاليـة اليهوديـة الروسيـة، والتغاضي عن هجـرتها وهجرة يهود أوروبا الشرقية بين آونة وأخرى.

وبعد، فان الاتحاد السوفياتي وقف ضد العرب في البداية، ثم ساندهم وأيدهم تحقيقاً لغاياته ومصالحه، وان ما يحكم سياسته، هــو ان الجناح الشرقي من وطننــا العربي يقــع في الشرق الأوسط، ذي المكانة الاستراتيجية والنفطية الحيوية للمعسكرين الشرقي والغربي، اضافة الى المكانة الخاصة التي تتمتع بهـ أقطار الجناح الغربي. والوضع العالمي يدفع الاتحاد السوفياتي أن يـزود العرب بسلاح حديث. والعبرة هنا ليست بكمية السلاح بل بنوعية هذا السلاح. والنوعية التي يريدها العرب تتوقف داثماً على ما في أيدي العدو. وعليه، فالموقف يتقلب بـالنسبة لأحـدث ما لدى العدو من السلاح، وبالنسبة لمدى استعداد السوفيات لتزويــد العرب بالسلاح حسب مقتضيات الموقف. وبديهي أنه كلما حصل العرب على سلاح متطور يضمن صمودهم وتفوقهم، حصل العدو على ما يبطل هذا التفوق، مع فارق مهم هو أن لـه من التأثير المباشر على مصادر السلاح الأمريكي، أكثر مما للعرب من تأثير على مصادر السلاح السوفياتي، وإن كانت موسكو تحرص دائماً على مراعاة رصيدها المعنوي العام في الوطن العربي والعالم الثالث، وضرورة معادلة الضغوط الغربية المختلفة عليها في المنطقة العربية والعالم. وطبيعي أن تنعكس حصيلة ذلك على صمود العرب ضد الأداة الصهيونية الامبريالية المؤيدة للتجزئة. وإذا كانت (واشنطن) قد طرحت مشروعها القديم الجديد، وهو إقامة نوع من (التوافق الاستراتيجي)، يضم اسرائيل ومصر وعان والسعودية والصومال لمواجهة (الخطر السوفياتي)، على لسان وزير الخارجية الكسندر هيغ، فإن (موسكو)، بالمقابل، حاولت تجاوز ميزان القوى العربي غير الملائم الذي تقوم به الدول المناوئة للسوفيات بدور كبير، وذلك حين شجعت تحالفات اقليمية باتجاه ايران وأثيوبيا أو دولة معادية لواشنطن.

ثانياً: الاستعهار القديم والجديد يتشبث بالتجزئة العربية ويكافح الوحدة

ذكرنا بالتفصيل كيف كان الاستعمار القديم الممثّل في بريطانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا عاملاً أساسياً في فرض التجزئة التاريخية على الوطن العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر. وأشرنا إلى أن كل دولة استعمارية، ولا سيها بريطانيا وفرنسا، سارعت الى تقسيم وتجزئة مناطق نفوذها إلى ما استطاعت من أجزاء، الأمر الذي جعل الوجود الاستعماري والتجزئة مرتبطين ارتباطاً عضوياً.

ومن ناحية أخرى، سعى الاحتلال الأجنبي لـترسيخ النـزعة

الاقليمية والهوية المحلية التي تدور حولها معالم الدولة ومؤسساتها: العَلَم والنشيد، والحكومة، والجهارك، والشرطة، والجوازات، والجيش، والعملة، والنظم الادارية والثقافية والاقتصادية.. كما سعى إلى إضعاف الفكرة القومية والهوية العربية التي لا يجسدها أمثال هذه المعالم المادية الملموسة، وشجّع دعوات مشبوهة كالفينيقية والفرعونية والبربرية... وغذّى الخصوصية القطرية بحسوّغات بعضها من الماضي البعيد، وبعضها من الماضي القريب، وبعضها من الملامح الاجتماعية أو من الثروة، وبعضها من الملامح الاجتماعية أو النفسية...

وحين حصلت بعض البلدان العربية على الاستقلال بموجب معاهدات (الصداقة والتحالف) التي أبرمتها مع الأجنبي، بذل هذا قصارى جهده ليحمّل (الاستقلال) معنى عكسياً، بحيث لا يكون فقط استقلالاً عن الأجنبي، بل استقلالاً عن الأحوة. وان يكون لكل (وطن عربي مستقل) (ذاتية) و(خصوصية) تميزه عن (الأوطان) العربية الأخرى. ولم ينهض من يصرخ في وجوه دعاة المذاتية والخصوصية المزعومة: ان الأخوة من أب وأم يختلفون كذلك فيها بينهم، ولكن هذا الاختلال لا يسوّغ القسمة والفرقة!

أما المواطن العربي الذي وضع لبان الوحدة ونشأ عليها، فقد اضطربت الصورة في ذهنه، وخالطت حياته أفكار غريبة ووقائع جديدة، ولا سيها حين انتشرت الأفكار الأخرى الأممية، واتخذت مسحة انسانية لا تسهل مدافعتها. وهكذا اصطلحت النزعات

الفردية والاقليمية والأعمية.. على أن تباعد بين الشعب العربي وقضيته الأولى، ونسيت الأحزاب المحلية العربية ذلك في غمرة شواغلها اليومية، وظنت الأحزاب الأعمية في فترة التشنج، أن الفكر العربي لا يصبح ولا يستقيم، ما لم يتخلص من مقوماته الأصلية التي يستمد منها قيمه الحضارية ووجوده الموحد. ولم تستطع الأقطار العربية في منتصف الأربعينات، وفي أواخر الحرب العالمية الثانية، الا أن تحقق صيغة (الجامعة العربية) التي تكرس النزعة الفردية والتناقضات الاقليمية. انها الصيغة التي (سمحت) بها القوى الخارجية وتساعت معها ولم تعترض طريقها. ولكن هذه الصيغة في الوحدة والعمل القومي كانت مرادفة للتجزئة ومكرسة لها، وقد أثبتت فشلها بشكل فاضح بازاء نكبة فلسطين وقيام اسرائيل عام ١٩٤٨، ولم تتقدم بالوحدة حين كان يجب أن تقدم.

وبُذلت بعد ذلك جهود لتدعيم الجامعة والافادة منها في بعض ظروف تأزم النضال العربي. وبثت القوى الخارجية المتربصة بالأمة العربية، مشاعر التخوف من الوحدة، وأثارت التحفظات وضخمت الهواجس من كل نوع: اقتصادية، وعرقية، وطائفية، ولغوية، واجتماعية ونفسية.. من حيث لا وجود حقيقي لها.

ففي الاقتصاد، حال الاستعهار ومؤسساته الاحتكارية العالمية دون قيام خطط انمائية انتاجية متكاملة، ودفع بالمصالح الاقليمية

على طريق التعارض، ومنع زيـادة التبادل التجــاري وايجاد قــاعدة صناعية صلبة، ورفع الحواجز الجمركية بين الأقطار العربية، وخطط لتبقى هذه الأقطار مجزأة خاضعة لمتطلبات اقتصاده، وسوقاً استهلاكية لمنتجاته، ومصدراً للمواد الأوليـة اللازمـة لصناعـاته. وشددت الشركات المدعومة من القوى الخارجية قبضتها على حكومات الدول، وبخاصة تلك التي تشكل عائدات النفط معظم مواردها، وضغطت عليها لتوظيف عائداتها في مصارف الدول المستثمرة، بحجة عدم امكان انفاقه في الأقطار المنتجة. كما سعت الى ترك الأمور في مجراها الطبيعي، لتغذية المصالح، وتعميق التجزئة والنعرات الاقليمية. وبـديهي أن لا ترضى قُـوى الهيمنة الخارجية عن قيام وحدة عربية تـوظف هذه العـائدات في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتحرم هي منها. بينها تحقَّق الفكـر الوحدوي الاقتصادي أن العائق الـذي يقف أمام الـوحدة، ليس البظروف الاقتصادية والاجتماعية، وانما ضعف الارادة السياسية الجماعية، وتقاعس النظم والقوى العربية عن التحرك لتجاوز نفسها، وإيجاد الارادة والأداة (الـوحـدويتـين) اللتـين بـدونهما لا تتوحد المصالح، ولا يتكامل بناء القاعدة الاقتصادية الصلبة لأقطار دولة الوحدة أو الاتحاد، ولا يتحقق بالتـالي بنــاء مجتمــع الكفاية والعدل لصالح الجماهير.

وعلى صعيد الثقافة، حارب الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي والمشرق العربي التاريخ العربي وشوّه وقائعه، باعتبار

التاريخ ذاكرة الأمة ووعيها، وكافح اللغة العربية، باعتبارهـا روح الأمة ووعاء فكرها، وناهض الدين الاسلامي بوصف رابطة معنوية عظيمة، وقربي عاطفية وعقلية. وبالمقابل ركز الاستعمار على تاريخ فرنسا بمختلف أدواره، وفرض اللغة الفرنسية وآدابها، ونشر دعوات الى العالمية، ليفقد العرب مقومات شخصيتهم الثقافية وأصالتهم الحضارية. وفي أيامنـا هذه، يحـاول الاستعمار الجديد مباشرةً أو بواسطة صنائعه مناوءة عملية التعريب في المغرب العربي، وهي من أكبر المنجزات القومية الهادفة الى محاربة التجزئة والتقهقر القومي والسياسي، وذلك لتسويغ دعوته الملحة الى التمسك بواقع التجزئة، وضرب فكرة الوحدة. وفي مصر أشاع الاحتلال الانكليزي النظرية القبطية الفرعونية في القومية المصرية وفي الكيان المصري، ليفرّق كلمة الشعب، وليضعف قـوى المقاومة، وليعزل مصر عن شقيقاتها في الوطن العربي، وحضّ على استعمال الحرف السلاتيني في الكتابة بدل الحرف العربي، لملاءمة حاجات الحضارة الحديثة. وفي العراق، حضّ الانتداب البريطاني عملاءه من كبار الموظفين على اعتبار الأساتذة السوريين والمصريين (دخلاء). وهم الذين تعاقدت معهم الحكومة الوطنية العراقية في مطلع عهد الاستقلال، وعلَّمهم أن يقولوا ان فكرة الوحدة العربية دسيسة اختلقها السوريون ليتنعموا بخيرات العراق٣٠.

وأخاف الاستعمار بعض الأقطار الأخرى من فكرة الوحـدة، بسبب اختلاف مستوى التـطور الثقافي والعلمي والاقتصـادي بين البلدان العربية، وحذرها من خطر الهيمنة (العربية) عليها والتحكم بثرواتها. وفعل الاستعار مثل ذلك، في بقية الأقطار العربية، فعمل على مناهضة الفكرة القومية، وتشويه حقيقتها، وفك ارتباط العرب بماضيهم القريب والبعيد، حتى يألفوا حماية الأوضاع الراهنة، والمحافظة على كيان الدولة لئلا يزول داخل دولة عربية موحدة، تهدد مكاسبهم ومطامعهم.

لقد كان للاستعمار وللقوى الخارجية هدف واحد، والأهداف الأخرى كلها متفرعة عنه: أن يظل الوطن العربي مفتتاً ممزقاً. لقد رضي الاستعمار مكرهاً باستقلال أجزائه، ولكنه لن يرضى بتوحيد هذه الأجزاء.

وحين قامت الوحدة بين سورية ومصر، كرد فعل على الضعف الملازم للتجزئة، وتحقيقاً لهدف بعيد، وتأصيلاً لوجود عربي سليم، قويت بها دعائم الاستقلال، وكانت في نطاق التطور التاريخي تجديداً لحركة التوحيد في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في أعقاب الغزوات الصليبية وتوطّد أقدامها على طول الساحل السوري وفي فلسطين. لقد جاءت الجمهورية العربية المتحدة تتويجاً لانتصارات قومية متلاحقة، ابتداء من الثورة المصرية (تموز/يوليو ١٩٥٣) وكسر احتكار السلاح، وتأميم القناة، ومواجهة العدوان الثلاثي على مصر، واحباط المؤامرات على سورية. وما ان قامت الوحدة حتى نظرت القوى الخارجية اليها نظرة عدائية مريرة: فالجاهير العربية وجدت ذاتها في اليها نظرة عدائية مريرة: فالجاهير العربية وجدت ذاتها في

الوحدة، واسترد الاستقلال معناه، وصححت الحركة مسارها، ولنذا سارعت تلك القبوي لمباشرة عمليات الندس والتشكيك اعلامياً وعملياً، بعقل هادىء بارد يهدف الى ضرب العربي بالعربي، حتى يموت منه التطلع الوحدوي، وحتى تبقى الهيمنة. وصمدت الجمهورية العربية المتحدة. وبعد خمسة شهور من قيامها انهار حلف بغداد، وسارعت الجمهورية الفتية لمساندة الشورة العراقية ضد ما يتهددها من أخطار بعد نزول القوات الأم يكية في لبنان، والانكليزية في الأردن. وسجلت القوى العربية في لبنان خطوة كبرة على طريق ارتباط لبنان بالقضية القومية، وتكريس انتياثه العبري. وكمان انحراف ثبورة العبراق ممما شجّع القبوي الخارجية والداخلية المعادية للوحدة، ولا سيها تلك التي تهددت مصالحها وتوجّهاتها الاجتماعية والاقتصادية، على فـك الوحـدة. وكان الانفصال خطأ تاريخياً فادحاً مهّد حتــاً لهزيمـة ١٩٦٧، وكان له في مخططات القوى الخارجية واسرائيل والـرجعية، أهميـة تعدل أهمية الوحدة بالنسبة لحركة التحرر الوطنية. أي أنـه كان منعـطفاً رئيسياً فاجعاً، ونقطة تحول سلبية تتجلى اليوم أبعـادها بــوضوح. ولا شك أن التهديد الامبريالي ـ الصهيوني هـ والذي منع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر من توجيه ضربة قاصمة ضد الانفصال في سورية. كما ان الحماية الامبريالية الصهيونية للانفصال هي التي سمحت بفك عرى دولة الوحدة التي جسدت عملياً بداية الانطلاق الوحدوي، وصارت بؤرة متعاظمة لاستقطاب قومي يعطُّل السيطرة السياسية والاقتصادية على الوطن العربي. وهكذا انتقلت الحركة الوحدوية المضادة للتجزئة، الى مرحلة الدفاع، وبعد هزيمة ١٩٦٧، برز مطلب الوحدة كمطلب ملح وكحاجة أساسية للتصدي لظروف الهزيمة، ولبناء استراتيجية التحرير. ولكن لم يتحقق أمر ذو بال، ودخلت الحركة الوحدوية مرحلة التراجع والانحسار، وقد أصابها ما أصاب عدداً من حركات التحرير الوطني في بلدان العالم الشالث في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية. ورغم انها استعادت بعض قوتها عام ١٩٦٧ في حرب اليمن، وانتصار الثورة الجزائرية، فان انقسام فصائلها بين من رأى أن الهزيمة العسكرية هي هزيمة سياسية ـ اجتماعية أساسا، ونتيجة منطقية لعقيدة البرجوازية الصغيرة القومية وطروحاتها، ولذا يجب اسقاطها كمرحلة ضرورية على طريق ازالة التجزئة، وبين من رأى أن الهزيمة هزيمة عسكرية بحتة، يمكن تجاوزها بتجاوز أسبابها التكنولوجية.

وبعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر (١٩٧٠) وضرب المقاومة الفلسطينية في الأردن، وتعثّر التقدم نحو وحدة القطرين سورية والعراق تحت راية حزب البعث، تضاءلت مصداقية التوجه نحو الوحدة. بلى، لقد شهد هذا التوجه لحظات تاريخية إبّان حرب تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٣، أثبتت فيها امكانية العمل العربي المشترك جدواها بين سورية ومصر، ولكن سرعان ما تبددت هذه اللحظات بعد أن غير الرئيس المصري، أنور السادات خندقه من المواجهة الى المساومة. لقد كانت مصر مع سورية في السنوات

الشلاثين الماضية، بمثابة المحرّك لانتصار العرب، وتصاعد صمودهم أمام قوى الهيمنة الخارجية. ولكن تزعزع هذا الصمود، سجّل بداية مرحلة الانحسار القومى التي يشهدها الوطن العربي اليوم على كل صعيد. وكان الانفصال فاتحة الانحسار، وأعقبه توجيه ضربة قاصمة ترمي الى تحقيق اجماع ألد أعدائنا، على ابعاد مصر من قضايا المشرق العربي. وهذا الاجماع شارك فيه اليمين الفرنسي واليمين البريطاني، والصهيونية العالمية والولايات المتحدة والاحتكارات الدولية. . وهو اجماع عنيد يتصل بحلم قديم راود الاستعمار منذ أن نجح في القرن المـاضي بضرب دولة محمـد علي الموحدة، وأرغم مصر على ملازمة (السجن الانفرادي) وراء حدودها. واتخذ هذا الاجماع مظاهر مختلفة متطورة ترتبط بتنظيم الوضع السياسي الذي رسمته القوى الخارجية للمشرق العربي، كما ترتبط بمحور الخلافات الرئيسية فيه، من مشاريع سورية الكبرى، الى مشاريع الهلال الخصيب، الى مشاريع حلف بغداد، الى مبـدأ أيزنهاور. . ويصـل بين هـذه المشاريـع خط واحد، هـو ضرورة فصل مصر عن المشرق العربي لما تمثَّله من طاقبة عسكريــة وبشرية كبيرة، لا يحـدّ منهـا جـوارهـا دولـة معـاديـة تنتقص من امكانياتها، وانما دولتان حليفتان شقيقتان، هما ليبيا والسودان، في حين لا تنطبق مزايا هـذا الجوار الجغرافي على سورية أو العراق (مثلا).

وهمل كان صدفة شروع اسرائيل بتحويل مياه روافمد نهر

الأردن بعد الانفصال مباشرة، وهل كانت تجرؤ على التحويل أيام الوحدة، وهي تعلم أن الضرب سينهال عليها أتوماتيكياً من طرفي الكهاشة في الشهال والجنوب؟ ولكن الانفصال جعل طرفي الكهاشة في دمشق والقاهرة، أوهى من خيط العنكبوت. وخرجت اسرائيل تتشفّى وتتحدّى وتتوسع وتعربد شامتة، وانطووا مجروحون على جراحهم، وتوارى قوم كانت الوحدة أغلى عندهم من عيونهم وولدانهم، وكان آخر ما توقعوا سهاعه نغمة تنادي بالوحدة «المدروسة»، ومنذ متى كانت الوحدات القومية تصنعها (الدراسة)؟ ان (الدراسة) سبيل الذين يأتلفون اليوم بعد عداوة قرون ا

أما اسرائيل فتقف عدوة متربصة بكل قطر عربي، وهي تتحرق لتنظيم بلدان المشرق العربي على شاكلتها. فاسرائيل تقوم أساساً على رابطة الدين والعنصر، وهي رابطة لا تقبل مبدأ التعايش. ولذا تحاول جاهدة، وبدعم ظاهر ومستتر من أمريكا، أن تدفع الأحداث في المنطقة نحو قيام دويلات ذات طبيعة طائفية وعنصرية على غرار دولتها، وذلك امعاناً في تجزئة المنطقة العربية من جهة، وحجب صورتها المتعصبة العدوانية التوسعية من جهة ثانية. كما تحاول اسرائيل أن ترسم لنفسها دوراً اقتصادياً محداً في المنطقة، يضمن لها المزيد من الموارد في اطار الطموح الى السيطرة عليها واحتوائها ضمن الاقتصاد الاسرائيلي، وعلى أساس أن تصبح مركزاً للصناعة ومصدراً للخدمات في المشرق العربي،

وبذلك توفّر لنفسها حافزاً يدفعها للتوسع باستمرار، مستغلة ظروف التجزئة العربية. وهنا يبرز السؤال الملح: ماذا يمكن للعرب أن يفعلوا؟

الجواب ببساطة، ضرورة البحث عن (وحدة) تقف في وجه اسرائيل، لا لمعركة الاسترداد، وانما على الأقل لمعركة الوضع الراهن. وهذا يشير موضوع التسلح. ان اعتباد العرب في مجال التسلح على غير العرب، يجعلنا نعترف بأن القوة الحديثة الصناعية والتكنولوجية للعرب هي قوة متواضعة في المعايير الدولية المعترف بها، وهذا أفضل ما يمكن أن يقال عنها في واقع التجزئة الذي نعيشه. ان أهمية العرب لا تكمن في سلطانهم هم، بقدر ما تكمن في نوعية الصراع العالمي الحاضر، وفي مركزهم الجغرافي ومواردهم النفطية وموادهم الأولية. كما أن الارادة العربية ذات فاعلية محدودة، وأوضح مثال عليها هو قيام الكيان الصهيوني في قلب مشرقنا العربي، واستمراره رغماً عنا طوال العقود الأربعة الماضية.

ولا نقصد مما سبقت الاشارة اليه، تثبيط الهمم والعزائم، والاغراق في الاحباط والتشاؤم، وانما قصدنا تجاوز الجدلية القطرية، وتجاوز عصبيات الكيانات لكي نتجاوز عوالمنا الصغيرة ونتخلى عن منطق السيادات السياسية، وننظر الى ظاهرة التجزئة، نظرة من يرى الى أبعد من يومه، قبل أن يدهمنا الفناء، ونحن عن خطره لاهون.

ومن يدري كيف يتغير وجه العالم، لـو تمكن المئتا مليـون من العرب أن يكوّنوا دولة الوحدة، ولو استطاعت أقطارهم المشتتة أن تنقل الاستقلال الى الوحدة، وبخاصة اذا ظلت هذه الدولة تحتفظ برسالتها وتتابع نشرها؟

إن الانحسار والتراجع القوميين ترجع أسبابهما الى واقع التجزئة الـذي تعيشه أمتنا، والذي تحرص عليه وتحميـه القوى الخارجية واسرائيل. ان الغرب والشرق على السواء، لم يكونا مع الوحدة، ولم يكونا متعاطفين معها. كلاهما ولا سيها أمريكا، وجـد فيها ما يتهدد مصالحه بدرجات متفاوتة. وكلاهما لا مصلحة له في توحيد الأقطار العربية وحدة فاعلة تمتد على طول الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، وتبطوي البحر الأحمر وقناة السويس، ومضيق باب المندب والخليج العربي. وتطل على المحيطين الهندي والأطلسي. ويكمن في جوفها ٧٠ بالمائـة أو ٨٠ بالمـائة من مخــزون الطاقة في العالم، وهي جسر اتصال بـين قــارات أوروبــا وآسيــا وافريقيا، تتحكم في طرق المواصلات جواً وبراً وبحراً. وفيهـا من الطاقات البشرية والموارد المائية والأقاليم الزراعية، والقيم الحضارية، وثروات التاريخ والتراث. . ما يجعل وحدتها تهدد توازن العالم، وتخلق عملاقاً ثالثاً قادراً على تحقيق ذاتيته في معركـة الحضارة، كما فعل أجدادنا قبل قرون.

ولن تتحقق هـذه الوحـدة، الا اذا نُبـذت العـوائق الـوهميـة والحقيقيـة، التي تقف في صف التجـزئـة، ابتـداء من العــوامـل

الايديولوجية والاقتصادية والاجتهاعية . . . فالمطلوب صهيونياً واستعمارياً أن تحدث الوقيعة بين الأشقاء وأن يسود الياس صفوفهم، فتبقى دولهم مشدودة الى قيم واحتياجات خارج الوطن العربي، سياسياً وأمنياً واقتصادياً.

هوامش الفصل السادس

Stephen Green, Taking Sides (New York, 1984).

الانحياز، نقله الى العربية سهيل زكار (دمشق: دار حسان، ١٩٨٥)، ص ٢١٩.

- (٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٢.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٧.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.
- Jon Kimche and David Kimche, The Secret Roads to Israel: The (\(\)\) "Illegal" Migration of a People, 1938 1948 (London: Secker and Warburg, 1954), pp. 72-73 and 93.
- (٧) انظر: ساطع الحصري، الاقليمية: جلورها وبلورها (بيروت: دار العلم للملاين، ١٩٦٣)، ص ٢٦.

الخياتمية

قدمت الفصول السابقة مؤشرات وإطاراً عاماً لرصد أهم العوامل التاريخية في تكوين أقطار الوطن العربي بصورته الراهنة، وبعبارة أخرى، كيف تحققت التجزئة العربية تاريخياً بعد أن تفككت وحدة الدولة أو الدول العربية الإسلامية الكبرى في المشرق والمغرب، وابتليت بجولات الاستعمار الأوروبي التي أصابت أقطار العرب واحداً بعد الآخر، وبخاصة بعد ضعف السلطنة العثمانية التي كانت آخر الدول الإسلامية والتي ضمّت معظم أقطار الوطن العربي، وعلى الرغم مما يوجّه إلى الحكم العثماني من نقد، فإنه حفظ للعرب وحدتهم التاريخية، وبخاصة في القرون الشلاشة الأولى، فلم ينصب الحواجز والحدود بين أقطارهم، ولم يقصر في حمايتها من الغزو الأجنبي. وباستثناء عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولاسيا فترة الترك الطورانيين بعده عيث قام الحكم على أساس النظام المركزي الضيّق، فإن العرب حيث قام الحكم على أساس النظام المركزي الضيّق، فإن العرب

ظلوا يتمتعـون بنوع من الحـرية والاستقـلال الداخـلى في تصريف شؤون هيئاتهم وطواثفهم ومجتمعهم. ولكن العرب بدأوا يتنبهون في أوائـل القرن العشرين إلى أن اطمئنـانهم إلى السلطنة العشمانية المتداعية التي بدأ الاستعمار الأوروبي يستحوذ على ممالكها العربية في شــال أفريقيـا، سيؤول حتماً إلى فقــدان كيــانهم وضيـاع شخصيتهم واندثار لغتهم. ولذلك ألح القوميون الاصلاحيـون في المؤتمر العربي الأول (١٩١٣) على حقوق العرب في المشاركة بحكم بلادهم وفي التعليم باللغة العربية. . حتى إذا أطلَّت النزعة الطورانية التركية من وراء ستار الخلافة الإسلامية، تحاول إطفاء جذوة العروبة واستئصال دعاتها، أيقن العـرب أن خلاصهم رهن بشورتهم على السلطنة، ولا بدّ مما ليس منه بـدّ. وواجه العـرب مطامع (الحلفاء) الاستعمارية التي كشفت عن وجهها في نهاية الحرب العالمية الأولى، ورمت وثبة العرب بالصداقة الزائفة والتجزئة المقصودة. وكان الكفاح مريراً والصعاب كثيرة أمام (المدول العربية) التي رسم الاستعمار الأوروبي حمدودها في آخر حلقة من سلسلة جولاته للاستحواذ على الوطن العربي، والتي رزح كل منها، في افريقيا وآسيـا، تحت أنظمـة إدارية واقتصـادية وتشريعية وثقافية خاصة، تساعد على نموّ هوّيات محلية ونـزعات إقليمية في الفترة ما بين الحربين. وفي أواخر الحرب العالمية الشانية نشأت جامعة (الدول) العربية، وكانت نتيجة حتمية لتباين النزعات والاتجاهات العربية لـدى حكام دول المشرق العربي. وحاولت الجامعة تكتيل الجهد العربي بعد نكبة فلسطين

(١٩٤٨)، شعوراً من الدول الأعضاء بأن المواجهة مع (إسرائيل) ومن يساندها، تقتضي تنظيم شؤون الـدفاع والاقتصـاد على أسس راسخة جديدة. وأكد مجلس الجامعة الـربط بين الأمن القـومي والأمن الاقتصادي، فأبرم معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي عام ١٩٥٠. حتى إذا استطاع الاستعمار أن يجتذب إلى صف بعض ركائزه في العراق لضرب الشعب وجر بلاده إلى الأحلاف الغربية في أواسط الخمسينات، كان ذلك إيذاناً باحتدام الصراع بين قوى الوحدة والتحرر، وبين قـوى التجزئـة والوضـع الراهن. وحين نجحت المؤامرة على الوحدة المصرية ـ السورية (١٩٦١)، اتضم أن نكسة الانفصال تركت وراءها درساً بالغ الأهمية، وهي أن الوحدة لا يمكن إنجازها إلا بتحالف قوي الشعب العاملة، ذات المصلحة الحقيقية بالوحدة، على اعتبار أن الوحدة هي السلاح الحاسم لانتصار الجهاهير على الاستعهار والتخلف والتبعية الاقتصادية والتجزئة السياسية. وعلى اعتبار أن الوحدة هي الحل الحتمي لمشكلة الدفاع عن الحريـة والحفاظ عـلى الديمقراطية. فلا نكران أن التجزئة تحول دون التحام جماهير الأمة العربية، بحيث تبقى جماهير كل قطر محصورة داخل حدودها، تواجه منفردة الحكم القائم الإنفصالي بكل وسائل قمعه وردعه. بينها تضمن الوحدة تلاحم الجماهير العريضة بحيث تستطيع أن تجابه النـزوع الاستبدادي وتـردعه وتهـزمه، وبـذلك تنصر قضيـة الحرية والديمقراطية التي لا سبيل إلى حمايتها بغير الرقابة الجماهيرية الحقيقية التي لا تشلُّها حواجز التجزئة.

وكان لا بـدّ أن ينجم عن تعدّد النظم الثورية في الـوطن العربي، صراع عقائدي وتناحر فكري، بحيث يدفع المنتسبين إليها نحو منعطف فاشي يشعرهم بالتفوق والاستعلاء على غيرهم. وإنه لأمر يدعو إلى الأسف والدهشة، كيف استطاع العدو الإسرائيلي دائماً أن يىرتفع بـأهداف إلى صعيد تـذوب معه فـوارق الأحزاب وخطوطها التي تتراوح بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، ونعجز نحن حتى عن الاتفاق على صعيم الأقطار العربي ذات الأهداف الموحدة! وهذا يدفعنا إلى التأكيد على أننا أحوج ما نكون إلى التخطيط العلمي في مجال العمل الوحدوي لمواجهة التجزئة؛ إن ذلك يجب أن يدفع المفكرين العرب إلى توضيح طريق الـوحدة ورسم السبل المؤدية إليها، بعيداً عن التعصب العقائدي، وفي معزل عن مقتضيات السيادة القطرية والمصلحة الحزبية. لئلا يطغى الاهتبام بالتنظيم الحزبي على الاهتبام بالعمل العقائدي، ولئلا تصبح القومية العربية في خدمة الحـزب، بدلاً من أن يكـون الحزب أو الحركة أو التنظيم، في خدمة القومية العربية.

إن أول العلل والتحديات التي أدّت إلى ضآلة حصيلة العمل العربي المشترك في مجال مكافحة التجزئة العربية وما ينجم عنها، هي ضعف الإرادة السياسية العربية التي لم تصل إلى المستوى المطلوب لتنفيذ التزامات العمل القومي العربي بشتى الصّعد. وهذا الضعف الذي هو النتيجة الحتمية لاتجاه أعضاء النظام العربي نحو تعميق الخصوصية القطرية والمحلية، هو الذي يعرقل

مقتضيات الأمن القومي والاقتصادي، ويقضى إذا ما استمر إلى انهيار قيمي وحضاري كامل. وهذه مسؤولية أعضاء النظام العربي الذين يتعين عليهم أن يتساءلوا عن جدّية ونوايا الـدول التي تجعل لمصالحها القطرية سبقاً على مصالح الأمة وإراداتها الجماعية. ولعـل الخروج من هذا المأزق الخطير يقتضي ـ فيما يقتضي ـ مضاعفة الجهد لتقوية الوعى القومي على صعيد المسؤولين والجماهير، وبثُّ الإيمان بوحدة الأمة العربية، والحرص على ممارسة عملية للحرية والديمقراطية، فهي التي تقوّي فعالية الشعب وتجعل وزن الرأي العام حاسماً «إن لم يكن العامل الفعّال المقرّر لسياسة الدولة». ولنّ يستقيم الحال إلا إذا اعتمدت مشروعية كل نظام عربي على هذه المارسة للديمقراطية لا على تكرار الشعارات والدعاوات، فهل يرتفع المسؤولون إلى مستوى مسؤولياتهم التاريخية والقومية، ويدركون أن تنمية القيم الديمقراطية التي تمكّن الجهاهير من المشاركة في صنع القرارات، وتصحيح مسار العمل العربي المشترك، هما الـرّد الطبيعي عـلى التحديـات المصيريـة التي تتهدّد الموجود العربي، وتحول دون إنمائه وأمنه؟! وهمل يمدركمون أن الاسترشاد بالشُّعب نفسه، والاستلهام من مصالحه وإرادته، هـو الذي يقوّي الإرادة السياسية الحرّة التي تغني عن الاحتماء بـالمظلة الأمنية البديلة خارج الوطن العربي، على أسـاس أن الأمن العربي لا ينبع إلا من القدرة الـذاتية العـربيـة، وإلا فهـو أمن الضعيف التـابع، لا القـويّ السيّد؟! وهـل يتحققون أن جهـود التخطيط القطري إذا لم تنسَّق مع جهود التخطيط القـومي فإنها لن تجـدي،

لأن مطالب القوة والتقدم، لا توفرها جهود وإمكانات دولة واحدة مها عظمت، ولأنه كلّما اتسع مجال العمل وتنوعت إمكاناته، كان ذلك أدعى للوصول بأهداف التخطيط إلى ما لا يمكن إنجازه في إطار القطر الواحد، وأن القوة الاقتصادية الحقيقية ليست موارد النفط، وإنما إقامة مصادر دائمة للإنتاج الاقتصادي والزراعي والصناعي! وأن التدهور الاقتصادي في قطر شقيق لا بدّ أن يعكس على استقرار واقتصاد أغنى الأقطار الشقيقة، وأن تآكل ينعكس على استقرار واقتصاد أغنى الأقطار الشقيقة، وأن تآكل الأرصدة النقدية العربية نتيجة استمرار التضخم العالمي، يطرح بإلحاح استثار بعض هذه الأرصدة على الأقل، في تمويل المشاريع الإنمائية العربية، بدل إيداعها في المصارف الأجنبية بفائدة لا تتناسب حتى مع قيمتها الإنتاجية الحقيقية؟

وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى أهم جزئيات التحدي الاقتصادي، وهو تفاقم أزمة الغذاء في الوطن العربي، وأهمية تعبئة الجهود العربية لحلها، قبل أن تؤدي إلى مزيد من التبعية الاقتصادية والسياسية للتوجّه الاستعاري الجديد في المنطقة. علماً بأن السطح المزروع لا يتجاوز ٤٠ بالمائة من مساحة الأرض الزراعية، بينما يتزايد السكان العرب بنسبة ٣ بالمائة سنوياً.

د. ادود طریق

- 🛭 ولد في دمشق بسوريا
- حصل على الماجستير من معهد الدراسات المربية المالية بالقاهرة، ثم الدكتوراه من جامعة عين شمس.
- شغل منصب استاذ التاريخ الحديث في جامعة دمشق، ثم تولى رئاسة قسم التاريخ. مارس التدريس في جامعات مصر والرياض وجدة والكويت والأردن ولبنان
- مؤلفاته: ازمة الحكم في لبنان (دمشق، ١٩٦٦)، لبنان من المتصرفية إلى الانتداب (القاهرة، ١٩٦٨)، تاريخ قضية فلسطين، ١٨٩٧ ١٩٤٨ (جزءان) (دمشق، ١٩٦٨)، الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر (دمشق، ١٩٧٠)، التأريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث (دمشق، ١٩٧٠).

مركز دراسات الوحدة المربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون

ص. ب: ۲۰۰۱ ـ ۱۱۳ ـ بیروت ـ لبنان

تلفون: ۸۰۲۲۳۲ م۰۱۰۸۲ ۸۰۲۲۳۲ م

برقیا: «مرعربی»

تلكس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣